المؤسسية في الإسلام
تاريخاً وتأصيلاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسة في الإسلام
تاريخاً وتأصيلاً

إعداد

مجموعة من المؤلفين

الأسماء مرتبة أبجدياً

أ.د. أحمد فؤاد باشا
أ.د. السيد عمر
الشيخ/ جمال قطب
أ.د. طه جابر العلواني
أ.د.عبد الرحمن النقيب
أ.د. نادية مصطفى

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Ó المعهد العالمي للفكر الإسلامي

الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٢.

المؤسسية في الإسلام: تاريخاً وتأصيلاً

مجموعة من المؤلفين؛

تدمك:

موضوع الكتاب

رقم التصنيف:

رقم الإيداع:

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
المركز الرئيسي – الولايات المتحدة الأمريكية
The International Institute Of Islamic Thought
P.O. Box: 669, Herndon, VA 20172 – USA
Tel: (1-703)477 7733/ Fax: (1-703)471 3922
www.iiit.org/iiit@iiit.org

مكتب التوزيع في العالم العربي
بيروت – لبنان
هاتف: 009611707361 - فاكس: 009611311183
www.eiit.org/info@eiiit.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهرس المحتويات

مقدمة

التأسيس والمؤسسة

المؤسسات العلمية والتعليمية في عصر الحضارة الإسلامية

المؤسسات البينية في العالم الإسلامي

المؤسسة السياسية في المنظور القرآني

المؤسسة الدينية

مؤسسات التعليم في عصور الازدهار الإسلامي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤسسية

أولاً: المؤسسية: قراءة في دورها وطبيعتها

تعني المؤسسية أن يكون الأمر مؤطراً في مؤسسة. الفكرة لأجل أن توضع موضع التطبيق فإن ذلك يحتاج إلى مؤسسة، والمؤسسة هنا تؤمن التطبيق وتيسيره، كما أنها تتيح المتابعة والتقويم، وأخيراً فإنها تسع التطوير وترشده.

المؤسسية مرآة يظهر فيها التطور، وهى مرآة تحدد نوع الحضارة. الإنسان بدا فرداً، وبمجرد أن بدأ رحلة التطور ظهرت المؤسسية في حياته. بل إنه يمكن القول إن المؤسسية مثلث الوعاء الذي تحرك فيه الإنسان في رحلة التطور. لو لم تظهر المؤسسية لظل الإنسان فرداً جامعاً للحطب وقاذفا الثمار بالحجارة وساكناً كهفاً في جبل ومستربلا بأوراق الشجر.

توصف المؤسسية بأنها ذات طبيعة فنية وليست مذهبية. يعني ذلك أن المؤسسية لا ترتبط بمذهب معين وإنما لها صلاحية تطبيقية في مذاهب متنوعة. وإن ظهرت دعوة لربط مؤسسة بعينها. بمذهب بعينه فإن هذا من قبيل تجميل المذهب. ولهذا تبقي الطبيعة الفنية للمؤسسية هي الخاصية المحددة لها والتي تعطي لها صلاحية تطبيقية عبر الأزمنة والأمكنة والمذاهب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القول بأن المؤسسية لا تحمل طبيعة مذهبية لا يصل إلى حد القول بأن المذاهب لا تولد مؤسسات،ولكن هذه المؤسسات بمجرد أن تولد تصبح لها صلاحية التطبيق في مذهبية أخرى، أي أنه لا يمكن تمذهب المؤسسة.

القول بأن المؤسسية ذات طبيعة فنية يحررها من القيود المذهبية، ويعود هذا بالنفع على المذهبية فتطلق الفنية المؤسسية الإبداع في مجال الاقتصاد والإدارة والسياسة، بل إن الفنية المؤسسية تقيم صلة حوارية ذات فعالية ايجابية أبداعية.

ثانياً: المؤسسية: قراءة في النص والواقعة التاريخية الإسلامية:

يمكن القول بأن الإسلام ولد مؤسسيا وصاحبته المؤسسية طوال فترة تنزل الوحي. تلقي رسول الله محمد r الوحي وهو معتكف في غار حراء يعبد ربه، وبمجرد تنزل الوحي فإن أسرته احتضنت الإسلام، نعرف الحركة لأمنا خديجة رضي الله تعالى عنها عندما أخبرها الرسول r بتلقيه الوحي. الأسرة تمثل بداية التأطير المؤسسي ـ للمجتمع. ومن الأهمية أن يشاء إلى أن الإسلام. بتشريعاته العاملة على الأسرة يعمل على تأطيرها مؤسسيا. إن أسرة مؤطرة مؤسسيا هي مفتاح للخير.

دار الأرقم هي تفعيل وتجسيد لدور المؤسسية في الدعوة الإسلامية، ولقد خدمت الإسلام من هذا المدخل، لقد كانت دار الأرقم مقرا مؤسسيا طيبا لتبليغ الدعوة الإسلامية ولحمايتها. وتتواصل المؤسسية في تبليغ الدعوة الإسلامية إلى أن نصل إلى بيعتي العقبة الأولي والثانية لقد كانتا عملاً مؤسسيا إبداعياً. وتتجلى مظاهر الإبداع في هذا العمل أنه مثل الإطار المؤسسي الذي تفاعل إيجابياً مع قيام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدولة الإسلامية في المدينة المنورة. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والوثيقة بين المسلمين وغير المسلمين في المدينة المنورة – هذا وغيره كان تأطيرا مؤسسيا للدولة الإسلامية في مرحلة نشأتها الأولي.

العشرة المبشرون بالجنة قضية من قضايا أمتنا الإسلامية، أكثرت الأمة الحديث عن أن الجنة تنتظرهم وسكتت الأمة عن دورهم الحيوي في التفعيل المؤسسي لبناء الدولة الإسلامية كعمل حضاري إبداعي، وهي الجمعية التأسيسية التي أمنت العمل السياسي في عصر الخلفاء الراشدين، خاصة في اختيار الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، أبو بكر وعمر وعثمان.

من باب حسن الختام لهذه الفقرة أن نشير إلى أن العبادات الإسلامية مثل الصلاة والحج تتأسس على الجماعية التي هي الوعاء الذي تعمل فيه المؤسسية أو الوعاء الذي يحمل المؤسسية. أما الزكاة فإن المؤسسية فيها مقررة بنص قرآني صريح. يقول الله تعالي: **[إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا]** إن مصرف العاملين على الزكاة يستلزم قيام مؤسسة للزكاة.

ثالثاً: المؤسسية: قراءة في التقدم

نقترح أن نبسط أمامنا خريطة للعالم مما يسمي الخريطة السياسية حيث تظهر هذه الخريطة دول العالم، ثم نأخذ قلما به حبر أحمر ونضع نقطة على موقع كل دولة متفق على أنها دولة متقدمة، ونتكلم عن أتفاق على التقدم وليس على ادعاء التقدم. تأخذ بعد ذلك قلما به حبر أزرق ونضع نقطة على موقع كل دولة يصدق عليها مصطلح دولة مؤسسية. ونتكلم عن دولة مؤسسية. بالمعنى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصحيح وليس ادعاء مؤسسية. لقد أثبتت التجربة العملية أن الدولة التي أخذت علامة الحبر الأحمر هي نفس الدولة التي أخذت علامة الحبر الأزرق. إننا ندعو المشتغلين بأمر أمتنا الإسلامية أن يقوموا بهذه التجربة.

هذه التجربة التي أشرت إليها تقيم الدليل المادي على أن التقدم والمؤسسية متلازمان ؛ حيث يوجد التقدم توجد المؤسسية وحيث توجد المؤسسية يوجد التقدم. بشأن التلازمية بين التقدم والمؤسسية، يوجد تساؤل: ما هو الترتيب الذي بدأت به المجتمعات التي تقدمت وتأطرت مؤسسيا: هل بدأت بالمؤسسية فتحقق التقدم أو بدأت بالتقدم فتأطرت مؤسسيا. مع أن هذا التساؤل قد تبدو فيه معقولية لكن هذه المعقولية تخفي شيئاً سلبيا. إن الذين يتمسكون بالإجابة عن هذا التساؤل يعطلون كلاً من التقدم والمؤسسية. وهؤلاء الذين يتمسكون بالإجابة عن هذا يشبهون الذين أفنوا أعمارهم يبحثون في الإجابة عن التساؤل: ايهما أسبق البيضة أو الدجاجة.

المؤسسية التي تلازمت مع التقدم يلزم لها شئ من التوضيح إنها مؤسسية شاملة: السياسة بكاملها مؤطرة مؤسسية، التشريع بكامله مؤطر مؤسسيا، بإجمالى المجتمع بكل ما فيه مؤطر مؤسسيا. هذا التقرير عن شمولية التأطير المؤسسي نقصد منه أن نغلق الباب أمام تساؤل: بأي مجال نبدأ التأطير المؤسسي. هذا التساؤل أقل ما يوصف به أنه معطل وسلبي.

رابعًا: المؤسسية: الموسم الثقافي للمعهد ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨م:

من التقاليد العلمية بالمعهد تنظيم موسم ثقافي تنظم به محاضرات لكبار الأساتذة ويبدأ هذا الموسم في شهر أكتوبر من كل عام وينتهي في شهر إبريل من العام التالي وقد جرت مناقشات مطولة لتحديد موضوع هذا العام ولأسباب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كثيرة تم اختيار موضوع المؤسسية وما جاء في الصفحات السابقة مع غيره يقـوم دليلاً على أهمية هذا الموضوع.

يشمل الموسم الثقافي سبع محـاضرات ويسـتهدف أن تغطـي هـذه المحـاضرات مجالات متعددة ومتنوعة في المؤسسـية. ويخطـط لإخـراج هـذه المحـاضرات في كتاب وذلك لإتاحة الانتفاع بما جاء عن هذا الموضوع على مسـاحة واسـعة مـن القرء. ومما يجدر ذكره أن أعمال المعهد يتم لها نشر إلكتروني.

دكتور رفعت العوضي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التأسيس والمؤسسة

أ.د. طه جابر العلواني
رئيس جامعة قرطبة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

التأسيس والمؤسسة

أ.د. طه جابر العلواني

مقدمة:[1]

تلك الورقة قدمت من أحد رموز إسلامية المعرفة وهو الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني، وهو من مواليد العراق عام ١٩٣٥م وتلقى تعليمه قبل الجامعي في العراق ثم شرف بالأزهر الشريف وتخرج في كلية الشريعة والقانون وأتم الحصول على الدكتوراه من جامعة الأزهر عام ١٩٧٣م.

عمل أستاذًا للفقه وأصوله بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وشارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي وتولى رئاسته في الفترة من ١٩٨٥-١٩٩٧ وعضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة، أما حاليًا فهو رئيس جامعة قرطبة بفيرجينيا.

وإذا كنا نشير إلى بعض إنتاجه الفكري فإن تحقيقه لكتاب المحصول في علم أصول الفقه للإمام الرازي قد أصبح هو التحقيق أو المرجع المعتمد لهذا الكتاب، ومن أبرز مؤلفاته:

١. الاجتهاد والتقليد في الإسلام
٢. أدب الاختلاف في الإسلام

---

(١) الأستاذ الدكتور رفعت السيد العوضي، المستشار الأكاديمي لمركز الدراسات المعرفية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣. أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث المعرفة

٤. إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات

٥. أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها

٦. الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون

٧. لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب

٨. نحو موقف قرآني من النسخ

٩. لا إكراه في الدين: إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم

بالإضافة إلى الكثير من المؤلفات باللغة العربية واللغات الأخرى.

يستحق عالمنا الجليل أن نعرف به بأكثر مما تقدم ولكن نستسمح في هذا التعريف المختصر لسببين، الأول مقتضى الحال حتى نترك وقتًا ملائمًا لنسمع منه موضوع المحاضرة والثاني أن الكثير منا قرأ له والتقى معه وهذا أتاح له معرفة بعالمنا الجليل.

بناء على حوارات عميقة في هيئة مكتب مركز الدراسات المعرفية وقع الاختيار على موضوع المؤسسية ليكون موضوع موسم ثقافي عن المؤسسية قدمت فيه تلك الورقة، وقد اعتمدت رئاسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي هذا الاختيار.

الأسباب التي جعلت هيئة المكتب تختار هذا الموضوع متعددة وكلها تصب في دور المؤسسة في تأطير التقدم؛ لم يوجد تقدم بدون تأطير مؤسسي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمجتمعات المتقدمة الآن مؤطرة مؤسسيًا، وهذا يجعلنا نستنتج أنه بدون تأطير مؤسسي لن يوجد تقدم. واستكمالاً للتعريف بموضوع هذا الموسم فإنه يشارك فيه عدد من كبار المفكرين المشغولين بهموم الأمة والمشتغلين بالكتابة في الإسلاميات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

التأسيس والمؤسسة

أ.د. طه جابر العلواني

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه، واستند بسنته إلى يوم الدين.

ثم أمّا بعد فإنّ كل أنواع الشكوى في المحيط الإسلامي تبدأ أو تنتهي بالشكوى من فقدان مفهومين أساسيَّين، هما: "مفهوم المنهج والمنهجيَّة" و"مفهوم المؤسَّسة والمؤسَّسية" وغياب مضامين هذين المفهومين عن الحياة الإسلاميَّة، وممارسات المسلمين. وينسب الكثيرون سائر وجوه الفوضى وغياب التخطيط المستقبليّ، والقصور في الأداء، وفقدان الإستراتيجيَّة، والارتباك في اتخاذ القرارات، أو اتخاذ القرارات بشكل مرتجل وغير موضوعيّ، وفشل خطط التنمية، والإصلاح الإداريّ، وتراجع كل محاولات النهضة والتقدّم؛ كل ذلك يردّه الكثيرون إلى فقدان "المؤسّسة والفكر المؤسّسي". وقد يضيف البعض إلى ذلك انتشار الرشوة والمحسوبيَّة والتحيّز إلى تلك الأمور التي يعتبرونها معوّقات النهضة، وتجاوز الأزمات.

ولاشك أن لكل ما ذكر نصيباً من الصحَّة. و"المؤسَّسة والمؤسَّسيَّة" وقاية من النزعات الفرديَّة والممارسات التي تفتقر إلى الحِيَدةِ والموضوعيَّة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأقرب إلى تحقيق الانضباط والنظام والعدالة. وقد تحدِث آثاراً جيدة في شيوع وترسيخ الروح الجماعيَّة، والتآلف والمودة، وتقليل سلبيّات المشاعر الفرديَّة من الأثرة وحب الذات والمحسوبيَّة وما إليها.

ولكنَّنا في حاجة إلى تحديد نوع المؤسَّسات التي تشتدّ حاجتنا إليها، إذ أنّ المؤسَّسات أنواع: فهناك مؤسَّسات ترتبط بـ"الحكومة" فالحكومة تحتاج إلى مؤسَّسات تعتمد عليها في تنفيذ سياساتها، وتحقيق برامجها. وقد تعتمد إلى تغييرها أو تطويرها أو إلغائها بعد انقضاء الدواعي لإيجادها وتأسيسها؛ وهذه المؤسَّسات أشبه ما تكون بالمؤسَّسات غير الثابتة التي تنشأ في حالات الطوارئ، والظروف الاستثنائيَّة.

وهناك مؤسَّسات دولة تنشأ لتلبية حاجة الدولة. وتختلف مؤسَّسات الدولة عن مؤسَّسات الحكومة بكونها أقرب إلى الثبات والاستمرار. ويغلب عليها كذلك السعة والشمول لتكون قادرة على خدمة جوانب ومكونات الدولة كلّها. فهي بذلك أوسع من مؤسَّسات الحكومة وأكثر رسوخاً وأدوم.

والقرآن المجيد نزل ليؤسِّس أمَّة تكون "أمَّة الأمم" أو "الأمَّة القطب" التي تستطيع أن تستقطب العالم -كلَّه- حول مجموعة من الأهداف والقيم بحيث تجعله عالماً قادراً على تحقيق غاية الحق من الخلق، عالماً تهيمن عليه القيم العليا: قيم "التوحيد والتزكية والعمران" عالماً إنسانيّاً يفي بـ"العهد الإلهيّ"، ويؤدي مهام "الاستخلاف" في إطار من "الأمانة" وإدراك لطبيعة "الابتلاء" وانتظار "الجزاء الإلهيّ".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عالم لا يسمح ببقاء أيّ جزء منه في الظلام والظلمات؛ ومن تلك الظلمات عبادة العباد، واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان. والعالم الذي سعى القرآن العظيم لبنائه، هو عالم يكون الناس -جميعاً- فيه عباداً لله I وحده. ولإخراجهم من ظلم الناس بعضهم بعض أو تظالمهم إلى عدل الإسلام. ومن سائر أنواع الضيق والنهايات إلى امتداد الحياة وسعة الدنيا والآخرة.

ومن هنا فإنّ "الفكر المؤسَّسيّ" الذي عمل القرآن على إرساء دعائمه لم يربطه بحكومة أو بدولة، بل ربطه بـ**"الأمَّة القطب الوسط الخيِّرة الشاهدة على الناس المؤمنة بالله الواحد الأحد، الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر"**. فكل مؤسَّسة من المؤسَّسات صغرت أم كبرت ينبغي أن تكون جزءاً فاعلاً في منظومة "الأمَّة" تؤدي دورها بتناغم وانسجام وفاعليّة انطلاقاً من "شرعيَّة الأمَّة ومرجعيَّتها" التي تحدّد لكل مؤسَّسة دورها في تحقيق أهداف الأمَّة وغاياتها. وهي تدور حول الأمَّة وفي إطارها حيث دارت. وتوجد حين توجد تلبية لحاجات الأمَّة:

فبعضها يمكن أن يعد من "المؤسَّسات الضروريَّة" إذا تعلّقت بضروريّات الأمَّة مثل وجودها، وحدودها وأمنها واستقرارها وأهدافها العليا، وبعضها يمكن أن يندرج في الأمور التي تعدُّ في مستوى "حاجيَّات الأمَّة" التي لا ترقى إلى مستوى "الضروريَّات" لكنّها حاجات لا يقبل التفريط بها، أو التهاون في المحافظة عليها بحال. والأمَّة تجد حاجة بمستوياتها المختلفة لإقامة المؤسَّسات القادرة على تلبية وتدعيم تلك الحاجات، والمحافظة عليها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهناك كماليَّات وتحسينيَّات قد تأخذ المؤسَّسات التي تقوم عليها هذه المرتبة. وقد ترقى إلى مستويات أعلى مثل تلك المؤسَّسات التي تقوم على ترقية وحماية "الذوق العام" وإنتاج الفنون والآداب التي تبني الذوق الإسلاميّ، وتنمِّي المشاعر الطيِّبة التي لا يستغنى عنها لتنمية الدواعي الخيّرة، والدوافع النبيلة لدى الأجيال.

وحين اختزلت بعض الفتاوى معظم الفنون والآداب إلى مستوى فتوى تحرّم وتحل فقط هبط الذوق العام، وسادت مشاعر القسوة والغلظة والفضاضة التي قادت إلى كثير من الانحرافات وجفاف الحياة، وفات كثيراً من أولئك المتصدّين لتلك الفتاوى امتنان الله l على داود u : [وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ] (سبأ: ١٠) وامتنانه على سليمان u بقوله: [يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ] (سبأ: ١٣) ولا يمتنُّ الله على أنبيائه بما هو محرّم أو مكروه.

وهناك مؤسَّسات محرّمة أو ضارّة أو ممنوعة، لا ينبغي أن تقام بأيّ حال من الأحوال، مهما كانت الأسماء التي تعطى لها؛ فإنّ الله l قد أمر بهدم "مسجد الضرار" في كتابه العزيز، فقال: [وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ] (التوبة: ١٠٧) فالتسمية -هنا- "مسجد" لم تعد مؤثّرة وقد فرِّغ المسجد من سائر مضامينه فصار "ضراراً" وحقيقة المسجد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفع الأمَّة في بنائها ووحدتها وإعلاء قيمة التوحيد فيها، وتزكية الناس وتطهيرهم وتعليمهم الكتاب والحكمة. وجمعهم -دائماً- على كلمة سواء. فإذا صار المسجد مؤسَّسة لتعليم الكفر، والتفريق بين المؤمنين، ومثابة لأعداء القيم القرآنيَّة فلن ينفع في ذلك اسم المؤسَّسة ولا الإعلانات أو البرامج المعلنة لها حتى لو أقسم أصحابها الأيمان وأعطوا العهود على حسن النوايا والحرص على قيم الحق والخير والجمال.

الاجتهاد المعتبر في صناعة المؤسَّسات:

هناك نزعات تقليد قد تدفع البعض إلى استيراد مؤسَّسات صنعت في بيئات أخرى لتلبى حاجات معيَّنة لتلك المجتمعات. وهذا النوع من المؤسَّسات المنقولة على مستوى التقليد لا يمكن أن يؤدي في خدمة المجتمعات التي تستزرع أو تستنبت تلك المؤسَّسات في المجتمعات التي أنشأتها. ولذلك فإنَّ المؤسَّسات لابد أن تنشئها الأمَّة وفقاً لاجتهادات ودراسات شاملة تبيِّن وتؤكد مدى الحاجة إليها، والثغرة التي سوف تسدُّها هذه المؤسَّسة في الكيان الاجتماعيّ للأمَّة وفقاً لما ذكرنا. فالمؤسَّسات لا تنشأ لتلبية نزعات فرديَّة، أو هوايات شخصيَّة، بل لابد أن تلاحظ في تأسيسها "الأمَّة" بكل مقوِّماتها وعناصرها ومتعلَّقاتها. فالأمَّة بقطع النظر عن مواقع كل منها مثل ركاب سفينة واحدة: اختصاص أيّ من أبنائها أو مكوّناتها بموقعه لا يعطيه الحق في أن يتصرّف في الموقع الذي هو فيه كما يشاء؛ لأنَّ الخرق أو التصرُّف السيئ يودي بركاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السفينة -كلّهم- وبالسفينة ذاتها. ولذلك فإنّ أيّ شيء ذي تأثير في سفينة الأمَّة أو ركابها لابد أن يخضع لدراسات جادَّة تضعه في مستوى من المستويات التي ذكرناها آنفاً، وذلك لا يمكن اكتشافه بدون اجتهاد معتبر من أهله، قائم على دراسات جادّة شاملة مستوعبة. والتقليد في نقل المؤسَّسات لا يسمح بذلك.

إنَّ الأمَّة تحتاج مؤسَّسات لمرحلة التكوين والبناء وقد تكفل الله U بتوفيرها لهذه الأمَّة فكانت ثلاثة دعائم إلهيَّة هي: النبيّ الرسول والقرآن المجيد، وحملة رسالة الأسلام الأوَّلون. وهناك مؤسَّسات لتدعيم البناء وحفظه، ومنحه عوامل البقاء ودرء عوامل الهدم عن الأمَّة. وهناك مؤسَّسات لتمكين الأمَّة من أداء دورها المناط بها، وتحقيق أهدافها ومقاصدها. وتوفير مقوّمات رقيِّها الدائم، ونمائها. فالفكر المؤسَّسيّ الذي يضعه القرآن ينتظر منه أن يدور في هذه المحاور الأساسيَّة ليتمكن من توفير "مؤسَّسات الأمَّة".

المعنى والمفهوم:

وردت مادة "أ.س.س" في القرآن المجيد في عمليَّة "البناء" "أسَّسَ بنيانه..." أي جعل له أسَّاً وهو قاعدة البناء التي يبنى عليها. ويقال: "أسٌّ وأساس" وجمع "الأسِّ" "إساس" ويجمع على "أُسس". وإذا أضيف "أس" إلى الدهر فقيل: "على أسِّ الدهر أريد به وجهه" و"البنيان" و"البناء" اسم لما يبنى فوق "الأساس" معتمداً ومستنداً إليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأول مؤسسة عُني القرآن بإرساء دعائمها للبناء عليها وجعلها قاعدة ومنطلقاً لسواها كانت "الأسرة" التي اعتبرها الإسلام المؤسَّسة القاعدة التي يقوم بناء "المجتمع والجماعة والأمَّة" عليها فكأنّه أسس عليها لشبكة العلاقات التي تقوم هذه الكيانات -كلّها- عليها. وجميع الموجهات والمؤشِّرات والتشريعات ذات العلاقة بالأسرة تندرج تحت مبدأ بناء "المؤسسة الأم" أي: الأسرة، قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] (الحجرات: ١٣)، وقال: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً] (النساء: ١). وعلى أساس من الأسرة بوصفها "المؤسَّسة الأم" ترُسى دعائم المؤسسة الأكبر وهي "الأمَّة".

قبل اكتشاف مفهوم "الأمَّة" ذهب الإنسان في اتجاهات شتى في ظروف تاريخيَّة مختلفة بحثاً عن بدائل أخرى للتجمع المؤسَّسيَ منها "مؤسسة القبيلة" و"الشعب" و"الطائفة" و"الفرقة" ثم ارتقى الإسلام بالبشريَّة إلى صيغة "الأمَّة" وهي الصيغة الأمثل التي تنسجم مع إنسانيَّة الإنسان وأدواره المتنوعة في الحياة، ولا تشاركه بقيَّة المخلوقات فيها وإن أطلق القرآن المجيد عليها لقب "أمَّة" [وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ] (الأنعام: ٣٨) وقوله r بناءاً عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبياناً له: «**لَوْلاَ أَنَّ الْكِلاَبَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا فَاقْتُلُوا مِنْهَا الأَسْوَدَ الْبَهِيمَ**»[1].

وقد حرص الإسلام على أن يستوعب سائر أنواع العلاقات ومختلف الشبكات التي تتصل بها في دائرة الدين ليضبط حركتها ويقيمها على أقوى الدعائم الإيمانيَّة والأخلاقيَّة.

ولذلك فقد عني القرآن المجيد بربط شبكة العلاقات في "المؤسَّسة الأم" وفي سائر المؤسَّسات القائمة عليها بمنظومة القيم التي عمل على إرساء دعائمها بمستوياتها المختلفة فأعلاها القيم والمقاصد القرآنيَّة العليا وهي "التوحيد والتزكية والعمران" وعليها بنيت أوصاف الإيمان والكفر والنفاق والهدى والضلال والاستقامة والانحراف وما إلى ذلك.

فلا غرابة بعد ما تقدم أن يمنح القرآن المجيد إبراهيم u لقب "أمَّة" فيقول: [إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً حَنِيفاً وَلَمْ يَكُن مِنَ الْمُشْرِكِينَ] (النحل: ١٢٠)وذلك لأنَّه قد توافرت فيه u الصفات والشروط والمؤهلات التي تُمكِّن من إقامة أمَّة بناءاً عليها.

---

(١) رواه أبو داود، حديث رقم (٢٨٤٧). وسبب ذكر الكلب الأسود البهيم ولقد رسخت الثقافة الشفويَّة التي صاغها يهود أن في الجزيرة الغربيَّة كانت قد رسخت في الأذهان: الكلب الأسود ممسوخ عن "الجن" وقادر على التشكل بأشكال مختلفة، ومنها الشكل الآدميّ، وتكونت تقاليد فاسدة في التعامل معه بناءاً على ذلك، وإذا صح الأمر النبويّ بقتله فلبيان أنه مخلوق ضعيف لا ينفع ولا يضر. فهي بمثابة تكسير الأصنام لبيان عجزها وكونها مجرد أحجار لا تضر ولا تنفع. ولا تستطيع هذه الكلاب التشكل بالشكل الذي تريد كما زعمت تلك الثقافة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقرآن المجيد مليء بالموجهات نحو بناء المؤسسات الوسيطة والأخلاقيَّات الأساسيَّة لبناء ودعم واستمرار "المؤسَّسة الأم الكبرى" ألا وهي "الأمَّة" وتشريعاته كلها في المأكل والمشرب والمعاملات والنكاح والجنايات وقواعد الأخلاق والسلوك كلها انبثقت عن تلك المنطلقات لبناء المؤسَّسة الكبرى وترسيخ دعائمها بالمؤسَّسات الصغرى والوسيطة لتصبح الأمَّة في النهاية بنياناً مرصوصاً لا يخترق ولا يتزعزع ولا يأتيه الخلل من أي جانب، فلا غرابة أن يأتي وصف المؤمنين بالبنيان المرصوص فيقول: [إِنَّ اَ َيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ] (الصف: ٤) ويصف بنيان الآخرين بالريبة والخلل كما في قوله تعالى: [لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ] (التوبة: ١١٠) وفي كل ذلك تنبيه إلى أنَّ "أمَّة الخير" إنَّما تبنى بنياناً وتشاد بناءاً كما أنَّ أمم الشر تبنى كذلك وفي التنزيل [وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً] (النبأ: ١٢). وما لم تكن "الأمّة" بنياناً يبنيه الله ا ويؤلف بينه فإنّها لن تستطيع أن تقوم بمهام الشهادة على الناس أو تتصف بالخيريَّة والوسطيَّة وتؤدي الدور العمرانيّ المنوط بها.

من هنا نستطيع أنَّ نلمس أن "فكرة المؤسَّسة" منذ بدأ نزول الوحي كانت بمثابة الروح الشائعة في الإسلام كله عقيدة وشريعة ونظماً وممارسة حياتيَّة فما من شيء إلا ونستطيع أن نلمس هذا الجانب فيه بشكل واضح بارز من التصور والمعتقد إلى العبادة والمعاملة ونظم الحياة. وكل التشريعات المتعلّقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالفرائض العينيَّة والكفائيَّة نستطيع -عند التحليل- أن نجد فيها جوانب التأسيس فإما أن تبنى على غيرها كالإيمان والعقيدة وإما أن يبنى غيرها عليها.

وفكرة "المؤسَّسة" ومبدؤها في الإسلام لم تأت لتنظيم شأن إداريّ فحسب أو الخروج من دائرة الفرديَّة وما يعتريها، بل من أجل تنظيم الحياة كلها.

من هنا يتضح أنَّ مفهوم "المؤسَّسة" في الإسلام مفهوم أصيل، له منطلقاته وقواعده وغاياته والطرق والمناهج الإسلاميَّة الخاصة ببنائه مما يجعل من "مفهوم المؤسَّسة" مفهوماً يعني: أنها هيئة وشخصيَّة معنويَّة أو حسِّيَّة لها أسس وقواعد ونظم وضوابط. وتترتب عليها بهذا الاعتبار واجبات، كما أنَّ لها حقوقاً. وأنَّها ترتبط في ذلك كله بضوابط موضوعيَّة هادفة تحميها من أن يكون دورها سلبيّاً. ذلك لأنّ المؤسسة كما يمكن أن يكون دورها إيجابياً يمكن أن تكون لها أدوار سلبيَّة على الأفراد أو على المؤسَّسات الأخرى. وقد تضع في بعض الأحيان بينها وبين الأفراد والمؤسسات الأخرى حواجز حقيقيَّة أو اعتباريَّة لأنَّها هيئة قد يشعر -في بعض الأحيان- بناتها أو المشاركون فيها أو المستفيدون بها بنوع من الاختصاص يحملهم على نوع من النظرة الضيِّقة التي تجعلهم يحيطون مؤسَّستهم بكثير من وسائل الحماية والتحسين التي قد تعزلها عن التفاعل الجاد والإيجابيّ مع المؤسَّسات الأخرى فتفقد قدرتها على أداء دورها بشكل سليم في تكريس بناء "المؤسسة الأم" وتدعيمه.

المؤسَّسة في الفكر الحديث:

اقترنت فكرة إنشاء المؤسَّسات أو "المأسسة" بالحياة المدنيَّة وذلك بعد أن ظهرت بعد عصر الأنوار في الغرب بدايات الثورة العلميَّة بعد العقليَّة ثم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصناعيَّة وما إليها وبدأت أوربا تواجه تحديات شديدة الخطورة، فالأفكار الليبراليَّة المطروحة أدت إلى تكريس وتدعيم "الفرديَّة" بكل ما تؤدي إليه من إيجابيّات وسلبيّات حادثة أو متوقعة. وفي الوقت نفسه كانت الهجرة من الريف بعد الثورة الصناعيَّة قد فرضت تغييراً جذريّاً في نظم العلاقات بين الناس، ففي مجتمع القرية والريف تسود علاقات "القرابة والطبقيَّة والجوار" وما إليها أمّا في المدن الكبرى حيث المصانع التي ينتقل إليها أبناء الريف فإنّ شبكة أخرى مغايرة من العلاقات تسود فيها مثل العلاقات بين العامل ورب العمل، وبين مالك المصنع والعاملين فيه مما يفرض تطورات هائلة في العلاقات والنظم أدت في الآخر إلى إعادة النظر في شبكات العلاقات المختلفة على مستوى الأسرة وسائر المستويات الأخرى الكبيرة، وفرضت التطورات الاقتصاديَّة والصراعات التي كانت تحدث بين العمال وأرباب العمل على الناس البحث في صيغ جديدة للعلاقات والروابط فنشأت في أوربا "فكرة المؤسَّسة" باعتبارها وحدة اقتصاديَّة. ثم انبثقت أفكار تشكيل النقابات والأحزاب والمجموعات والهياكل التنظيميَّة الأخرى لتمارس بها ومن خلالها عمليَّات التخطيط والتنظيم والرقابة والتوجيه والاتصال واتخاذ القرار والقيادة والبحث عن صيغ تؤدي إلى التفاعل بين المكونات والتداخل بينها لتحقيق الأهداف.

ومن هنا وجدنا أنَّ هذه الأفكار قد تطورت لتنعكس في المجال السياسي بحيث يكون لأصحاب رؤوس الأموال "مؤسَّسة" تأخذ شكل "الحزب السياسيّ" وللعمال مؤسَّسة أخرى تأخذ شكل "الحزب السياسيّ" كذلك. وما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يزال النظام الأمريكيّ وكذلك الأوروبيّ خاضعين لهذا التوجه فأنت تجد على الدوام في معظم البلدان الأوروبيَّة حزبين يتداولان السلطة، جمهوريّين وديمقراطيّين في حالة الولايات المتحدة الأمريكيَّة، ومحافظين وعمال في حالة بريطانيا وهكذا، وقل أن تسمح التقاليد المؤسَّسيَّة التي قامت عليها هذه الأحزاب بوجود أحزاب فاعلة أخرى خارج هذا الإطار، أو خارج هذه الدائرة والمتتبِّع لتاريخ هذه البلدان يستطيع أن يرصد الكثير من الحالات التي لم تسمح طبيعة النظم فيها بوجود حزب ثالث. ثم تطور التفكير الاقتصاديّ لإيجاد وحدات اقتصاديَّة تقدم أوجهاً متنوعة من الخدمة في تلك المجالات: فهناك مؤسسات خدميَّة تقدم خدمات مَّا، وهناك مؤسسات تجاريَّة تتخصص في سلعة أو مجموعة من السلع، وهناك مؤسَّسات صناعيَّة. وكل تلك المؤسسات تعتمد على أساليب إداريَّة تعمل على تحقيق أهدافها بالكفاءة والفاعليَّة المطلوبتين.

وكل تلك المؤسَّسات لا تنشأ من فراغ ولكنَّها تتأثَّر ببيئاتها التي تمدها بالموارد وتستفيد من خدماتها وما تقدمه. وهذه البيئة بحكم هذه العلاقة قد تضع على المؤسَّسة أو ترفع كثيراً من القيود؛ ولذلك حينما تدرس أيُّ مؤسّسة فلابد لدارسيها من دراسة البيئة المؤسَّسية التي تتكون عادة من شقين: هما البيئة الداخليَّة للمؤسسة، والبيئة الخارجية لها.

ولكي لا تكون المؤسسة مثل "القبيلة أو الطائفة أو الفرقة" في انحصارها وإمكان وقوعها في احتمالات التحيُّز في قراراتها فإنَّها تكون عادة مركبة فلا تطلق كلمة "مؤسَّسة" إلا على المركَّبات. فهناك المركّبات من الأفراد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمجموعات والهيكل التنظيميّ التي تمارس فيها بعض العمليَّات الإداريَّة مثل: التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة والاتصال واتخاذ القرار والقيادة وكل الأمور التنظيميَّة التي من شأنها أن تحقق بين تلك المركَّبات والأجزاء تداخلاً يحقق أهداف المؤسَّسة ضمن بيئة أكبر من بيئتها الداخليَّة وتلاحظ فيها جملة العوامل السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والحضاريَّة المختلفة التي لاشك أنّها تؤثّر فيها وتتأثَّر بها كذلك.

السمات الأساسية للمؤسّسات:

أما المؤسَّسات الإسلامية التي أشرنا إلى أنَّها مؤسَّسات تدور حول "المؤسَّسة الكبرى الأم" التي هي "الأمَّة" فإنها قد وضعت لها قواعد في الكتاب الكريم وأوضحت جوانبها تطبيقات الرسول الكريم **r** المنبثة في سيرته وسلوكه وسياساته وفتاواه وأقضيته وأحاديثه نستطيع أن نستخلص منها المؤشرات التالية:

أولاً: أنَّ هذه المؤسَّسات كيانات فرعيَّة ضروريَّة ينبغي أن تستحضر على الدوام قواعد ومبادئ وأهداف وغايات وقيم "المؤسَّسة الأم" بكل ما تحمل من رؤية كليَّة مشتركة ونموذج معرفيّ رابط مشترك، ومنهج هادف يتغيَّىٰ تحقيق تلك الذات المتمثّلة بـ"الأمَّة" ولذلك فقد كانت المؤسَّسات التي قامت في المدينة المنورة قبل الفتوحات هي مؤسسات طوعيّة انبثقت عن إرادة ذاتيَّة، ومنها "مؤسَّسة أهل الحل والعقد" والقضاء والتجنيد والجهاد فكل تلك الهيئات أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسّسات قد تكونت بطريقة التطوع والاحتساب. حتى أن الخليفة الأول خرج في اليوم التالي لاختياره خليفة إلى السوق ليمارس العمل الذي كان يمارسه من قبل ليكسب قوته وقوت عياله حتى قال له المسلمون: "لا يصلح هذا وعليك أن تتفرغ" وأجروا له ما يجعله في غنى عن الصفق في الأسواق لطلب الرزق. وفي عهد عمر بن الخطاب وبعد الفتوحات عرفت "الدواوين والقيود والسجلات" التي وجدت "الأمَّة" أنَّها بحاجة إليها واستمرت تلك البدايات بالاتساع والتراكم والتشكل المتطور في ذلك الإطار الأساس. وسوف نكتشف الفروق الدقيقة عند التأمل بين المؤسَّسات التي تنبثق عن "فكرة الأمَّة" والمؤسَّسات التي تنبثق عن "الدولة" بمفهوم الدولة الحديث. فالمؤسَّسات التي تنبثق عن الأمَّة إضافة إلى السمات المتقدمة. فإنّ الأمة ووحدتها وغاياتها وأهدافها تتسم بكثير من الثبات في الأصول والتطور في الإجراءات بناءاً على ثبات مفهوم "الأمَّة" ورسوخه، أمَّا مؤسَّسات الحكومة أو الدولة الحديثة فإنّ الثبات في الأساس لا يتحقق إلا بشروط إضافيَّة.

ثانياً: إنَّ هناك اختلافاً كبيراً بين المؤسسات أو الهيئات المنظَّمة التي يؤسِّسها مجتمع متحرك نامٍ شيئاً فشيئاً وفقاً لاحتياجاته وبين أشكال تنظيميَّة تنبثق عن فلسفة تنظيميَّة محدودة بهدف استكمال شكل تنظيميّ أو سد ثغرة فيما يعدُّ فراغاً تنظيميَّاً تشتد الحاجة إلى ثباته أو ما يعطيه هيكل المؤسَّسة من قواعد الثبات. فالمؤسَّسة الإسلاميَّة هي مؤسَّسة تنبثق عن حاجة لمستها الأمة وخدمة حصل الوعي بضرورة توفيرها. فـ"مؤسَّسة الحسبة" في عهد عمر بن الخطاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نشأت عن الإحساس بأنَّ الأسواق مكان يمكن أن ينسى البعض فيه المبادئ والأهداف الكبرى التي ينبغي أن تكون حاضرة لدى الباعة والمشترين عند تداول الطيِّبات فتظهر ظواهر سلبيَّة تؤثر سلبيّاً في كيان "المؤسَّسة الأم" مثل الطمع والجشع وحب المال والمصلحة الفرديَّة وتقديمها على المصلحة الجماعيَّة. والغش والاحتكار وما إلى ذلك فلابد إذاً من وجود مؤسَّسة تعمل على حماية الأهداف والمقاصد العليا للأمة من تلك الظواهر السلبيَّة فلتكن "الحسبة" هي المؤسَّسة الوسيطة التي تعمل على امتصاص تلك السلبيَّات وتجاوزها وتذكير الناس الباعة منهم والمشترين بالواجبات والحقوق. وتذكرهم وظيفة المال والمبادئ الأساسية لهذه الوظيفة مثل مبدأ **"أنَّ المال مال الله وأن الناس مستخلفون فيه وأنَّه بحكم كونه مال الله I فهو مال فيه حقوق للجميع تنظَّم وفقاً لتشريعات وتوجيهات المالك الحقيقيّ I "**.

وحين تنشأ في المجتمع الحاجة إلى وجود مؤسَّسات ذات نفع عام وثواب أخرويّ متصل وأناس أخيار لديهم رغبة في أن تستمر أعمالهم الخيرة في عطائها حتى بعد وفاتهم تقوم "مؤسَّسة الوقف"، فيأتي عمر إلى رسول الله r ليسأله عن رغبته في أن يقدم أحسن ما كان يملك آنذاك للأمة والمجتمع[1] لتصبح ذات نفع

---

(١) أخرج البخاري أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَصَابَ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبِيَّ r يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا، فَقَالَ يَا رَسُولَ اَ ، إِنِّى أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، لَمْ أُصِبْ مَالاً قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِى مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ قَالَ «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا». قَالَ فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ أَنَّهُ لاَ يُبَاعُ وَلاَ يُوهَبُ وَلاَ يُورَثُ، وَتَصَدَّقَ بِهَا فِى الْفُقَرَاءِ وَفِى الْقُرْبَى، وَفِى الرِّقَابِ، وَفِى سَبِيلِ اَ ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالضَّيْفِ، لاَ جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عام ولا ينقطع أجره وثوابه عند موته فيوجه رسول الله r إلى إنشاء "مؤسَّسة الوقف" التي كان لها آثار في غاية الأهمية في حماية الحضارة الإسلامية وتحقيق أهداف "المؤسَّسة الأم". ولم يغب عن العقل المسلم مبدأ الحاجة إلى الرقابة الذاتيَّة وتتبُّع بذور الانحرافات في حركة المجتمع ومحاولة احتوائها أولاً بأول فهناك الضمير الفردي الذي لم يعهد إليه بفرض الرقابة الذاتيَّة على الفرد فقط، بل هو مطالب بأن يمارس في الوقت ذاته نوعاً من الرقابة الجماعيَّة على حركة المجتمع، ولذلك شعرت الأمة بضرورة وجود "مؤسَّسة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" تستوعب طاقات الأفراد وتنظم هذه المؤسَّسة وتوظف جهودها بأفضل شكل ممكن إذ لو لم يحدث ذلك فإنَّ هذه المهمة التي عدها كثير من العلماء الركن السادس من أركان الإسلام قد تفشل في تحقيق أهداف الأمة منها، بل قد تنجم عن الممارسات غير المنضبطة سلبيّات أخرى كثيرة.

ثالثاً: لا يفوتنا ونحن نتحدث عن الإطار النظريّ المشرق للمؤسَّسة أن نشير إلى أن هذا الفكر المنير والأسس والقواعد الفاعلة لم تجد في التطبيق الواقعي الفرص الكاملة لتتبلور المؤسَّسات الإسلاميَّة كلها وفقاً لها. وهنا لابد أن نشير إلى أنَّ اضطراب الفكر السياسيّ بعد الفتنة الكبرى وقتل شهيد الدار الخليفة الثالث وما تلا ذلك تم استشهاد الخليفة الرابع وما ترتب عليه والآثار السلبيَّة التي حدثت نتيجة تلك الظروف وضغوطها وفك الارتباط بين **"مؤسَّسة أولي**

بِالْمَعْرُوفِ. حديث رقم (٢٧٣٧ و٢٧٧٢). وأخرجه مسلم حديث رقم (٤٣١١)، كما أخرجه أبو داود حديث رقم (٢٨٨٠)، والترمذي حديث رقم (١٤٣١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأمر منكم" وانتعاش التوجهات القبليَّة والشعوبيَّة قد اعترض المسار التاريخيّ لتكوين الفكر المؤسسي وتجذيره في الواقع وألقى ببعض الظلال السلبيَّة على تلك المسيرة، وهنا بدأ ظهور توجهات لا تتصل بشكل عضويّ بأهداف "المؤسَّسة الأم أعني الأمَّة" فبرزت مدارس مذهبيَّة وطرق صوفية وتيارات ثقافية وتكوينات جغرافيَّة ثم الجماعات الإسلاميَّة المعاصرة لتشق سبيلاً آخر منفصلاً -مع اتصال ضعيف- بحبل "المؤسَّسة الأم" "الأمَّة".

ولو أن هذه المؤسَّسات بقيت على اتصالها بـ"مبدأ الأمَّة" تنمو وتتسع وفقاً لاحتياجاتها لما حدث ذلك أو لأمكن امتصاص السلبيّات وتلافيها.

هنا تبدو الحكمة الإلهية البارزة الكبرى في تصنيف الناس إلى أصناف ثلاثة كما في سورة الفاتحة وفي مقدمة سورة البقرة وغيرها، فهو تصنيف يتعلق بأمور يملك الإنسان قدرة على الاختيار فيها مثل "الإيمان والكفر" ويمكن إيجاد ترابط بينها وتداخل. ولو أخذنا بالتصنيف الذي ساد في أوربا بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال فإنَّ المساحة بينهما لا تسمح بالتداخل ولابد من استمرار التمايز. ولذلك كانت الظاهرة الحزبيَّة التي أشرنا إليها في كل من أمريكا وأوروبا.

رابعاً: نستطيع القول: إنَّه بالرغم من ذلك -كلّه- بقيت مكونات الفكر الإسلاميّ تحتفظ بكثير من السمات التي تستطيع أن تستوعب كثيراً من إيجابيّات الفكر المؤسَّسي لدى الآخرين وتجاوز سلبيّاته إذ لا يزال الفكر الإسلامي قادراً على التمييز وإدراك الفواصل بين مؤسَّسات يمكن أن تؤدي إلى التشتُّت، وتعود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الأصل بالنقض. ومن قواعدنا المعروفة: **"رفض الفرع الذي يمكن أن يعود على أصله بالنقض"**، ولذلك لابد من الالتفات إلى أنّ أيَّة مؤسَّسة يكون انفصالها عن جسم الأمة بشكل قد يؤدي إلى الافتئات عليها مؤسَّسة تحتاج إلى تعديل وهذا لا يعني رفض استقلال المؤسسات أو إفقادها هذا العنصر، بل ربط المؤسَّسات كلها بمرجعيَّة مشتركة بحيث لا يكون هناك مجال لحدوث تلك الظاهرة السلبيَّة -التي أشرنا إليها- وهذه المرجعيَّة تتمتع بقدرة فائقة على توحيد الرؤية في إطار العقيدة وبناء الثقافة المشتركة في إطار الفقه والتشريع وكذلك إيجاد الهياكل التنظيميَّة في ظل خصائص ومقومات التصور الإسلامي للـ"مؤسَّسة الأم" "الأمَّة" ودورها العالمي في الشهادة، واتّصافها بالعدالة والخيريَّة والوسطيَّة.

خامساً: هناك أمور جرى التنبيه إليها والتكليف بها ولكنَّها لم تأخذ شكل المؤسَّسة في الخبرة التاريخيَّة الإسلاميَّة وكان ينبغي أن تأخذ هذا. فـ"الشورى" فريضة إسلامية تمثلت في عصر الشيخين وست سنوات من خلافة عثمان t بـ"مؤسَّسة أهل الحل والعقد" وكان من الممكن تطوير هذه المؤسَّسة وتدعيمها بحيث تستوعب مبدأ الشورى وتطور الآليات والإجراءات المطلوبة لتفعيل هذا المبدأ في ضمير الأمَّة وواقعها، لكن المؤسف أنَّها لم تأخذ شكل المؤسَّسة كما أخذ ذلك "القضاء والوقف" وكذلك المؤسَّسات السياسيَّة بما فيها "مؤسَّسة الخلافة" فإنَّها لم تأخذ حظها من التأسيس والبناء على قاعدة "الأمَّة" فبرزت سلبيات منها زعم من زعم أنَّ الأخذ بمبدأ بقاء الخليفة مدى الحياة وحقه في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعيين ولي لعهده أو أكثر خوف الفتنة والوقوع في حالة ما يعرف اليوم بالفراغ السياسيّ أمور مقبولة، وفي ذلك مجال للنظر كبير، ولذلك وجدنا أنفسنا قد سقطنا في الفتنة ولو أنَّ الأمَّة تمكنت من إيجاد مؤسَّسة لعمليات انتقال السلطة سلمياً ودون فراغ سياسي ودون الوقوع في قضية ولاية العهد لكان ذلك أجدى للأمة وكان فيه تخفيف عن كاهل الدولة وخدمة للأمَّة وتطوّر نظمها.

سادساً: كل تلك الأمور كانت مما يمكن وضعه في إطار "المرجعيَّة الإسلاميَّة" في الفترة التي سبقت تغلغل الغرب وامتداد فكره وسياساته ونفوذه ونماذجه في فراغنا الثقافيّ.

أمّا اليوم وفي ظل الهيمنة الغربيَّة المطلقة فإنّ الفكر المؤسَّسيّ السائد فكر قد انبثق عن الفلسفة الغربيَّة في صناعة المؤسَّسات انطلاقاً من المبادئ الرأسماليَّة وما تقوم عليه من لبراليَّة وعلمانيَّة وما تعكسه من رؤية للكون والإنسان والحياة والدين والتاريخ، وما تقتضيه الفلسفة الغربيَّة من مؤسَّسات.

والعلوم الإداريَّة المعاصرة جزء من العلوم الاجتماعيَّة التي لم يعد بينها وبين العلوم الطبيعيَّة فوارق من حيث خضوعها معاً لفلسفة العلوم الطبيعيَّة والإسلام قادر بهدي القرآن المجيد على استيعاب أفضل ما لدى الآخرين والتصديق عليه بالرؤية الكلية القرآنيَّة والهيمنة على جوانبه المختلفة وترقيته ووضعه في الإطار السليم الذي يخدم البشريَّة كافة قي تحقيق غايات الحق من الخلق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأمتنا المسلمة اليوم بل والعالم كله أحوج ما يكون إلى بعث وإحياء مؤسَّسات الأمة لا مؤسَّسات الدولة ولا الحكومة، فلمؤسَّسات الدولة والحكومة من يكرسها ويحميها، فمؤسَّسات الأمة هي التي تنبثق عنها المؤسَّسات التي تعرف اليوم بمؤسَّسات "المجتمع المدني" أو "المجتمع الأهلي" والعالم كله لا المسلمون وحدهم في حاجة إلى إرساء دعائم مؤسَّسات الأمة التي تستطيع أن توجد التوازن المطلوب في العلاقات المختلفة بين الحكومات والشعوب فتصان الحكومات عن التغول والطغيان واغتيال مؤسسات وإرادات الشعوب وتصان مؤسَّسات الأمة وتحفظ من أي تطاول أو عدوان يحد من فاعليتها أو يلغي آثارها.

إن ما يقدمه الشعب الأمريكيّ سنوياً على سبيل المثال للمؤسَّسات التي تصف نفسها بأنها تقوم بأعمال الخير والإغاثة والتنصير يتجاوز سنوياً ٧٠٠٠ مليار دولار ومع أن بعض هذه الأموال الطائلة تنالها بعض المؤسسات المهمة، ولكن هي أحوج ما تكون إلى الترشيد والحماية والتأكد من إنفاقها في أفضل الأوجه لتؤتي ثماراً طيبة لا ثماراً مُرة **كشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار**. وهناك مبدءان أساسيان تحتاجهما هذه الجهات لتؤتي تلك الأموال الطائلة ثمارها لصالح البشريَّة، هذان المبدءان هما مبدءان قرآنيَّان. أولهما "الحكمة": **[**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**]** (البقرة: ٢٦٩). والمبدأ الثاني هو ما ورد في قوله تعالى: **[**وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً**]** (النساء: ٥) وأظن أن هذين المبدأين مبدءان عالميَّان يتعلق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولهما بالتدبير المالي والاقتصاد ويتعلق الآخر بحفظ المال من السفه والتبذير ووضعه فيما خلقه الله له.

وبوادر الصحوة والرغبة في العودة إلى الدين والأصالة فرصة مناسبة للعمل على إحياء مؤسسات الأمة المسلمة وفي مقدمتها:

أولاً: مؤسَّسة الوقف:

و"مؤسَّسة الوقف" هذه مؤسَّسة كان لها الآثار الهامة في المحافظة على حضارة الإسلام وعلى كثير من القيم الإسلاميَّة التي لولاها لما استطاعت تلك القيم أن تستمر وتدوم رغم الأعاصير الشديدة التي برزت في فترات مختلفة من فترات التاريخ الإسلامي. فالوقف قد حافظ على استقلال "مؤسَّسة العلماء" بل بنائها لتبقى باعتبارها الشطر الثاني من مكونات "أولي الأمر" الذين هم الأمراء والعلماء، وحين انفصلت أو حدث الانشقاق في مؤسَّسة أولي الأمر وصاروا فريقين "أهل سيف" و"أهل قلم" استطاعت "مؤسَّسة الوقف" أن تحمي القلم من تهميش السيف لتأخذ مؤسَّسة العلماء بعد ذلك دوراً في غاية الأهمية في حماية الأمة ومقوماتها من تغول أهل السيف واستبداد الحكام. وبقي العلماء يقومون بأدوار في غاية الأهمية تكاد توازي أدوار البرلمانات المعاصرة في عملية مراقبة سلطة الحكام وأهل السيف وتسديد المسيرة عند الانحراف وحماية حقوق الأمة وضعفائها خاصة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و"مؤسَّسة الوقف" هي التي حفظت المدارس والتعليم وحالت دون عمليات التجهيل التي كان بعض الطغاة يتمنون أن يدخلوا الأمة فيها، وإذ عجزوا فقد دفعوها إلى درك التقليد، و"مؤسَّسة الوقف" لعبت دوراً لا يستهان به في دعم الجهاد ودفع الصائلين والمعتدين عن ديار الإسلام. وحين ندرس جهاد المسلمين ضد التتار والصليبيّين فإننا سنجد صفحات مشرقة قد سطرها الوقف والواقفون في حماية الإسلام والمسلمين.

وأما مساهمة الوقف في إبراز الوجه الحضاريّ للإسلام والمحافظة على الحسّ الحضاريّ لدى المسلمين وإنماءه فإنَّنا نستطيع أن نجد في حجج الوقف والواقفين في القاهرة وبغداد ودمشق والمغرب روائع في غاية الأهمية في رعاية المرضى وبناء المستشفيات والرفق بالحيوان ورعاية الطبقات الضعيفة مثل العمال والعاملين والعاملات في البيوت والنساء اللواتي يتعرضن للاضطهاد من أزواجهن بل حتى الكلاب والقطط الضالة وجدت لها نصيباً في هذا الوقف[1] ولا ينقضي العجب حين نرى أن غوطة دمشق وهي أجمل وأفضل مكان فيها كانت وقفاً على خيول المجاهدين التي يدركها الكبر، وتعجز عن الخدمة فتترك في غوطة دمشق تأكل من ثمارها وعشبها وشجرها وتشرب من مياهها النقية حتى إذا نفقت تم دفنها بتقدير واحترام نموذجيين خلافاً لما يجري اليوم من قتلها بما يسمى برصاصة الرحمة، ومنذ وضعت الحكومات أيديها على الوقف

(١) وقد كتبت المستشرقة "زيغريد هونكه" كتابها الشهير "شمس الله تسطع على الغرب" دونت فيه الكثير من هذه المآثر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتهاونت بالقاعدة الذهبية **"شرط الواقف كنص الشارع"** فقدت الحضارة الإسلامية ومؤسَّسات الأمة أقوى سند لها كان يتمثَّل في هذه المؤسسة الهامة. ولا يفوتني هنا أن أشير إلى الخطوة الهامة والجريئة التي نفذتها الكويت في مرحلة التسعينات بتأسيس ما عرف بالصناديق الوقفية التي صارت وعاءاً متميز تتجمع فيه أموال المحسنين وصدقاتهم وتجري لها عمليات إنماء واستثمار لا تغامر برأس المال وبل تنفق عوائده مع بقاء الأصول لتدر ما تحتاجه كل أوجه الخير المعروفة والواقف الحق في إحداث أي تعديلات يراها مادام حيّاً بما في ذلك سحب الوقف من صندوق وتحويله إلى صندوق آخر، فليت الأصوات ترتفع وتتظافر هيئات الرأي العام لإعادة بناء "مؤسَّسة الوقف" في كل ركن من أركان العالم الإسلاميّ وتقديمه نموذجاً يحتذي للآخرين، وجعله كما كان في معزل عن التلاعب من السلطة أو الطامعين وجعله رافداً من روافد بناء مؤسَّسات الأمة.

ثانياً: مؤسَّسة أهل الحل والعقد:

تمثل أهل الحل والعقد في صدر الإسلام بذوي الحكمة والخبرة من كبار الصحابة الذين يستطيعون أن يقدموا الرأي والمشورة والنصيحة للخلفاء ويعينوهم على حسن التخطيط والتنظيم والتنفيذ لكل ما يتعلق بمصالح الأمة. وكان أولئك أناساً معروفين يعرفهم عامة الناس وخاصتهم بالخبرة وحسن الرأي فسرعان ما يتقبلونهم أو يرشحونهم ليكونوا بين "أهل الحل والعقد" الذين طور الفكر الأصولي مهمتهم ليصبحوا "أهل الإجماع" وكان "أهل الحل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعقد" يؤدون أدواراً قد تشتمل على مثل الأدوار التي تنهض البرلمانات ومجالس الشيوخ المعاصرة بل وتزيد حيث لا يقطع الخليفة المسئول أمراً دونها. وإذا كانت الظروف التي كانت زمن الصدر الأول تسمح بأن يتكون أهل الحل والعقد بمقتضى الأعراف فإن اقتباس بعض الوسائل والإجراءات الحديثة مثل الترشيح والانتخاب والتصويت وما إلى ذلك من أمور مهمة يمكن اقتباسها بعد تجريدها من بعض السلبيّات المعروفة وإدراجها في إطار القيم الإسلاميَّة.

ويمكن أن تتكون مجالس "أهل الحل والعقد" اليوم من العلماء والخبراء في مختلف التخصصات والجوانب التي تهم الأمة يضاف إليهم أصحاب التجارب الناجحة سواءاً في مجالات حرة أو وظيفيَّة ليتكون من هؤلاء مجالس تشارك الحاكمين في عمليَّات التخطيط والترشيد وبناء الاستراتيجيَّات اللازمة وكيفيَّة مواجهة الأخطار من جهل ومرض وجوع وأعداء وما إلى ذلك وإنقاذ أصحاب السلطة من براثن الفرديَّة والاستبداد والطغيان والوقوع في أخطاء إستراتيجيَّة قد تكون قاتلة للأمة كما حدث في ظل التصرفات الديكتاتورية في كثير من الأقطار الإسلامية. ويمكن آنذاك أن يقوم الفقهاء والقانونيَّون بتقنين هذه الأمور من صلاحيات وواجبات وحقوق وما إلى ذلك وفقاً لمقاصد الشريعة وأهدافها. ويمكن الجمع بين مزايا الشورى الإسلاميَّة التي تقوم على البحث عن الصواب وما يغلب على الظن أنَّه الحق ومزايا التصويت الديمقراطيّ فلا تكون للعدد القيمة المطلقة بحيث يمكن أن يعود بالنقض على ما هو صواب أو حق، ولا تعطى الفرصة لمن يدعي القدرة على احتكار الحقيقة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أو الوصول إليها دون الآخرين وهذه المؤسسة يمكن أن تكون وعاءاً يضم كل كفاءات الأمة وطاقاتها الخيرة المؤهلة. لاشك أن هناك مؤسَّسات أخرى للتعليم وللتربية وللتكافل الاجتماعي وغير ذلك من مصالح الأمة قد تحتاج لبلورتها وبيان أهميّتها إلى دراسات متخصصة لكننا أردنا فقط الإشارة إلى بعض ما عندنا لعلنا نستعيد ثقتنا بديننا وبإمكاناتنا الحضارية وبقدرتنا على بناء "مؤسَّسات الأمَّة" بشكل يحقق أهدافها، ويصون وحدتها، ويكفل تضامنها ويؤدي إلى اتصافها بما هيأها الله للاتصاف به من شهادة وخيريَّة ووسطيَّة. أملنا كبير أن يكون موسمنا الثقافي لهذا العام قادراً على وضع لبنة هامة في أس البناء المؤسَّسي- الإسلامي لأمتنا، وأن يكون خطوة في طريق الألف ميل لبناء الفكر المؤسَّسي- الإسلامي الذي يحفظ للأمَّة كيانها ويعيد الارتباط بينها وبين مرجعيّتها الإسلاميَّة والله الموفق؛ ويحقق أهدافها في إطار متماسك متكامل من قيم التوحيد والتزكية والعمران.

والله أعلم بالصواب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسات في الحضارة الإسلامية

أ.د. محمد عمارة
مفكر إسلامي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفهرس

- تقديم - للأستاذ الدكتور رفعت العوضي
- المؤسسية والمؤسسات في الحضارة الإسلامية

١. المؤسسة: خصيصة إسلامية

٢. القبيلة: مؤسسة

٣. الأمة كمؤسسة

٤. الدولة: مؤسسة

٥. على مؤسسات ثلاث بنيت الدولة الإسلامية الأولى

٦. مؤسسة الزكاة

٧. مؤسسة الوقف

٨. مؤسسة الحسبة

٩. جمعية نسائية في العهد النبوي

١٠. الفرق الإسلامية: مؤسسات

١١. مؤسسات الفقراء - الصوفية

١٢. مؤسسات الحرف والصناعات

١٣. الأزهر - كمؤسسة

١٤. مؤسسة: مجلس الشرع

١٥. المؤسسات السياسية - الأحزاب

١٦. مؤسسة القضاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٧. التعليقات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقديم

أ.د. رفعت العوضي [1]

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

في إطار موضوع المؤسسية تأتي الورقة الثانية، بعد الورقة الأولى لفضيلة الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني والتي تعتبر الإطار والتي بيَّن فيها أين يقع بالضبط التأطير المؤسسي في الدين الإسلامي.

والورقة الثانية لسعادة الأستاذ الدكتور محمد عمارة وهو أحد رموز الأمة الذي أعطى لها الكثير من إنتاجه الفكري المتميز وهو أيضًا أحد رواد مدرسة "إسلامية المعرفة" المدرسة التي ينتمي إليها هذا المركز حيث صاحبها منذ بداياتها الأولى، والدكتور محمد عمارة أقول بصدق يستحق وصف العالم العامل طوال تاريخ أمتنا الإسلامية وعبر مسيرتها الحضارية عرفت الأمة الكثير من العلماء، أما العلماء العاملون فقد ظهروا في مسيرة الأمة في فترات كانت فيها أحوج ما تكون إلى أن يكون مع العلم عمل.

فابن تيمية عالم عامل، وابن خلدون عالم عامل، والشيخ محمد عبده عالم عامل، والدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور إسماعيل الفاروقي، والدكتور طه جابر العلواني عالم عامل، ومفكرنا الأستاذ الدكتور محمد عمارة مع هذه

---

(١) المستشار الأكاديمي لمركز الدراسات المعرفية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجماعة المباركة التي جمعت العمل مع العلم، أعرف عن مواقفه العملية الكثير ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجزيه عنا خير الجزاء وأن تكون هذه المواقف ذخرًا لأمته وأن تكون ثقيلة في ميزان حسناته يوم القيامة إن شاء الله.

أضيف شيئًا إلى ما سبق أن قلته عن المؤسسية في ورقة الدكتور طه جابر العلواني ليتواصل العمل أو الفكر في هذه الورقات الثمان إن شاء الله.

أستسمحكم أن أقول: للتقدم جناحان يطير بهما في عالم السمو هما: الحرية والمؤسسية هذا رأي أراه، عن الجناح الأول وهو الحرية، لقد خلق الله الإنسان وأعطاه عقلاً قادرًا على الإبداع وقد يكون المدى البعيد جدًا الذي يقف عنده الإبداع هو ما جاء في قوله تعالى: **[وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ]** (يونس:٢٤) المسلم يسعى للتقدم ما قبل هذه المرحلة وهذا يسقط أي دعوى أن الإسلام ليس على هذا النحو من التخلف العلمي.

عقل الإنسان لا تظهر ملكاته الإبداعية إلا مع الحرية، الحرية هي البيئة التي يبدع فيها عقل الإنسان وعندما تفقد الحرية يفقد الإنسان عقله الإبداعي.. هذا عن الجناح الأول وهو الحرية.

أما عن الجناح الثاني وهو المؤسسية، فالمؤسسية هي: الوعاء الوحيد الذي يحمل الحرية، المؤسسية هي البيئة التي تنمو فيها الحرية وتعطي ثمارها، الاستبداد هو نقيض الحرية وعدو المؤسسية، إن المستبد لا يظهر ولا يتمكن إلا مع انهيار المؤسسة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن البيئة التي تعاني من عدم وجود إلا رأي وقرار فرد واحد؛ هذه البيئة إما أنها لم تعرف المؤسسية أو يكون قد سبق تجريدها من المؤسسية حتى وإن وجدت المؤسسة كشكل وليس كموضوع. أختم فأقول إن العلاقة بين الحرية والمؤسسية، الحرية شرط قيام المؤسسة والمؤسسة شرط تأمين الحرية وترشيدها.

وأستسمح الدكتور محمد عمارة أن قدمت ورقته بهذه المقدمة ونحن تلاميذ على فكر هذا العالم منذ آماد بعيدة، حتى من هو منا متقدم في السن تتلمذنا على فكره ونعرف عن مواقفه الكثير دائمًا نسعد أن نلقاه. فأقدم لكم أستاذنا الدكتور محمد عمارة وعنوان ورقته: "المؤسسة في الحضارة الإسلامية" فليتفضل مشكورًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسية.. والمؤسسات في الحضارة الإسلامية [1]

أ.د. محمد عمارة [2]

بسم الله الرحمن الرحيم وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد r وعلى آله وصحابته أجمعين، أيها الإخوة والأخوات السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في البداية أشكر أخي العزيز الدكتور رفعت العوضي على هذه الكلمات الطيبة التي جاءت في مقدمته والتي أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون أهلاً لجزء منها وكنت وأنا أسمعه أنتظر أن يذكر فيمن ذكر شيخنا الشيخ محمد الغزالي عليه رحمة الله.

أبدأ فأقول إن المركز أحسن صنعًا عندما اختار هذا الموضوع، موضوع المؤسسية.

المؤسسات في الحضارة الإسلامية موضوع غائم في فكرنا وفي تراثنا، وسبب الغيوم التي أحاطت هذا الموضوع هو الاستبداد في تاريخنا، الاستبداد لا يريد المؤسسة لأن المؤسسة تعني تجميع الجهود لكي تكون أفعل فأنا دائمًا أقول إن الحضارة الغربية عبقريتها في المؤسسات، ونحن من أكبر الثغرات التي نعانيها غيبة المؤسسات، عندنا خير كثير، وعلماء مجددون وعاملون، لكن أقول دائمًا:

---

(١) محاضرة ألقيت بمركز الدراسات المعرفية – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – مساء الثلاثاء ١٣/١١/٢٠٠٧م. الزمالك – القاهرة.

(٢) مفكر إسلامي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل واحد فينا كالصنبور الذي ينزل منه الماء نقطة نقطة، لو اجتمعنا في مؤسسة نصبح كالخرطوم. عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠-١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤-١٩٠٢م) عليه رحمة الله يقول: "إن الجمعيات تفي بما لا يفي به عمر الأفراد". كل عالم كل مجاهد يأتي الحين إما أن يمرض أو يأتي أجله، لكن إذا كان عضوًا في مؤسسة جهوده تظل مستمرة حتى بعد غيبة جسده، بالضبط مثل البحر تتبخر منه القطرات لكنه مستمر، إنما العمل المفرد الغائب عن المؤسسات يبقى مثل القطرات تتبخر، ولذلك موضوع "المؤسسة والمؤسسية" موضوع في غاية الأهمية.

* * *

(١)

أقول: إن المؤسسة في الحضارة الإسلامية وثيقة الصلة بطبيعة الإسلام، لأنه في النصرانية التكليف فردي، والذي يقيم النصرانية يقيمها وهو في شعب من الشعاب أو مغارة من المغارات، وبعيدًا عن الناس، كفرد، يعني إقامة كامل النصرانية مرتبطة بالفرد. اليهودية تحولت إلى عنصرية، لأن تعريف اليهودي: هو "المولود لأم يهودية".

إنما الإسلام يعرف بأنه "دين الجماعة"، الإسلام وثيق الصلة بفكرة الأمة، أي بفكرة المؤسسة، فيه التكاليف الفردية وفيه التكاليف الاجتماعية، التي تسمى في فقهنا الكفائية وبعض الناس أحيانًا يتصور أن فرض العين مؤكد وأهم من فرض الكفاية، لأن كثير من الفقهاء كانوا يضربون المثل على فرض الكفاية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بصلاة الجنازة، فكانوا يتصورون أن في صلاة فرد واحد الكفاية. إنما الحقيقة أن فروض الكفاية، الفروض الاجتماعية أشد توكيدًا من فروض العين، لأن فرض العين التخلف عنه يقع إثمه على الفرد، بينما فرض الكفاية فرض اجتماعي التخلف عنه يقع الإثم فيه على الأمة كلها.

حتى التكاليف الفردية في الإسلام عندما تؤدى في جماعة، في اجتماع، في نظام يكون ثوابها أكبر مثل الصلاة أو غيرها، حتى الصيام وهو فريضة وعبادة سرية، وليست فقط فردية، توحد الأمة فتجعل الأمة على قلب رجل واحد، إذن فكرة الأمة.. فكرة المؤسسة لصيقة بطبيعة الإسلام منذ نزول هذا الدين.

* * *

(٢)

لقد جاء الإسلام والطابع الغالب في شبه الجزيرة العربية هو "القبيلة". القبيلة مؤسسة ولذلك الذين يتحدثون عن القبائل والعشائر باستهانة، بينما يكثرون من الحديث عن "منظمات المجتمع المدني"، هذه منظمة مجتمع مدني (القبيلة) يعني الأهل، القبيلة، العشيرة، الأقارب، هذه مؤسسة من المؤسسات. بل أنا أقول: إنها أولى درجات انتماء الإنسان، فالإنسان ينتمي لأهله، عشيرته، قبيلته، ينتمي لشعبه، ينتمي لأمته بالمعنى اللغوي، ينتمي لأمته بالمعنى الحضاري، وينتمي للإنسانية بشكل أوسع.

الرسول **r** عندما وجد هذه المؤسسة (القبيلة) كانت هي العالم، نهاية العالم لم يلغها، عندما أراد أن يؤسس "الأمة" لم يلغ القبيلة كمؤسسة، إنما جعل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القبيلة لبنة في جدار الأمة، ولذلك حتى في الحروب.... سألني أحدهم في "قناة الجزيرة" عن الأعلام والأناشيد حلال أم حرام؟ فقلت له: كانت القبائل في عهد الرسول r تحارب على راياتها، أي أن هناك راية، رمز لهذه المؤسسة، لكنها مندمجة في جدار الأمة.

* * *

(٣)

الراغب الأصفهاني (٥٠٢/ ١١٠٩م) يعرف الأمة بأنها: كل جماعة جمعهم أمر، إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر تسخيرًا أو اختيارًا. ومصطلح "الأمة" ورد في القرآن الكريم في ٦٤ موضعًا.

إذن فكرة الأمة.... فكرة الجماعة.... فكرة المؤسسة أيضًا من الأشياء اللصيقة بالإسلام والتي تمثل علامة فارقة مع ظهور الإسلام بعد النبوات والرسالات ودون النبوات والرسالات.

* * *

(٤)

(فكرة الدولة): فالدولة مؤسسة، يعني الأنبياء والمرسلون الذين أوحى الله إليهم وجاءوا بشرائع، لم يقيموا دولاً، إبراهيم لم يقم دولة، موسى لم يقم دولة، عيسى لم يقم دولة، وإذا كانت هناك دولة في تاريخ بني إسرائيل في فترات محددة واغتصابًا من أرض كنعان، فالذي أقامها ملوك، وليس الذين جاءوا بشريعة موسى، والذين حكموا من أنبياء بني إسرائيل في هذه الدولة كانوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"كالعُمَد والمشايخ" في القرى، ولذلك حديث رسول الله: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[1]. إنما الذي جاء بالشريعة اليهودية لم يقم دولة، سواء أكان موسى أو هارون، ولذلك الدولة علامة فارقة في تاريخ النبوات والرسالات، في رسالة محمد **r** . وهذا لأن هذه الشريعة هي الخاتمة، هي الخالدة، فكان لابد من دولة تحرس هذه الشريعة وتُساس بهذه الشريعة، هذه ميزة من الميزات. ولذلك، الرسول **r** في أحاديث كثيرة تعرفونها جميعًا أنه أُعطى خمسا، منها مثل هذه الأمور.

كون الدولة في التاريخ الإسلامي (مؤسسة الدولة) أنا قلت: إن الموضوع غائم، لكن لحسن الحظ أن بعض المصادر اهتمت بالحديث عن معالم دولة النبوة، عن العمالات في دولة النبوة.. من أهم هذه الكتب التي حفظها التراث كتاب "تخريج الدلالات السمعية" للخزاعي (٧١٠- ٧٨٩هـ/ ١٠٢٦- ١١٠٣م) ومن أهمها أيضًا الكتاب الذي بني على كتاب الخزاعي وزاد عليه "التراتيب الإدارية" الذي هو "نظام الحكومة النبوية" لعبد الحي الكتاني (١٢٦٨- ١٣٣٣هـ/ ١٨٥٢- ١٩١٥م) وأيضًا الطهطاوي (١٢١٦- ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١- ١٨٧٣م) في الجزء الرابع من أعماله الكاملة التي حققتها

---

(١) قال السيوطي في (الدرر): لا أصل له، وقال في (المقاصد) قال شيخنا (يعني ابن حجر): لا أصل له، وقبله الدميري، و الزركشي، وزاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر، اهـ من (كشف الخفا) للعجلوني. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١ / ٦٧٩): لا أصل له باتفاق العلماء، و هو مما يستدل به القاديانية الضالة على بقاء النبوة بعده صلى الله عليه وسلم، و لو صح لكان حجة عليهم كما يظهر بقليل من التأمل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كتاب "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز" فضلاً عن الكتاب العمدة الذي اهتم بمصطلحات الدولة؛ بوظائف الدولة وكل رموزها وهو كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي (٧٥٦- ٨٢١هـ).

أنا لمحت في عهد علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه- إلى واليه على مصر "الأشتر النخعي" (٣٧- ٦٥٧م) هذا العهد من النصوص التراثية التي فيها سياسة وإدارة عالية المستوى، لذلك عندما ألفت كتابي "حقوق الإنسان" جعلت جزءًا من الكتاب نصوصًا منها هذا العهد. وهو يوصي الأشتر النخعي بكلمة عن مؤسسات الأمة لولاية مصر التي سيذهب إليها، وطبقات الناس في هذه الولاية، وأركان الدولة، يقول له:

النص كاملاً:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حين ولاّه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوّها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، وإتباع ما أمر به في كتابه، من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحد إلاّ بإتباعها، ولا يشقى إلاّ مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنّه جل اسمه، قد تكفّل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات، فإنّ النفس أمارة بالسوء، إلاّ ما رحم الله.

ثمّ اعلم يا مالك! إنّي قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنّما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشح بنفسك عمّا لا يحل لك، فإنّ الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت.

وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك ! وقد استكفاك أمرهم، وابتلاك بهم.

ولا تنصبن نفسك لحرب الله، فإنّه لا يد لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولن: إنّي مؤمر آمر فأطاع، فإنّ ذلك إدغال في القلب،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومنهكة للدين، وتقرّب من الغير، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإنّ ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك.

إيّاك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإنّ الله يذل كل جبّار، ويهين كل مختال.

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصّة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنّك إلا تفعل تظلم! ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجّته، وكان لله حرباً حتّى ينزع أو يتوب.

وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنّ الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإنّ سخط العامّة يجحف برضى الخاصّة، وإنّ سخط الخاصّة يغتفر مع رضى العامّة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصّة.

وإنّما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء، العامّة من الأمّة، فليكن صغوك لهم، وميلك معهم.

وليكن أبعد رعيتك منك، وأشنأهم عندك، أطلبهم لمعائب الناس، فإنّ في الناس عيوباً، الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عمّا غاب عنك منها، فإنّما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك.

أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا ينصح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإنّ الساعي غاش، وإن تشبه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإنّ البخل والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنّ شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنّهم أعوان الأثمة، وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم، ممّن لم يعاون ظالماً على ظلمه، ولا آثماً على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً، وأقل لغيرك إلفاً.

فاتخذ أولئك خاصّة لخلواتك وحفلاتك، ثمّ ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلّهم مساعدة فيما يكون منك ممّا كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع.

والصق بأهل الورع والصدق، ثمّ رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإنّ كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتدني من العزة.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ! وألزم كلاّ منهم ما ألزم نفسه.

واعلم أنّه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إيّاهم على ما ليس له قبله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإنّ حسن الظـن يقطع عنك نصباً طويلاً، وإن أحق من حسن ظنّك به لمن حسـن بـلاؤك عنـده، وإن أحق من ساء ظنّك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمّـة، واجتمعـت بهـا الألفـة، وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنّة تضرـ بشيءـ مـن مـاضي تلـك السـنن، فيكون الأجر لمن سنّها، والوزر عليك بما نقضت منها.

وأكثر مدارسة العلماء، ومناقشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بـلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

واعلم أنّ الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلاّ ببعض، ولا غنى ببعضها عـن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامّة والخاصّة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخـراج مـن أهـل الذمّـة ومسـلمة الناس، ومنها التجّار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السـفلى مـن ذوي الحاجـة والمسكنة، وكل قد سمى الله له سهمه، ووضع على حدّه فريضة في كتابه أو سـنّة نبيه (صلى الله عليه و آله) عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجنود، بإذن الله، حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمـن، وليس تقوم الرعية إلاّ بهم، ثم لا قوام للجنود إلاّ بما يخرج الله لهـم مـن الخـراج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي يقوون به على جهاد عدّوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكـون مـن وراء حاجتهم.

ثمّ لا قوام لهذين الصنفين إلاّ بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب، لما يحكمون من المعاقد، ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمـور وعوامها.

ولا قوام لهم جميعاً إلاّ بالتجّار وذوي الصـناعات، فـيما يجتمعـون عليـه مـن مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفـق غيرهم.

ثمّ الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم، وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه، ولـيس يخـرج الـوالي مـن حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلاّ بالاهتمام والاستعانة بـالله، وتـوطين نفسـه عـلى لزوم الحق، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل، فوّل مـن جنـودك أنصـحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً، وأفضلهم حلـماً، ممّـن يبطـئ عـن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبـو عـلى الأقويـاء، وممّـن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثمّ الصق بذوي المروءات والأحساب، وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة، ثمّ أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، فإنّهم جماع من الكرم، وشعب من العرف.

ثمّ تفقّد من أمورهم ما يتفقّد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قل، فإنّه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها، فإنّ لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه.

وليكن آثر رؤوس جندك من واساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته، بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم، حتّى يكون همّهم همّاً واحداً في جهاد العدو، فإنّ عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودّة الرعية.

وإنّه لا تظهر مودّتهم إلاّ بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلاّ بحيطتهم على ولاة الأمور، وقلّة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدّتهم، فأفسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإنّ كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع، وتحرض الناكل، إن شاء الله...، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، (إنا إليه راجعون)، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين، وسلّم تسليماً كثيراً، والسلام)[1]. **انتهى**

تحليل النص:

"واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها: ١ - جنود الله (مؤسسة عسكرية)، ومنها ٢ - كتاب العامة والخاصة (مؤسسة)، ومنها ٣- قضاة العدل (مؤسسة قضائية)، ومنها ٤ - عمال الإنصاف والرفق، ومنها ٥ - أهل الجزية والخراج، ومنها ٦ - التجار وأهل الصناعات، ومنها ٧ - الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة.

ويتكلم عن أن كل هذه المؤسسات، وكل هذه الشرائح الاجتماعية لا غنى لأحد منها على أحد "فالجنود حصون الرعية وسبل الأمن، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، ولا قوام لهم جميعًا إلا بالتجار وذوي الصناعات". هذا نص موجود في (نهج البلاغة)[2]، يتحدث عن أركان الدولة ومؤسساتها.

* * *

(١)كتاب (الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات... لا حقوق) (ص: ١٧٥ وما بعدها) د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق الأولى، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

(٢) (نهج البلاغة) ص ٣٣٣- ٣٤٨- طبعة دار الشعب- القاهرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنا دائمًا أقول: الذين يتصورون أن دولة المؤسسات هي ثمرة من ثمرات التطور الغربي والنهضة الغربية والأوربية والديمقراطية الغربية هؤلاء واهمون. لماذا؟ لأنهم لم يدرسوا تراثنا ولا تاريخنا، وإن درسوا- وهذا عيب كبير إلى الآن في كتابة التاريخ الإسلامي، الذي كُتب كتاريخ للسلطان، تاريخ للدولة، وعادة وغالبًا ما يكون السلطان له وبه الكثير من العيوب والسلبيات والاستبداد، ولذلك عندما نقرأ كتب التاريخ تجده تاريخ الدولة، تاريخ السلطة والسلطنة والسلطان، أما تاريخ الأمة فغير مكتوب، ولذلك أنا أقول إذا أردنا أن نعيد كتابة تاريخنا فلابد أن تكون هناك ثلاثة مصادر لكتابة هذا التاريخ:

أولاً: تاريخ الدولة، لابد منه.

ثانيًا: كتب الخطط، التي تؤرخ للمكان، والاقتصاد، والعادات والتقاليد، وللأولياء، والصوفية، والأسواق، والتجارات، والخانات، والطرق، والكباري،... للحياة، حتى للأحجار، تؤرخ للأبنية، كتب الخطط هذه مصدر إلى الآن لم يُستخدم، وهذا إبداع للحضارة الإسلامية لم تُسبق إليه في حضارة أخرى، هذا مصدر بدونه لا يمكن أن يكتب التاريخ الحقيقي للأمة والحضارة.

ثالثًا: الطبقات، طبقات العلماء، والشعراء، والفقهاء، والمحدثين، والمفسرين، حتى طبقات المغنيين وغيرهم. إذن أين العلماء الذين أسهموا في تاريخ هذه الأمة، الذين قادوا الأمة على مر التاريخ؟ وليس السلطان والإدارة السلطانية هي التي كان لها القيادة والتفرد في صنع هذا التاريخ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذًا أقول: إن غيبة حقيقة وصورة المؤسسة في تاريخنا نابعة من أن هذا التاريخ كتب وكل الأضواء مسلطة على السلطان، ولم يكتب تاريخ الأمة لا من الخطط ولا من الطبقات.

* * *

(٥)

أنا لمحت أن دولة النبوة بنيت بالمؤسسات وعلى المؤسسات كان هناك ثلاث مؤسسات منذ اللحظة الأولى، فالدولة أُسست في بيعة العقبة قبل الهجرة بعام –بيعة العقبة- الأخيرة الثانية أو الثالثة وفقًا لاختلاف المؤرخين- وأُسست بعقد حقيقي، وليس عقدًا مفترضًا كما هو الحال في الفكر السياسي الغربي، عقد حقيقي، اجتمع المحكومون واتفقوا مع الحاكم على تأسيس الدولة، وعلى أن يهاجر إليهم ويحمونه مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم وذراريهم. في بيعة العقبة ولدت إحدى المؤسسات الثلاث، نحن لدينا ثلاث مؤسسات بنيت عليها الدولة:

١. المهاجرون الأولون.
٢. النقباء الإثنى عشر.
٣. مجلس شورى اسمه مجلس السبعين، وهذا تجدونه غائمًا وغائبًا في التراث الإسلامي. فأنا أول مرة في قراءاتي أعرف أنه يوجد مجلس يسمى مجلس السبعين، وأن مجلس الشورى هذا كان يجتمع في مسجد النبوة في مكان محدد في أوقات محددة (برلمان)، وتعرض عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المشكلات – أول مرة قرأت هذه المعلومة كانت في كتاب اسمه "السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية" "لفان فلوتن"، أحد المستشرقين، بعدها عثرت على إشارة أخرى في كتاب "الدرر في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣هـ/ ٩٧٩- ١٠٧١م)، فأجده يذكر شخصًا ما على أنه كان عضوًا في مجلس السبعين.

إذن هناك مؤسسة، لكنها غابت وغامت في تراثنا، فهناك ثلاث مؤسسات.

للأسف الشديد في تراثنا اختزلوا العشرة، نحن نعرف العشرة وهم: أبو بكر (٥٠ ق.هـ- ١٣هـ/ ٥٧٣- ٦٣٤م)، وعمر (٤٠ق.هـ- ٢٣هـ/ ٥٨٤- ٦٤٤م)، وعثمان (٤٧ق.هـ- ٣٥هـ/ ٥٧٧- ٦٥٦م)، وعلي (٢٣ق.هـ- ٤٠هـ/ ٦٠٠- ٦٦١م)، وأبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق.هـ- ١٨هـ/ ٥٨٤- ٦٣٩م)، والزبير بن العوام (٢٨ق.هـ- ٣٦هـ/ ٥٩٦- ٦٥٦م)، وطلحة بن عبيد الله (٢٨ ق.هـ- ٣٦هـ/ ٥٩٦- ٦٥٦م)، وسعد بن أبي وقاص (٢٣ق.هـ- ٥٥هـ/ ٦٠٠- ٦٥٧م)، وعبد الرحمن بن عوف (٤٤ ق.هـ- ٣٢هـ/ ٥٨٠- ٦٥٢م)، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (٢٢ق.هـ- ٥١هـ/ ٦٠٠- ٦٧١م)، قالوا عنهم المبشرين بالجنة –عظيم- هل المبشر بالجنة هذه وظيفة؟ أولاً هم في قمة المبشرين بالجنة، لكن المبشرين بالجنة بنص القرآن هم كل المؤمنين، فنحن ليس لدينا مؤسسة اسمها مؤسسة المبشرين بالجنة، إنما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستبداد غيب صفة هذه المؤسسة، وهي أنها مؤسسة دستورية سياسية، إحدى المؤسسات الثلاث التي قامت عليها الدولة، هؤلاء العشرة لماذا سموا "المهاجرين الأولين"؟ لأنهم أولاً هم مهاجرون، لأنهم أصلاً من قريش وهاجروا من مكة إلى المدينة، وأولون لأنهم أول الناس إسلامًا هاتان الصفتان - المهاجرون الأولون- أيضًا من مؤهلات العشرة أنهم كانوا زعماء وقادة بطون قريش، فأبو بكر من تيم، وعمر من عدي، وعثمان من أمية، وعلي من هاشم، وأبو عبيدة من فهر، والزبير من أسد، وطلحة من تيْم، وسعد من زُهْرَة، وعبد الرحمن بن عوف من زهرة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل من عدي، هؤلاء العشرة كانوا مؤسسة سماها أبو بكر "مؤسسة الأمراء" وسمي النقباء الإثني عشر (مؤسسة الوزراء). مؤسسة النقباء الإثني عشر ولدت بالانتخاب – الانتخاب لم يأتنا من أوربا- في بيعة العقبة، الذين عقدوا بيعة العقبة كانوا خمسة وسبعين (ثلاثة وسبعين رجل وامرأتين) فالمرأة شاركت في عقد تأسيس الدولة الإسلامية أعلى مستويات الولاية السياسة قبل أربعة عشر قرنًا، كان فيهم "أم عمارة نسيبة بنت كعب" و"أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية" (٣٠هـ/٦٥٠م). الخمسة والسبعون عندما أرادوا بيعة رسول الله r قال لهم: "اختاروا منكم اثني عشر نقيبًا"، فولدت أولى المؤسسات (الوزراء، النقباء الاثنى عشر) بالانتخاب، بالاختيار في بيعة العقبة.

المؤسسة الأولى –المهاجرون الأولون- كان من خصوصياتها عندما هاجر رسول الله r من مكة إلى المدينة، وبني المسجد، المسجد ليس فقط دار عبادة، بل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دار حكومة ودار تعليم ودار تدريب على الحرب، أي أنه المؤسسة الأولى، أو مكان المؤسسة الأولى للدولة، هؤلاء العشرة بيوتهم تحيط بالمسجد، ولها أبواب تفتح على المسجد –هذه ميزة ليست لأحد آخر غير هؤلاء العشرة- أنا عثرت أيضًا على نص، فكأنما التقطت جوهرة في كتاب "أسد الغابة": العشرة في الصلاة مكانهم خلف رسول الله r ومكانهم في الحرب أمامه. إذن لهؤلاء صفة ومكانة مميزة.

أيضًا، كثير من الذين كتبوا عن الخلافة الراشدة أخطأوا واجتمعوا على الخطأ عندما قالوا إن كل خليفة من الأربعة أختير بطريقة مختلفة، وهذا ليس صحيحًا، لأن غيبة فكرة المؤسسة جعلتهم لا يدركون دور "المهاجرين الأولين".

* * *

عندما حدث الخلاف في السقيفة عقب وفاة الرسول r ، أبو بكر حسم الخلاف. واجتمع الناس باستثناء واحد من الأنصار، اجتمعوا على كلمة أبي بكر حيث وزع الاختصاصات بين المؤسستين، قال: "منا الأمراء ومنكم الوزراء". فانتهت المسألة. طبعًا الأنصار كانوا يمدحون دورهم في الإسلام، وهو مدحهم بأكثر مما مدحوا به أنفسهم. لكن قال: "منا الأمراء ومنكم الوزراء"، فوزع اختصاصات الدولة بين المؤسستين، "مؤسسة المهاجرين الأولين" التي كان دورها الترشيح للخلافة (كاللجنة المركزية) وتعقد للخليفة المرشح البيعة الأولى، العشرة يبايعون، ثم بعد وفاة الخليفة يعلن هذا القرار وتجمع له البيعة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العامة، أنظروا كيف أن الأربعة الراشدين اختيروا بنفس الطريقة، وليس كل واحد اختير بطريقة مختلفة.

في السقيفة، من الذي بدأ البيعة لأبي بكر؟ اثنان من العشرة هما: عمر وأبو عبيدة، ثم جمعت له البيعة العامة، وعندما اقتربت الوفاة من أبي بكر، جمع العشرة واتفقوا على عمر، وكتبوا بذلك كتابًا بايعوه، ثم بعد وفاة أبي بكر جُمعت له البيعة العامة، وعندما طُعن عمر، الناس يقولون الشورى في الستة لم يقل أحد لماذا ستة؟ لأن هؤلاء هم بقية العشرة، حتى عمر جعل ابنه عبد الله معهم في المؤسسة له رأي وليس له صوت، لأنه ليس عضوًا في المؤسسة.

أنا أقول هذا الكلام لكي ندرك أن الإسلام فيه فكر دستوري قانوني، فلماذا يكون عبد الله بن عمر عضوًا يقول رأيه، لكن ليس له صوت؟ لأنه ليس عضوًا في المؤسسة، هؤلاء اختاروا، عهدوا إلى عبد الرحمن بن عوف، فمكث ثلاثة أيام ليلاً ونهارًا لم يترك أحدًا في المدينة، كبيرًا أو صغيرًا، رجلاً أو امرأة، حرًا أو عبدًا، إلا وسأله: تُرى من الخليفة بعد عمر؟ وهنا نقارن من الذي كانت له ديمقراطية في أثينا؟ قليل من الملان، والفرسان، والأحرار، يجتمعون في الميدان كل من عداهم برابرة ليست لهم حقوق. إنما عبد الرحمن بن عوف لم يترك رجلاً أو امرأة حرًا أو عبدًا كبيرًا أو صغيرًا إلا وأشركه في الشورى فاختاروا "عثمان"، ثم استشهد "عثمان"، فجاء الثوار إلى "علي" ليبايعوه بالخلافة، قال: هذا ليس لكم، هذا للمهاجرين الأولين، للهيئة التي ترشح وتبايع البيعة الأولى، كان هناك من مات وهناك من اعتزل، ففكر علي بن أبي طالب أن يوسع الهيئة بأن يضم إليها بقية البدريين، لكن الأحداث، وأحداث الفتنة عاجلت الأمور.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كيف رأيتم أننا أمام مؤسسة لها اختصاصات دستورية وسياسية وقانونية ترشح للخلافة، وتعقد البيعة الأولى، ثم تُعقد البيعة العامة، وهي مؤسسة الأمراء، يُختار منها الخلفاء، ومعها المؤسسة الثانية وهي مؤسسة النقباء الإثنى عشر.

النقباء الإثنى عشر: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عديس (١هـ/ ٦٢٢م)، سعد بن الربيع (٣هـ/ ٦٢٥م)، عبد الله بن رواحة (٨هـ/ ٦٢٩م)، رافع بن مالك (٣هـ/ ٦٢٥م)، البراء بن معرور (١هـ/ ٦٢٢م)، عبد الله بن عمرو بن حرام (٣هـ/ ٦٢٥م)، سعد بن عبادة بن دليم (١٤هـ/ ٦٣٥م)، المنذر بن عمرو بن خنيس (٤هـ/ ٦٢٥م)، عبادة بن الصامت (٣٨ ق.هـ- ٣٤هـ/ ٥٨٦- ٦٥٤م)، أسيد بن حضير (٢٠هـ/ ٦٤١م)، سعد بن خيثمة بن الحارث (٢هـ/ ٦٢٤م)، رفاعة بن عبد المنذر.

وكما أشرت، كيف توزعت الاختصاصات في السقيفة بين هاتين المؤسستين.

وأشرنا إلى المؤسسة الثالثة وهي مجلس السبعين، كان يجتمع في مسجد النبوة في مكان محدد في أوقات محددة، وعندما فُتحت فارس قال عمر: نحن نعرف اليهود والنصارى، لكن هؤلاء مجوس يعبدون النار فعرض الأمر على مجلس السبعين فوثب عبد الرحمن بن عوف وقال: أشهد أني سمعت رسول الله r يقول: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[1].

---

(١) حديث رقم (٦١٩) الزكاة موطأ مالك، حديث رقم (١٤٣٦٣) كتاب النكاح سنن البيهقي، حديث رقم (١٩١٢٥) كتاب الجزية سنن البيهقي. وقال الشيخ الألباني في كتاب "مختصر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل"، ضعيف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن كان لدينا هذه المؤسسات التي بنيت بها وعليها الدولة الإسلامية الأولى عمر كان يعرض على مجلس الشورى قضايا الأمة، مشكلات الأقاليم، التقارير التي كانت تأتيه، وكان قد سن تقليدًا أن يذهب إلى الحج فيلتقي بأمراء الولايات، لأن الدولة الإسلامية اتسعت في عهد عمر، وكان أيضًا يعرض هذه المشكلات على مجلس الشورى. لما فتحت الأرض، في العراق (أرض السواد)، والشام، وفي مصر يعني أودية الأنهار وأصبحت هذه الأرض أغنى ما يمكن أن يكون في يد الدولة الإسلامية، وطلب عدد كبير من الصحابة، في الجيش الفاتح، من عمر أن يوزع عليهم الأرض كما وزع رسول الله r أرض خيبر، فصارت مشكلة، وكانوا يهاجمون عمر (بلال وغيره) هجومًا شديدًا، وكان عمر يشتكي من هجومهم، فعرض الأمر على المهاجرين الأولين (مؤسسة) فاختلفوا، فاختار عشرة، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج للتحكيم. أنا أقرأ لكم النص لكي تعرفوا أن الدولة الإسلامية كانت دولة قانون، دولة شريعة وفكر دستوري.

النص كاملاً:

عندما جمع عمر بن الخطاب المسلمين للمشورة في قسمة أرض العراق التي فتحت عنوة، ثم خاطبهم قائلا: (إني لم أزعجكم إلا لتشتركوا في أمانتي، فيما حملت من أموركم وإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي فيه، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده، ما أريد به إلا الحق).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما قاطعه بعض الصحابة وأرادوا أن تقسم الأرض رد عليهم قائلا: فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت؟ ما هذا برأي..

فيتساءل عبد الرحمن بن عوف: فما الرأي؟ ما الأرض إلا مما أفاء الله عليهم...

ويطالب بلال وعمرو بن العاص والزبير بن العوام بالقسمة.

ويطالب علي بن أبي طالب وعثمان ومعاذ بن جبل وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة وعبد الله بن عمر بألا تقسم، وأن تبقى للمسلمين جميعاً، ويجمع الأنصار كلهم على ألا تقسم، ويحسم عمر بن الخطاب الخلاف وقد هداه الله إلى الدليل من القرآن ـ كما ورد في عدة مصادر بعدة صيغ ـ فيقول: قد بان لي الأمر وقد وجدت حجة من كتاب الله:

قال تعالى: **[مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُم]** (الحشر:٧) ثم قال **[لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ]** (الحشر:٨) ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: **[وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة]** (الحشر:٩) ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: **[وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا] (الحشر:١٠) فكانت هذه لمن جاء بعدهم إلى يوم القيامة؛ فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعاً، فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم، استوعبت هذه الآيات الناس كلهم فلم يبق أحد من المسلمين إلا وله فيها حق، قد عمت الخلق حتى الراعي بكداء، لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه منها لم يعرق فيها جبينه). انتهى[1].

تحليل النص:

عمر عندما كون هذه الهيئة، أرسل إلى عشرة من الأنصار (خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج) من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا قال لهم: "إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي، فيما حملت من أموركم" هذه النصوص تحتاج إلى شرح لأنها تمثل فلسفة، فلسفة الشورى، والشورى ملزمة، بعض الناس جاءوا بعد ذلك وقالوا إنها معلمة: "فإني واحد منكم" –الذي يتكلم هنا عمر الملهم، الفقيه الذي كان القرآن ينزل مؤيدًا لما رآه، "وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي فيه، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، والله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق"، قالوا: "قل نسمع يا أمير المؤمنين، قال: قد سمعتم

---

(١) أبو يوسف (كتاب الخراج) ص ٢٣ - ٢٧، ٣٥ طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ. وأبو عبيد القاسم بن سلام (كتاب الأموال) ص ٥٧، ٥٨. طبعة القاهرة ١٣٥٣هـ. وطبعة دار الشروق –بتحقيقنا- القاهرة ١٩٨٩م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قول هؤلاء القوم الذين زعموا أني ظلمتهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا، ولكن رأيت".

انتبه! فهنا فلسفة الأموال، أن هذه الثروة ليست للفاتحين، لأنه ليست كل الأمة في الجيش الفاتح، وليست كل الأمة حاضرة كي تتوزع عليها هذه الثروة، فهناك أجيال ستأتي، هذه ثروة الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هنا نظرية الاستخلاف، المالك هو الله والناس مستخلفون.

"أنه لن يفتح شيء بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهلها، وقد رأيت أن أحبس (الوقف) الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وأضع في رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئًا للمسلمين من المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم، أرأيتم هذه الثغور"....

هكذا أصبح للدولة وضع مختلف لابد لها من رجال يلزمونها، "أرأيتم هذه المدن العظام (الشام، والجزيرة، والكوفة، والبصرة، ومصر) لابد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يُعْطَى هؤلاء إذا قسمت الأرضين والعلوج".

عند ذلك حكمت هيئة التحكيم بصواب رأي عمر وقالوا له جميعًا: "الرأي رأيك فنعم ما قلت ورأيت".

هذه مؤسسات الشورى التي حسمت قضية كانت تحتاج إلى حسم، وفي مواجهة اتجاه غالب من الصحابة، أو عدد كبير من الصحابة الذين شاركوا في الفتح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا طبعًا يثير قضية السُّنة التشريعية وغير التشريعية، الرسول r كان قد قسم أرض خيبر، لأن هذا كان يحقق المصلحة، عمر لم يقسم أرض الأودية والأنهار، لأن عدم القسمة هو الذي يحقق المصلحة. إذن موضوع السنة العبادية شيء وموضوع السنة في السياسة شيء آخر.

* * *

(٦)

المؤسسة الثانية: مؤسسة الزكاة والعاملين عليها، مؤسسة فيها عمال وموظفون، (من يجبي، من يعطي، من يوزع، ومن يخزن) إذن هذه أيضًا مؤسسة ارتبطت بالدولة الإسلامية.

* * *

(٧)

هناك مؤسسة شديدة الخطر هي مؤسسة الوقف، هي المؤسسة الأهلية الأم التي مولت صناعة الحضارة الإسلامية وتجديد الحضارة الإسلامية، وهي التي حققت في ذلك التاريخ نسبة من العدل الاجتماعي لا نظير لها في أية حضارة من الحضارات.

الوقف مؤسسة بدأت مع الدولة الإسلامية الأولى، الرسول r أوجد (الحمى) الوقف، فحمى أرضًا في النقيع لخيل المسلمين وفي الربذة لإبل الصدقة. ولقد أسلم أحد اليهود واستشهد عام إسلامه-(مخيرق بن النضر)- فتبرع بسبع بساتين كان يملكها وتركها لرسول الله r يصنع بها ما يشاء، فأوقفها رسول الله r ، هذه بدايات تأسيس مؤسسة الوقف في الدولة الإسلامية الأولى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمر بن الخطاب كانت له أرض في مكان يقال له (الشرف)، كانوا يسمونه كبد نجد، أوقفها وأضافها للنقيع، وكانت له كذلك أرض هي أثمن شيء ملكه عمر -في خيبر- فعرض على رسول الله r أن يتصدق بها فقال له الرسول r : «تصدق بأصلها لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولكن ينفق ثمرها»[1] فكانت أقدم حجة وقف في تاريخ الحضارة الإسلامية، تلك التي كتبها عمر بن الخطاب: "هذا ما كتب عبد الله بن عمر بن الخطاب في "ثمغ" (اسم مكان الأرض) أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث. للفقراء والقربى والرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضعيف والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقًا غير متمول فيه".

هذه بدايات مؤسسة الوقف، والتي هي أخطر المؤسسات في تاريخ الحضارة الإسلامية.

لما زادت الأوقاف في "عهد عبد الملك بن مروان" أنشأ لها ديوانًا.

لاحظ أن كل هذه المؤسسات مؤسسات أهلية، وليست تابعة للدولة، فأنشئ في عهد عبد الملك بن مروان (٧١- ١٢٥هـ/ ٦٩٠- ٧٤٣م) ديوان "للأحباس" يشرف عليه القاضي. وفي العصر العباسي كان يشرف على الوقف ما يسمى "صدر الوقوف". وفي عهد الظاهر برقوق (٧٣٨- ٨٠١هـ/ ١٣٣٨- ١٣٩٨م) بلغت الأراضي الموقوفة نصف أراضي الدولة.

---

(١)حديث رقم (٤٤٨٠) الأحباس سنن الدار قطني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأريد أن أقول: إن الوقف هو المؤسسة التي حققت بصدق ملكية الأمة، لأن مالك الرقبة الحقيقي في الأموال هو الله سبحانه وتعالى، والناس مستخلفون فيه، مطلق الناس وليس حزبًا ولا حكومة.

لقد اتضح أن الاشتراكية هي رأسمالية دولة أو حزب أو حكومة، إنما الذي حقق الملكية العامة حقيقة، ملكية الأمة، نظرية الاستخلاف هو الوقف، ولذلك، العلماء يتكلمون في تعريف الوقف فبعضهم يقول: إنه إخراج المال إلى غير مالك – ابن حزم (٣٨٤- ٤٥٦هـ/ ٩٩٤- ١٠٦٤م) بعبقريته قال: "إنه إخراج المال إلى خير المالك"، إلى الله سبحانه وتعالى. الله استخلفك فيه، فأنت تعيده لصاحبه. والمستخلف هو الأمة.

كان الوقف يلعب أدوارًا كثيرة، غير موضوع التمويل والعدل، كان يلعب دور حماية الأموال من المصادرات، فالحاكم الظالم الذي يصادر أموال الناس لا يستطيع أن يصادر الوقف، لأن هذا له حرمة، وعلى مر التاريخ كان للوقف حرمة، ولذلك تجد من عنده مال ويخاف عليه من المصادرة يوقفه ويجعله وقفًا أهليًا على أولاده، فكأنه بذلك ملك له ولكنه حماه من المصادرة ومن العدوان عليه. طبعًا لأن شرط الواقف كان كحكم الشارع، أي أن شرط الواقف فوق الدولة.

إذن هذه فكرة إسلامية وخصوصية إسلامية غير مسبوقة، فكرة أن العلماء، الفقهاء، الشريعة فوق السلطة التنفيذية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في كل الدول، الدولة هي التي تصنع القانون، وهي التي تغيره. في الإسلام، القانون فوق الدولة، فلا تستطيع تغييره، لذلك عندما يقولون: إن هناك مؤسسات ثلاث: تشريعية وتنفيذية وقضائية، نقول إنه توجد سلطة رابعة، سلطة الاجتهاد، سلطة الفقهاء (بعض الناس لا يعجبهم أن يكون هناك رأي للعلماء)!.

* * *

أريد أن أشير إلى ما كان يفعله الوقف، لأن الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية، الوقف ليس فقط يبني مساجد ومستشفيات، بل كان هناك في القرن التاسع عشر أوقاف على الأسطول المصري، فالدولة هي التي تقود الجهاد، لكن الأمة هي التي تمول الجهاد. كل هذا كان عملاً أهليًا.

ولذلك، من نتائج الوقف حقيقة في غاية الخطورة، هي تعظيم الأمة وتحجيم الدولة. الدولة في التراث الإسلامي كان حجمها محدودًا، ولذلك انحرفت الدولة منذ وقت مبكر، ومع ذلك فحضارتنا كلها بنيت في ظل انحراف الدولة، وهذا ما لا يستطيع أن يفهمه العلمانيون، يقولون: أن التاريخ ٩٩% منه ظلام، لماذا؟ لأن عينهم فقط على السيف والحاكم، ولم يروا الأمة. لقد كانت الدولة حجمها محدودًا. فمعاوية (٢٠ ق.هـ- ٦٠هـ/ ٦٠٣-٦٨٠م) وقد كان هو من هو، قال: ليدع لنا الناس الكرسي وليفعلوا ما يشاؤون، "يخلوا بيننا وبين السلطان ونخلي بينهم وبين ألسنتهم"، فترك لهم البراح يفعلون ما يريدون، فالدولة كان حجمها محدودًا، كانت تقود الجهاد، نعم، لكن الذي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يصنع الحضارة الإسلامية والدفاع عنها كان هو التمويل الأهلي من الأوقاف، تبنى المساجد، والمكتبات، والمدارس، ونسخ المخطوطات، وعندما نقول نسخ المخطوطات، أنتم تعلمون القاهرة في الدولة الفاطمية كان في المكتبات ملايين المخطوطات، ولم يكن هناك مطبعة، تاريخ الطبري ٣٠ جزء في أكثر من ألف نسخة في المكتبة، النسخ نافس الطباعة!. من يريد أن يقرأ في المكتبة يذهب فيجد من يعطيه الكتاب والحبر والورق والقلم ويخدّم عليه، كل هذا من الوقف، المساجد كلها فيها مكتبات، هذا بخلاف دار الحكمة، وبيت الحكمة. نسخ المخطوطات، رعاية المخطوطات، الحفاظ على التحف والآثار والعاديات.

كل هذه مرافق لها أوقاف، إقامة الخوانق لأقطاب التصوف ومريديه، إنشاء المكاتب القائمة على تحفيظ القرآن في المدن والقرى، إقامة المستشفيات (البيمارستانات) وإنشاء الطرق وتعديلها وصيانتها، كل هذه أوقاف، تحرير الأسرى بإفتدائهم، والإنفاق عليهم وعلى عائلاتهم، رعاية أبناء السبيل حتى يعودوا إلى المنازل والديار، المعاونة على أداء فريضة الحج، وتجهيز الحلي والمصاغ للعروس التي لا تستطيع ليلة زفافها أن تشتري هذه الأشياء، هناك وقف الصحون (لمن عنده حفل) وأكثر من ذلك، الخادم الذي يكسر صحنًا يأخذه من الوقف بدلاً من أن يضربه سيده (أرأيت كم بلغت الإنسانية في الأوقاف)؟!، رعاية النساء الغاضبات (إذا غضبت امرأة متزوجة من زوجها وليس لها أهل في البلد، هناك مساكن ومشرفات ينفق عليها الوقف تعيش فيها إلى أن يتم الصلح)، عمارة الرباطات (الرباط والجهاد في سبيل الله)، إعالة العميان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمقعدين وذوي العاهات والأمراض المزمنة، تطبيب الحيوانات والطيور، إيواء ورعاية الحيوانات الأليفة، ووقف يسمى نقطة الحليب (إذا كانت امرأة ترضع صغيرها وصدرها ليس به لبن تذهب إلى الوقف وتأخذ لبنًا لطفلها)، تهيئة طعام الإفطار والسحور للفقراء، حدائق مخصصة ثمارها وظلالها لعابري السبيل يأخذون منها الفاكهة على مدار العام، تجهيز موتى الغرباء والفقراء، بناء مقابر الصدقة، الإنفاق على الحرمين الشريفين، الإنفاق على الضيوف، إقامة أسواق التجار، ومؤسسات الصناعة، الخانات (الفنادق)، الأفران والمخابز، الحمامات العامة، الأسبلة، العبّارات، مؤسسة الرعاية التي يعيش فيها المعوقون وأصحاب الأمراض المزمنة، مؤسسات رعاية الأيتام، رعاية المسجونين وأسرهم، تسليف المحتاجين بدون عوض، تزويج المحتاجين والمحتاجات، إقامة الأرحية (المطاحن)، إنشاء القناطر والجسور.

هذه بعض عناوين المرافق التي موِّلت بالأمة، بمؤسسة الوقف، لذلك أنا أقول أن الذي صنع الحضارة الإسلامية هي الأمة، حتى العلماء كانوا في أحضان الأمة لم يكونوا مع السلطان، صحيح كان هناك بعض فقهاء السلاطين، لكن لنرى: أبو حنيفة (٨٠- ١٥٠هـ/ ٦٩٩- ٧٦٧م) لم يرض أن يتولى القضاء، وضُرب، الإمام مالك (٩٣- ١٧٩هـ/ ٧١٢- ٧٩٥م) لفتواه، الإمام الشافعي (١٥٠- ٢٠٤هـ/ ٧٦٧- ٨٢٠م) هرب بأعجوبة، الإمام ابن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ/ ٧٨٠- ٨٥٥م) نعرف محنته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن كانوا يقفون بعيدًا عن التبعية للدولة. فكرة استقلال العالم والعلم. ما الذي جعل العز بن عبد السلام (٥٧٧- ٦٦٠/ ١١٨١- ١٢٦٢م) سلطانًا للعلماء؟ وما الذي جعل الظاهر بيبرس (٦٢٥- ٦٧٦هـ/ ١٢٢٨- ١٢٧٧م) وهو من هو بطل شعبي، أسطورة، عندما رأى جنازة العز بن عبد السلام بجوار القلعة قال: الآن استقر بي العرض؟! ما الذي جعل سلطان العلماء سلطته أعلى من سلطة الأمراء؟ لأنه يتمول من الوقف، لأنه لو مد يده فلن ينطق، منذ أن تحول المثقف والعالم والصحفي إلى موظف لدى الدولة انتهى الاستقلال. نحن لا نريد علماء يناطحون الحكام، إنما نريد أن تكون هناك مسافة، استقلال، لكي يكون هناك استقلال في الفكر والرأي وأمانة في كل هذه الأمور.

الوقف هو الذي حقق كل هذه الميزات، ولذلك لما جاءت الدولة القومية –كالغول تطعمك وتسقيك وتكتم أنفاسك -مع محمد علي (١١٨٤- ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠- ١٨٤٩م) بدأت تجور على الأوقاف وتستولي عليها، من هنا حدث الذي حدث للأزهر، ثم جاءت نظم العسكر فأجهزت على الوقف.

* * *

(٨)

هناك مؤسسة أخرى هي مؤسسة الحسبة، وأنتم تعرفون أن الحسبة هي مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمن ولايتها الأسواق والتجارات، ومنذ عهد رسول الله r تولت الحسبة امرأة (سمراء بنت نُهَيْك) وفي عهد عمر تولتها (الشفاء بنت عبد الله). والحسبة كتب فيها تراث كثير، وكتبت فيها رسائل جامعية أيضًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

* * *

(٩)

أريد أن أشير إلى مؤسسة قد يستغربها بعض الناس، في عهد رسول الله r كان هناك جمعية نسائية تطالب بحقوق المرأة.

فالإسلام أنصف المرأة، لكن المرأة لم تكن جالسة ومنتظرة أن يأتيها الإنصاف كالمطر، بل كانت تجاهد وتكافح، وقد قامت مظاهرة نسائية في المدينة.

عندما نقرأ في كتب السنة (باب وافدة النساء) لأسماء بنت يزيد بن السكن النصارية (٣٠هـ/ ٦٥٠م) والتي شاركت، هي وأم عمارة، في بيعة العقبة، وطبعًا شاركن في القتال -وقد كتبنا ذلك في كتاب "التحرير الإسلامي للمرأة" وغيره- عندما تذهب (أسماء) إلى رسول الله r - وأنا أريد أن أثبت بنص كتب السنة أن هناك جمعية اجتمعت، واتخذت قرارات، وذهبت أسماء لإبلاغها للنبي r وقالت: "أنا رسول من خلفي من نساء المؤمنين يقلن بقولي وهن على مثل رأيي، إن الله بعثك للرجال والنساء، وقد غلبنا الرجال عليك، فاجعل لنا يومًا تعلمنا فيه.." إلى آخر ما هو موجود في الكتب-.

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن هذه مؤسسة وجمعية موجودة.

أريد أن أشير إلى أننا نقرأ في الكتب عن الفرق الإسلامية، هذه الفرق مؤسسات، أحزاب، جمعيات، تنظيمات، هي والمذاهب الفقهية، إلا أننا لم نلتفت إلى أن الفرق ليست مجرد آراء.

وأشير إلى نموذج من هذه الفرق، وهي "المعتزلة"، "واصل بن عطاء" (٨٠- ١٣١هـ/ ٦٩٩- ٧٤٨م) كان رئيس الفرقة، زعيم الحزب، "عثمان الطويل"، وهو أحد القادة في المعتزلة يقول: إن واصل كان يملك نفوس المعتزلة دون أصحاب هذه النفوس "ما كنا نرى أن لنا ملكًا على أنفسنا في حياة واصل حتى مات كان يقول لواحد منا أخرج إلى بلد كذا فما يراده" (تنظيم).

كان عثمان الطويل تاجرًا، ولديه تجارة كبيرة، فأمره واصل بالذهاب إلى أرمينيا، فقال له: إن عندي تجارتي وأنا مستعد للتنازل عن نصفها لمن يذهب بدلاً مني، فقال له واصل: كلا، تذهب وتتاجر وتمارس الدعوة، فذهب وفتح الله عليه.

كانت البصرة مقر قيادة هذا التنظيم، أما دعاته وشُعبه وأنشطته فامتدت خارجها فشملت مختلف أنحاء الدولة العربية الإسلامية من الصين شرقًا إلى المغرب غربًا ومن اليمن جنوبًا إلى الجزيرة في الشمال، هناك شاعر –صفوان الأنصاري- تكلم عن واصل بن عطاء، وأشار إلى التنظيم:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

له خلف شعب الصين في كل ثغرة إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يفل عـــز يمهم تهكم جبار ولا كيـد ما كر

إذا قال مروا في الشتاء تطاوعوا وإن كان صيف لم يخف شهر ناجر

بهجرة أوطان وبذل وكلفة وشدة أخطار وكد المسافر

فأنجح معاهم وأتعب زندهم وأورى بفلج للمخاصم قاهر

وأوتاد أرض الله في كل بلدة وموضع فتياها وعلم التشاجر[1]

وما كان سحبان يشق غبارهم ولا الشدق من حيي هلال بن عامر

كانت لهذا التنظيم تقاليد غريبة، فكان يرسل شخصًا ما لبلد ما ليعمل بالدعوة، فيقال له: تذهب إلى المسجد، وتلزم أحد الأعمدة، تصلي جوار هذا العامود مدة سنة، إلى أن يرى الناس يعرف الناس مكانك ومكانتك. فيبدءون بسؤاله، فيفتي بمذهب الحسن البصري (٢١- ١١٠هـ/ ٦٤٢- ٧٢٨م) سنة، ثم يطرح الأصول الخمسة للمعتزلة.

ولقد أُرسل واحد منهم ليناظر زعيم الجبرية "الجهم بن صفوان" (١٢٨هـ/ ٧٤٥م) فأوصاه واصل بنفس الوصية –سنة- إلى أن عرف مكانه ومكانته، ثم لكي يبدأ المناظرة (لكي تتضح لكم مسألة التنظيم) سيبدأ المناظرة يوم كذا الساعة كذا، كل التنظيم في جميع أنحاء البلاد الإسلامية يصلون ويدعون له في نفس اللحظة أن ينصره الله!.

---

(١) علم التشاجر- علم الجدل- علم الكلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الكلام يبين أن موضوع الفرق ليس مجرد كلام وآراء ونظريات، لكنها مؤسسات.

* * *

طبعًا هناك جمعيات، تنظيمات، مثل تنظيمات الشيعة السرية، جمعيات فلسفية سياسية "كإخوان الصفا".

طبعًا المذاهب الفقهية مؤسسات، ولذلك "الليث بن سعد" (٩٤- ١٧٥هـ/ ٧١٣- ٧٩١م) كان أفقه من الإمام مالك (٩٣- ١٧٩هـ/ ٧١٢- ٧٩٥م) لكن لم يجد من يقوم بفقهه، مالك وجد مؤسسة تقوم بفقهه، أبو حنيفة كان هو وأصحابه يطرحون القضية ويتبادلون الرأي فيها والاجتهاد والتفقه عدة شهور، ثم تدون، يعني حتى أحكام المذهب كانت توضع بواسطة مؤسسة.

إذن المذاهب الفقهية أيضًا كانت مؤسسات في تراثنا.

* * *

(١١)

طبعًا الصوفية من أهم المؤسسات في التراث الإسلامي، ولذلك كانوا يسمونهم الفقراء (مؤسسة للفقراء)، مؤسسة في الجهاد، فالصوفية كانوا في طليعة المجاهدين، مؤسسة في نشر الإسلام، انظروا دور الصوفية في أفريقيا، في نشر الإسلام، وفي الجهاد في سبيل الإسلام، وضد الاستعمار، وفي الحفاظ على الإسلام، انظروا دور مؤسسات التصوف في تركيا، لما جاء كمال أتاتورك (١٨٨١- ١٩٣٨م) وقال إن الطبيعة هي الله. من الذي حفظ إيمان الشعب التركي إلى أن جاء الآن حزب العدالة وغيره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مؤسسات التصوف لعبت دورًا رياديًا وقياديًا وأساسيًا في الحفاظ على الإسلام في الكثير من البلاد.

* * *

(١٢)

الحرف والصناعات، ماسينيون (١٨٨٣- ١٩٦٢م)، المستشرق الفرنسي، له دراسة -لست أدري إن كان أحدٌ اهتم بها أو طورها- عن الحرف والصناعات، كل حرفة وصنعة، وقد كانوا يعتبرون الإمام علي زعيم كثير من الحرف، وعندما يأتي الصبي ويدخل الحرفة، لكي يترقى يقام حفل، له طقوس معينة وأدعية وكلمات معينة.

ودور الحرف والصناعات في مقاومة الاستعمار، عندما نقرأ ما كتب الجبرتي (١١٦٧- ١٢٣٧هـ/ ١٧٥٤- ١٨٢٢م) في مقاومة الحملة الفرنسية، ونرى دور الصناع والتجار والحرفيين، كل الحرف والصناعات شاركت، لأنه كانت هناك تنظيمات – مؤسسات لكل منها رئيس، ورأي، واجتماع، مستوى أعلى ومستوى أدنى- فدور الحرف والصناعات ومنظماتها في مقاومة الظلم في العصر المملوكي العثماني وإبان الحملة الفرنسية شهير.

* * *

(١٣)

الأزهر (مؤسسة)، كان فيه أربع مذاهب، كل مذهب له شيخ، وكانوا يختارون منهم الشيخ الأكبر (نحن نسميه الآن الإمام) أو شيخ الشيوخ أحيانًا.

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١٤)

أيضًا عثرت على حقيقة ووضعتها في كتاب (الإسلام وحقوق الإنسان) كان هناك ما يسمى بـ "مجلس الشرع"، مؤسسة في مصر، هذا المجلس هو الذي عزل الوالي التركي ١٨٠٥م، وهو الذي عين محمد علي، وأصدر (وثيقة الحقوق)، التي تكلم عنها بعض الأجانب، ولقد نشرت نصها في الوثائق في كتاب (الإسلام وحقوق الإنسان) وقال مجلس الشرع: إن الأمة هي مصدر السلطات. حينما قال الوالي: إنني معين من قبل السلطان فلا يستطيع أحد أن يعزلني، فقال له عمر مكرم (١١٦٨- ١٢٣٧هـ/ ١٧٥٥- ١٨٢٢م): "لقد جرت العادة على مر الدهور أن أهل الشرع يعزلون من لا يسير تبعًا للشريعة حتى ولو كان الخليفة"[١].. هذا الكلام الذي أعلنه مجلس الشرع في بيت القاضي في ١٣ صفر ١٢٢٠ في مايو ١٨٠٥م –أعلنه كمؤسسة-.

* * *

(١٥)

آخر شيء هو الأحزاب السياسية: أول من أنشأ الأحزاب السياسية في الشرق هم الإسلاميون (جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤- ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨- ١٨٩٧م)) قبل العلمانيين، وقبل الانفتاح على أوروبا.

---

(١)كتاب (الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات... لا حقوق) (ص:٢٠٦ وما بعدها) د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق الأولى، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعندما حققت أعمال محمد عبده (١٢٦٦- ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩- ١٩٠٥م) والأفغاني وجدت محمد عبده قد كتب أوراقًا هي: (لائحة تنظيم العروة الوثقى).

جمال الدين الأفغاني في سبيعينيات القرن التاسع عشر أقام "الحزب الوطني الحر"، أول حزب في تاريخ الشرق، وكان معه محمد عبده.

بعد الثورة العرابية، أسس عمل تنظيمًا أمميًا –(جمعية العروة الوثقى)- من المغرب للهند. وأصدر مجلة "العروة الوثقى" لسان حال التنظيم السري. محمد عبده كتب اللائحة، بقي منها بعض أوراق نشرتها الخلية يسمونها عقدًا، فكرة تنمية الأموال للعقد، فكرة خضوع المستوى الأدنى للمستوى الأعلى. ووجدت أن هذه الخبرات التنظيمية لم تكن قد عرفت في أوربا في ذلك التاريخ، في ثمانينيات القرن التاسع عشر. أول معرفة أوربا بقواعد التنظيم الحديدي للأحزاب في أوربا عرفت في حزب لينين (١٨٧٠- ١٩٢٤م) في ١٩٠٣م فاستنتجت أن هذا تراث التنظيمات والمؤسسات في تاريخ الأمة، فالأفغاني ومحمد عبده حين كتبوا هذه اللائحة وهذه القواعد التنظيمية، ولم تكن أوربا قد وصلت بعد إلى هذا التقدم في التنظيم الحزبي، إذن استفادوا من تراث الأمة والجمعيات والمؤسسات التي كانت في تاريخ الأمة.

طبعًا "الحزب الوطني الحر"، و"جمعية العروة الوثقى"، والكواكبي (١٢٧٠- ١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤- ١٩٠٢م) أنشأ "جمعية أم القرى" وتأسست بالمؤتمر الذي عقد في مكة، وجاء فيه بالمسلمين العرب وغير العرب والمسلمين في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدولة العثمانية وفي غير الدولة العثمانية ليدرسوا "حالة الفتور" التي أصابت الأمة، وطريق النهوض، وهي موجودة في كتابه "مذاكرات جمعية أم القرى"[1].

* * *

(١٦)

ولا ننسى مؤسسة القضاء، التي كانت من أفعل وأخطر المؤسسات في تاريخ حضارة الإسلام.

إذن نحن لسنا فقراء، في حضارتنا، في المؤسسات، إنما حدث غبش، تعمية على هذا التراث لحساب الاستبداد في تاريخنا.

وكما قلت إن فكرة المؤسسة وثيقة الصلة بالدعوة الإسلامية، لأن الإسلام دين الجماعة، الإسلام أسس أمة، ولن تجد في تاريخ اليهود أمة، ولن تجد في النصرانية، كنصرانية، أمة، إنما الأمة وثيقة الصلة بالإسلام. وحتى محمد عبده عندما فسر الآية **[وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ]** (آل عمران:١٠٤) تكلم عن أن هذه الأمة جماعة أخص من الأمة بالمعنى العام، جماعة لها صفات، كأنهم أعضاء في جسد واحد، لأن لهم شروطًا معينة، ففكرة المؤسسة وفكرة المؤسسية فكرة عريقة في تاريخنا، ولكنها تحتاج إلى من ينبش عن معالمها، من يكشف عنها الغبار الذي وضعه عليها الاستبداد، ولذلك، كما قلت في البداية: لقد أحسن المركز في اختيار هذا الموضوع، ولعله يكون حافزًا لعدد من الباحثين أن يواصلوا البحث والتنقيب عن دور

---

(١) انظرها في أعماله الكاملة –التي حققناها- طبعة دار الشروق ٢٠٠٧م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسات في تاريخنا وتراثنا وحضارتنا، وأهمية المؤسسات في إنهاض الأمة الإسلامية، وإخراجها من الواقع الذي تعيش فيه. شكرًا لكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حوار حول الورقة

أ.د. رفعت العوضي

تعقيباً على الدكتور محمد عمارة، والذي ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجزيه خير الجزاء على ما قدمه في هذه الورقة القيمة، ونحن نهدف من هذه اللقاءات إلى المساهمة في أن تعود أمتنا إلى سابق مجدها، ونتمنى بعد هذه المحاضرة أن يصبح الإسلام بحضارته هو القبلة التي نعود إليها.

وقد سجلت فقرات كثيرة فيما يتعلق بهذه الورقة، وكما قال أستاذنا، إن كل واحد من الموضوعات التي تكلم عنها أستاذنا يصلح أن يكون موضوع بحث، شدني كثيرًا موضوع المؤسسات الثلاثة، فالمسألة لم تكن عفوية كما يذكرها التاريخ وليت في الباحثين من ينهض على موضوع المؤسسات الثلاثة.

وقد تكلم الدكتور عن مؤسسة الزكاة، وفي الحقيقة أنا دائمًا أقول: إن الزكاة ولدت مؤسسية، كذلك تكلم عن مؤسسة الوقف، والذي يعد صانع الحضارة الإسلامية، وهنا يشير أستاذنا إلى أن المؤسسات الفكرية والعلمية الكبرى في العالم الغربي نشأت وتأسست على غرار الجامعات أو المؤسسات العلمية في الأندلس والتي كانت تمول بنظام الوقف (كجامعة كامبردج وأكسفورد) وقد ذكر أستاذنا أقدم وثيقة (وثيقة سيدنا عمر **y**) وليت من الباحثين من ينهض بتحليلها. تكلم عن مؤسسة الحسبة، وعن أول جمعية نسائية ظهرت على الأرض. وتكلم كذلك عن المذاهب الفقهية والفرق والطرق الصوفية، كذلك عن مؤسسة الأزهر. أمور كثيرة تكلم عنها د. عمارة، ندعو الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سبحانه وتعالى أن يوجد من الباحثين من ينهض فيملأ فراغات هذه الموضوعات.

أ.د. طه جابر العلواني/

الأستاذ الدكتور محمد عمارة، كالعادة، يقدم الموضوع من جوانبه المختلفة، ويضع يده على كثير من النقاط التي قد تغمض على سواه، بحكم ما آتاه الله سبحانه وتعالى من قدرة وطاقة على التجوال في جوانب مختلفة من تراثنا الإسلامي الغني بجميع جوانبه، وقضى على قراءته قراءة متميزة، فالقراءة التي قام بها لتراثنا المؤسسي منذ بدء الورقة حتى نهايتها هي قراءة من نوع لا يتقنه أحد مثله فيمن أعلم، تجرد هذا التراث من معطيات العصر ومن ثقافة العصر وتقدم ضمنًا نوعًا عاليًا من المقارنة والتحليل يجعل المستمع مندهشًا من قوة وعمق هذا الجانب أو ذاك من التراث كما يتناوله الأستاذ الدكتور عمارة. ففي الحقيقة الجولة التي جال بنا فيها في التاريخ الإسلامي وتشخيصه لسبب الغبش الذي نال الفكر المؤسسي ونال المؤسسات تشخيص دقيق، ودليل خبرة عرف بها في قراءة هذا التاريخ وتحليله.

الأمر الذي أود أن أضيفه، أنه كما وردت إشارة منه عن معاوية بن أبي سفيان وربما وردت عن سواه أيضًا أن الحكام كانوا يرون أنهم إذا ترك لهم أمر السلطان فيمكن أن يتركوا هوامش كبيرة من الحرية للأمة وللمجتمع ينشغلون ويعنون بها فلا يمسون المؤسسات التي تختارها الأمة إلا حينما يكون هناك تصادم مباشر بين مصلحة السلطان وبين مؤسسة ما، فهذه الإشارة الدقيقة تذكر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنه رغم انحراف النظام السياسي في عهد بني أمية وعهد بني أمية وعهد بني العباس ومن جاء بعدهم، لكن مؤسسة القضاء بقيت عادلة، سليمة، محايدة، وذلك هو الذي يزودنا بالأمثلة والنماذج على عدالة القضاء الإسلامي.

مؤسسات المجتمع مثل الوقف، مثل الحسبة، مثل الجمعيات المختلفة، كلها لم تضار بالانحراف بالجانب السياسي بحيث الجانب السياسي أصبح أنه لا يجد الاهتمام الكافي من قبل أهل العلم إلا في بعض قضايا حينما يريد أن يقحم نفسه كما أقحم المأمون نفسه في قضية خلق القرآن وما شاكل هذا، لكن قراءة الدكتور عمارة، وقد استفدت من قراءته لقضية الفرق في كتابات سابقة له نشرت في سنين بعيدة لم أجده يقرأها بهذه الطريقة على أنها أحزاب ومؤسسات مدنية يمكن أن تعطي صفة الإيجابية إلا هذه المرة فهل هو تطور في فكر الدكتور عمارة؟ أم هو قراءة إضافية لما كان يقرأه في فكر هذه الفرق والطوائف؟ أشعر أن دور الفرق والطوائف كان في أغلبه دورًا سلبيًا، الإيجابي منه كان محدودًا جدًا، وهذا الدور السلبي أضعف من فكر الأمة، ربما تحسب للطوائف والفرق حسنة أساسية نستطيع أن نذكرها وهو أنها كانت ما تزال في داخل الكيان الاجتماعي الإسلامي لم تخرج عنه ولم تخرج عن المرجعية الإسلامية خلافًا للمؤسسات الحزبية في الوقت الحاضر الذي نجد فيه مؤسسات كثيرة اتخذت مرجعيات مختلفة لا علاقة لها بمرجعية الأمة وانفصلت عن جسم الأمة، فهذه هي القضية التي لفتت نظري، إضافة إلى قراءتكم الجيدة والمتميزة والإيجابية لصفحات التاريخ المؤسسي والتي تحتاج إلى بلورة من باحثين يقفون عند النقاط التي مررتم عليها بالتحليل ويبنون لنا ما يمكن لنا استدامته أو استحياؤه أو البناء عليه من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه المؤسسات وفكرها، وما يعتبر قد ارتبط بزمانه ومضى يمكن أن يترك لذلك الوقت. وبارك الله فيك، ونفع بك، واستمر عطاؤك إن شاء الله، وجزاك الله خيرًا.

أ.د. عبد الرحمن النقيب/

بسم الله الرحمن الرحيم، في الواقع -كما ذكر د. طه- هناك شمولية في تناول المؤسسات، وهذه الشمولية تحتاج إلى وقفات قطعًا، لأن كل مؤسسة تحتاج إلى وقفة جديدة، ما أضافت؟ وما قصرت فيه؟ وقطعًا بعض المؤسسات كانت لها إيجابيات ضخمة، مثل طوائف المهن والحرف، بعضها قد يكون فيه بعض الهنات كالفرق والصوفية، أيضًا العلماء متى كانوا إيجابيين؟ ومتى كانت لهم مواقف سلبية؟ حتى مؤسسة الوقف، متى كانت معطاءة؟ ومتى انتهكت أوقافها؟ كل هذه الأمور تستحق الدراسة.

المؤسسات السياسية موجودة، اقتصادية، اجتماعية، علمية، كل هذه المؤسسات تحتاج إلى دراسة واسعة جدًا لكي نعرف لماذا وهنت تلك المؤسسات؟، لماذا ضعف الاجتماع في المجتمع المسلم عبر العصور؟، لماذا وصلنا إلى مرحلة الفردية والأنانية واختفاء إيجابيات تلك المؤسسات؟ وأشكركم على هذا الطرح، ووفقكم الله.

د. عبد الناصر زكي العساسي- بالأزهر/

لدينا في الوقت الحاضر مؤسسة الوقف، وتجربة المعهد العالمي للفكر الإسلامي هي تجربة نشأت في الظروف العصرية التي نعيشها الآن، ومع ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اخترقت كل الحواجز والمعوقات التي وقفت أمامها، وأنشأت لنفسها اسمًا كمؤسسة، فهل الدكتور عمارة لديه تصور لمؤسسة يمكن أن نسميها مؤسسة الدكتور عمارة؟.

أ.محمد أبو بكر - مدرس/

فضيلة الدكتور، التوجيه القرآني والنبوي منذ أول لحظة يؤكد على المؤسسية حتى في أحلك الظروف **[وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ]** (آل عمران:١٥٩) في غزوة أحد، الخطاب اليوم الذي نحياه وتحياه الأمة يؤسس للفردية، هل الدافع للفردية، هل الدافع إلى ذلك هو الإحساس بأن المؤسسية تذيب أو تضعف قدرة الفرد أو تغيب حجمه؟ أم أن المؤسسية هي التي تؤكد على هذا الأمر؟ شكرًا.

أ.علا محمد أحمد - طالبة دكتوراه - كلية البنات - جامعة عين شمس/

عندي إشكالية فأنا وغيري نعلم أنه هناك من الكتب التي تحدثت عن المؤسسات سواء كانت الحسبة أو غيرها، مما ذكره أستاذنا، ولكن أنا أشعر أن هناك فجوة كبير بين هذا التراث وبين ما نحن في الآن، الأمة الآن -وقد أكون مخطئة- هي على فراش الموت، كيف لنا أن نحيي هذا التراث؟، كيف لنا أن ننزل هذا التراث على أرض الواقع حتى نحيي موات هذه الأمة؟.

أ.سيد محمود... - إمام في وزارة الأوقاف/

فضيلة الدكتور بدأ ورقته وختمها بأن اليهود لم ينشئوا أمة، ولكن القرآن الكريم ذكر في بعض الآيات: **[وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا]** (الأعراف:١٦٨) فأنا أتساءل عن مفهوم الأمة في القرآن ومفهومه عند الدكتور.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ.د. سعيد طعيمة- جامعة عين شمس/

هناك الكثير من التحديات الخارجية والداخلية التي تفرض نفسها علينا الآن وعلى ثوابتنا ومتغيراتنا، وهناك رأي يقول بأننا يجب أن نتفاعل مع العالم بحكم وجود مشترك ثقافي معين يربطنا بالثقافات الأخرى، فما هي حدود هذه المرونة التي تجعلنا نتفاعل مع الآخر في حدود ثوابتنا ومتغيراتنا؟.

م. خالد محمد أحمد علي/

سعدت أولاً بما سمعته قرأته، هناك تبسيط للأمر في أن الدولة الإسلامية قامت على المؤسسية، ولكني ألاحظ أنه منذ إنشاء مؤسسة السبعين أو مجموعة الإثنى عشر، ألاحظ أن هناك تنظيم دقيق جدًا، فماذا كان المنظم لهذه المؤسسات؟ هل هي الدعوة في ذاتها؟ أم أنها شخصية النبي **r** بما أوحي إليه بأن يكون منظمًا (قائدًا) لهذا التنظيم؟ فأنا أتصور أن الروح المؤسسية تختلف عن النظام نفسه فأنا لم أستوضح هذه النقطة.

د. عبد رب الرسول- مدرس بكلية التربية- جامعة الأزهر/

بما أن مؤسسة الوقف أسهمت بدور بارز وصنعت الحضارة الإسلامية، كما ذكر د. عمارة، كيف يمكن تفعيل دور هذه المؤسسة في الوقت الراهن، لاسيما في مجال التربية والتعليم؟. وجزاكم الله خيرًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

د. محمود سعيد حميدة- مدرس مساعد بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة/

هل المؤسسة ضمن الحضارة الإسلامية تعني الفرقة أو الجماعة؟ وقد لاحظت أن حضرتك تعتبر الفرق الإسلامية عامة والصوفية والفقهاء المحدثون وغيرها من المؤسسات التي ذكرت في كتب الطبقات المختلفة، لكن هل هذه المؤسسات غابت عن حضارتنا الإسلامية؟ وإذا كانت لم تغب، هل كان لها دور في صنع الحضارة الإسلامية؟. هل من الممكن أن نعتبر الفرق الكلامية كالمعتزلة والأشاعرة على ما كان بينهما من خلاف لهم دور في إحداث صنع وتقدم في هذه الأمة، لا سيما أن الذين يرتدون بتخلف الأمة الإسلامية في المقام الأول كالشيخ أبو الحسن الندوي في كتاب "..... عن أحوال المسلمين" إذا كنا أريد أن نضع إصبعنا على الخط الفاصل بين حد الكمال والزوال فلابد أن نضع إصبعنا على الخط الفاصل بين دولة النبوة والممالك العربية فإذا كان هذا التخلف يبدأ من التحول من الخلافة الراشدة إلى الملك العضود. فكيف ندخل هذه الفرق والمؤسسات باعتبارها من المؤسسات التي تسهم في صنع الحضارة الإسلامية؟.

محمد الأتربي- باحث بدار العلوم/

الظاهرة الاستبدادية وقفت أمام المؤسسية، هذا ما نطق به الحديث، كيف نقوم بالمؤسسة مرة أخرى؟ وكيف نحمي المؤسسة من الاستبداد؟، ثانيا: دور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفرد غير منكر في تاريخنا، والإيجابية سمة من سمات الأداء الإسلامي، فكيف نجمع بين الفردية وإيجابياتها والمؤسسة في حضارتنا؟.

تعليق أ.د. محمد عمارة، الملاحظات

بسم الله الرحمن الرحيم، طبعًا ملاحظة الدكتور طه أنا ما قرأت منه الآن هو الكتاب الذي كتبته قديمًا –في سبعينيات القرن الماضي- عن الفرق والمعتزلة ولكن من الطبعة الحديثة[1]. ما أشار إليه الدكتور طه أنا متفق فيه هو الدور السلبي الذي قامت به الفرق، وهذا ما أشار إليه أحد الإخوة، في الحقيقة في السنوات الأخيرة كانت تشغلني قضية اختلاف المسلمين حول "علم الكلام"، نحن أشرنا في القصيدة –عن واصل بن عطاء والمعتزلة- أنهم يسمونه علم التشاجر (الجدل)، وبعض الفقهاء حرموا علم الكلام، وبعضهم أجازه، والبعض الآخر توسط بين هذا وذاك، وفي الحقيقة أنا وصلت في السنوات الأخيرة، إلى رؤية أعرضها عليكم: كيف نشأ علم الكلام؟ نشأ في الجدل مع غير المسلمين، والذي بدأ علم الكلام هم المعتزلة (دعونا من أن الشيعة هم الذين ألفوا في الإمامة أولاً) لكن علم الكلام كعلم جدل مع المخالفين بدأ وتأسس وازدهر على يد المعتزلة، وما هو علم الكلام؟: هو إثبات العقيدة بالمنطق والعقل، هذه هي رسالة علم الكلام، فكان في الجدل مع غير المسلمين لابد من

---

(١) الإشارة إلى كتابي (تيارات الفكر الإسلامي).. ولقد كتبته في سبعينيات القرن العشرين وأحدث طبعاته –دار الشروق- ٢٠٠٧م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا، فلا يمكن أن تقول لغير المسلمين: قال الله وقال الرسول، فهو لا يعرف أن هذا قول الله وقول الرسول، ولذلك الذين نشروا الإسلام في الحواضر ذات المواريث الفلسفية والدينية كانوا هم المعتزلة، ولقد رسمتُ خريطة للمدن التي غلب عليها الاعتزال فكانت هي المدن التجارية التي كانت فيها المؤسسات الفلسفية التاريخية، الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ/ ٧٨٠- ٨٦٩م) يورد نموذجًا فيه طرافة لكن فيه عمق وموضوعية، في أيام الرشيد (١٤٩- ١٩٣هـ/ ٧٦٦- ٨٠٩م) كان المعتزلة في محنة (كانوا جماعة محظورة ومعتقلة) فكان زعيم (السُمَنية) –وهي طائفة كالفلسفة الوضعية يؤمنون بالواقع والمادة ولا يؤمنون بالرسالات ويعتقدون أن سبب المشاكل في هذه الدنيا هي النبوات والرسالات- في السند طلب من ملك السند أن يتحدى هارون الرشيد ليرسل أكبر علماء بغداد لمناظرته، والمنهزم هنا يدخل في دين المنتصر، فأرسل الرشيد قاضي قضاة بغداد، فسأله السمني: أألهك قادر؟، قال: نعم، قال: أيقدر أن يخلق مثله؟، ففزع الرجل (لو قال لا يستطيع فهو عاجز، ولو قال يستطيع فإذن ممكن أن يكون هناك إلهان) فقال: هذا من علم الكلام، ونحن نحرم علم الكلام. وعاد إلى بغداد خائبًا. فجن الرشيد، وقال: أما لهذا الدين من مدافع عنه؟ فانبرى من حاشيته شخص قال له: الجماعة المعتقلة لديكم هم من يفهمون في ذلك، فتوجهوا إلى السجن فأتوا بأحدهم وكان عمره اثنين وعشرين عامًا، وأرسلوه إلى السميني فسأله نفس السؤال: إلهك قادر؟، قال: نعم، قال: أيقدر أن يخلق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مثله؟، قال: هذا سؤال خاطئ، لأن المخلوق حادث ولا يمكن أن يكون مثل الخالق القديم، فالمخلوق حادث والله قديم. فانتهت القصة.

إذن علم الجدل هو علم الكلام مع المخالفين، وقد لعب دورًا رياديًا في نشر الإسلام. السلبية التي أشار إليها د. طه، وأنا معه فيها، في تقديري جاءت عندما استخدم السلاح –سلاح الجهة الخارجية- في الجبهة الداخلية، لأن هذا سلاح في الجدل مع غير المسلمين، عندما ندخله نحن في الذات الإلهية، وفي العلم الإلهي، وفي الرؤيا، والتحيز...الخ هذه هي السلبية الكبرى التي حدثت. وأنا بالفعل كانت تشغلني هذه المسألة، وهداني الله إلى هذا التصور، ولذلك الذين حرموا علم الكلام كان لهم وجهة نظر ومنطق، وكذلك من أجازوه، لكن الخطأ كان في التحول من سلاح مفروض في الجبهة الخارجية عندما جعلناه سلاحًا فيما بيننا في الفرق الإسلامية.

موضوع أن يكون لي مؤسسة، استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان! لكي يعيننا الله ونكمل المشوار.

هناك سؤالان اجتمعا في موضوع واحد، وهو علاقة المؤسسية بالفرد وهل الفردية ضد المؤسسية؟.

الفرد ليس ضد المؤسسية، الفرد عندما يصبح جزءًا من المؤسسة يكون أفعل، وضربت المثل كيف أن رسول الله r جعل القبيلة لبنة في جدار الأمة، لأن عصبية القبيلة مطلوبة، وقد رأينا العباس عم النبي -وهو على الشرك- يتأكد لرسول الله r في بيعة العقبة ويقول لهم إذا لم تحمونه أنتم فسوف نحميه نحن،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وموقف أبي طالب كذلك، مما يدل على أن العصبية شيء جيد. وقد أعجبني مقال لجمال الدين الأفغاني في مجلة "العروة الوثقى" بعنوان "التعصب" يقول فيه أن التعصب ليس سيئًا بإطلاق، فهو ككل شيء فيه غلو، إفراط وتفريط، لكن الوسطية فيه مطلوبة، وضروري أن يكون موجودًا فعلاً، فنحن لابد وأن نتعصب للإسلام. من هنا أقول: إن الفرد لا يذوب في المؤسسة إنما يصبح أفعل في إطار المؤسسة، والفرد ليس ضد المؤسسة إنما الاستبداد، أي عندما يصبح الفرد هو الزعيم الأوحد **[مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ]** (غافر:٢٩) هذا الذي يصبح ضد المؤسسة.

هناك سؤال حول أن هناك فجوة بيننا وبين التراث، هذا صحيح وأنا أميز دائمًا بين شيئين: قراءة التراث والتاريخ، وبين الوعي بالتراث والتاريخ، وقد ألفت كتابًا اسمه "الوعي بالتاريخ"، فحين أرى رقم... فمثلاً الرسول **r** ولد سنة ٦٧١م عندما نهى هذا الرقم نجد فيه دلالة، فهذه السنة كان مفروضًا فيها تعم البلوى في احتلال الشرق كله، فقد كان الشرق كله محتلاً إلا الحجاز وجاءت غزوة... لتعمم البلوى، هذا الميلاد كان إيذانًا بموجة ستعيد القصة من أولها، وستزيل كل هذا، والمسلمون فتحوا في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، وأزالوا القوى العظمى، وتركوا الناس وما يدينون، وحرروا الأرض والضمير. في هذا العام، هذا الرقم كان فيه انعكاس للموجة، فبدلاً من عموم البلوى بدأت حضارة جديدة وبناء نهضة جديدة، إذن الوعي بالتراث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مطلوب. وكما قلنا: فعلم الكلام كيف يكون السلاح سلبيًا وكيف يمكن أن نجعله إيجابيًا.

سؤال كان يتكلم عن موضوع الأمة واليهود، ذكر أنهم أمم، هم أمم فعلاً لأنهم أقليات، إنما موضوع الأمة في القرآن (الجماعة) فهناك أمم أمثالكم، وأمم في الحيوانات والحشرات، وقد قرأت تعريف الراغب الأصفهاني للأمة أنهم (أي جماعة يجمعهم دين واحد، زمان واحد، مكان واحد) وقد كتبت دراسة عنوانها: "هل المسلمون أمة واحدة؟" فيها تعريف الأمة في اللغة وفي التراث، وكيف أن الأمة في الرؤية الإسلامية لها خصيصة أنها تعريفها ليس جامعًا مانعًا، وإنما هي منفتحة دائمًا وأبدًا لاستيعاب من يدخل في إطار هذه الأمة، فنحن نعرف الأمة بالمعنى العرقي، الأمة بالمعنى العنصري، الأمة بالمعنى السياسي في الدساتير تكون منغلقة فتعريفها هنا جامع مانع، إنما الأمة هي الجماعة دائمة التحقق على مر التاريخ فهذا لمن يحتاج هذه الدراسة فليرجع إليها في مفهوم الأمة.

موضوع حدود التفاعل مع العالم، التفاعل وسط بين الانغلاق والتبعية والتقليد، التفاعل هو أن نتفاعل في المشترك الإنساني العام مع الاحتفاظ بالخصوصية، وهي البصمة الحضارية للأمة، نحن لدينا في العلم الطبيعي وتقنياته العلوم التي لا تتغير حقائقها وقوانينها بتغير العقائد، هذه مشترك إنساني عام، كالماء والهواء، إنما هناك خصوصيات، فالعلوم الشرعية (ومن هنا تأتي إسلامية المعرفة كاملة في العلوم الشرعية) والعلوم الاجتماعية والإنسانية فيها قدر من الإسلامية، والعلوم الطبيعية حقائقها ثابتة، لكن هناك إسلامية في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تطبيقات العلوم، في فلسفة تطبيق العلوم، في القيم والأخلاق التي تحكم تطبيقات هذه العلوم. إذن نحن نريد منتدى حضارات، نتفاعل، نتعاون، نشارك في المشترك الإنساني العام، مع الاحتفاظ لكل حضارة بخصوصيتها الثقافية، ولذلك كتبت في هذا الكثير، من ضمن ما كتبت كتاب "الغزو الفكري وهم أم حقيقة" ما حدود التفاعل؟ الانغلاق مستحيل وضار، بالضبط الانغلاق كمن يضرب عن الطعام، يأكل ذاته، وكذلك المقلد والتابع، يأكل ذاته فينتهي، إنما التفاعل هو الحفاظ عل الخصوصية مع الانفتاح، فالتفاعل مع كل العالم، وهذا هو الفارق بين ما نقوله وندعو إليه وبين العلمانيين الذين يريدون أخذ النموذج الحضاري الغربي بخيره وشره بحلوه ومره، ما يحمد فيه وما يعاب...الخ آخر الكلام الذي قاله طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م) والذي تراجع عنه حين هداه الله. هذا موضوع التفاعل مع العالم.

موضوع التنظيم الدقيق الذي أشرت إلى بعض منه، ماذا كان سره؟ الرسول أم شيء آخر؟ أود أن أقول أننا حتى الآن لم ندرس جيدًا ما نسميه مدرسة النبوة. نحن أمام أكاديمية، دار الأرقم بن أبي الأرقم التي صنعت وأعادت صياغة كوكبة غيرت الدنيا، الروضة، مدرسة النبوة.

سأضرب لكم مثلاً أو مثلين لتعرفوا مقدار الدقة. الرسول r في غزوة بدر عندما قال لأصحابه: أشيروا علي نحارب أم لا؟ فقال له المهاجرون نحن معك. فيعود ويسأل، فيقول له الأنصار: كأنك تعنينا فقال r : نعم فقالوا: نحن معك. لماذا؟، هنا بوعيي بالتاريخ وبفقه التاريخ، الرسول r في بيعة العقبة بايع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على إقامة دولة في حدود المدينة. وطن له حدود. وعندما نقرأ في وثيقة المدينة نجده يتكلم عن حدود الدولة (المدينة)، وغزة بدر كانت الحرب ستدور خارج المدينة، وهذا ما لم يتفق عليه- انظر إلى الفكر الدستوري، القانوني، ففي بيعة العقبة لم يتفقوا على حماية الرسول خارج المدينة، وهو هنا يريد أن يطور التعاقد بالشوري، انظر إلى دقة الفكر الدستوري والقانوني. هذا يعني أننا أمام فكر وليس مجرد مواعظ ووصايا، فهذا فقه.

المثال الثاني فيه طرافة: حاطب بن أبي بلتعة (بدوي) لم يدخل كُتّاب ولا مدرسة ولكنه تعلم في مدرسة النبوة، عندما ذهب إلى المقوقس برسالة رسول الله **r** سنة ٧ هـ. المقوقس وارث أعظم وأعرق حضارات الدنيا، ونصراني عنده كتاب، ومؤمن باليهودية، الحوار الذي دار بينهما يكشف عن معنى تربية رسول الله **r** للصحابة. أراد المقوقس الهجوم على حاطب بن بلتعة، فقال له: صاحبك (أي الرسول) ماذا يمنعه إن لم أتبعه أن يدعو عليّ فيحدث لي كذا وكذا؟ فقال حاطب: يمنعه الذي منع عيسى أن يدعو على مخالفيه فيحدث لهم كذا وكذا!. ثم قال له (ملخصًا فلسفة التاريخ في كلمتين): "إنه قد كان قبلك رجل قال أنا ربكم الأعلى فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك. إننا ندعوك إلى الإسلام، وما دعوتنا لك للإسلام إلا كدعوتك اليهود إلى النصرانية، وما دعوتنا لك إلى القرآن إلا كدعوتك أهل التوراة إلى الإنجيل، إننا ندعوك إلى الإسلام الكافي به الله فقدما سواه، ونحن لا ننهاك عن دين المسيح وإنما نأمرك به".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حين ننظر إلى حاطب بن أبي بلتعة نجده خريج مدرسة النبوة، فهذه المدرسة هي التي صنعت الجيل الذي غير الدنيا، عندما جاء عمرو بن العاص (٥٠ ق.م- ٤٣هـ/ ٥٧٤- ٩٦٤م) إلى مصر بأربعة آلاف جندي، فوجد فيها مائة وعشرين ألف جندي رومانيًا، في حصون وراءها حصون، فأرسل إلى عمر بن الخطاب قائلاً: إن معي أربعة آلاف وأمامي مائة وعشرين ألفًا، وهناك مدد قادم دائمًا إلى الإسكندرية من البحر. فقال عمر: معك أربعة آلاف، وسأرسل لك أربعة آلاف فيصبحوا ثمانية آلاف، وسأرسل لك أربعة من الصحابة كل واحد منهم بألف، فيكون معك إثني عشر ألفًا! ويكون هؤلاء في المقدمة. فكرة الصحابة، كيف صنعهم الرسول على عينه، وكيف غيرت هذه القلة العددية وجه الدنيا، وفتحت في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، هذا هو التنظيم، النظام، الدقة، المعجزة التي حدثت على وجه الأرض. أريد أن أقول: إن رسول الله r ، مؤيدًا بالقرآن الكريم، فمدرسة النبوية هي التي صنعت هذا، ولذلك نقول: أننا عندما نعي التاريخ فأكتشف أشياء قد نمر عليها مرور الكرام، فنكتشف فيها –بالوعي- أسرارًا تجعل عشقنا يزداد لرسول الله r ويزداد حبنا لصحابة رسول الله r .

موضوع بعث الوقف من جديد، هناك محاولات د. شوقي الفنجري، أكرمه الله، يجري محاولات، لكن المسألة تحتاج محاولات مع الحكومات، فمنذ حكومات العسكر أصرت الحكومات على أن يكونوا نظارًا على الأوقاف، واستغلوا أن الأوقاف جاء عليها حين من الدهر كان فيها عيوب وسرقات،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن ليس علاج المريض أن تدعه يموت! أو أن تقتله!. وإنما معالجته، وهذا موضوع يحتاج لعمل كبير.

المؤسسات لم تغب وإنما أضعفت في ظل نظام العسكر، فلما تعسكرت الدولة بالنظام المملوكي بدءًا من المعتصم العباسي (١٧٩ - ٢٢٧هـ/ ٧٩٥-٨٤١م). الإمام محمد عبده أشار لهذا التحول بعبقرية فقال: "كان الدين عربيًا، وكان العلم عربيًا، ثم حدث اجتهاد للمعتصم فأصبحت الدولة أعجمية". وكان هذا من أسباب نظام عسكرة الدولة.

الغزوة الخارجية الطويلة للصليبيين ٢٠٠ سنة، ثم التتار، هددوا الوجود، ففي ظل الخطر الذي يهدد الوجود، الأمة تسلم قياداتها للعضلات!. أتعلمون متى حدثت الانقلابات العسكرية في العالم العربي؟ بعد قيام إسرائيل، يكون خطر يهدد الوجود فتسلم الأمة قيادها للعضلات بدلاً من العقل. فنقول: في ظل عسكرة الدولة لفترات طويلة حدث التراجع الحضاري، حتى في اللغة، حتى في الشعر، حتى في الأساليب، في الفقه، فصار عبارة عن حكاكات لفظية وشروح وهوامش وتعليقات، وبدأ الاجتهاد يضمر في الأمة.

موضوع المُلك العضود أنا أعجبني السنهوري باشا (١٣١٣ - ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٧١م) إذ سماها الخلافة الناقصة، فنحن لا نعتبر أن الملك العضود كان نهاية الدنيا أو كارثة وطامة، كما قلت لأن حجم الدولة كان محدودًا، فالانحراف لم يمثل كارثة، لأن مؤسسات الأمة كانت هي الفاعلة في بناء الحضارة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كيف نبني المؤسسة؟ أنا أرى أن بناء المؤسسات يحتاج جهودًا وتضحيات، وكما نعرف، النظم المستبدة لا تريد شريكًا ولا مؤسسات (والأحزاب نموذج)، وأنا أتصور أن حالة التراجع التي وصلت إليها الأمة، والإفلاس الذي وصلت إليه النظم السياسية، تفتح الأبواب لجهود في سبيل المؤسسات.

أيضًا من العوائق أمام المؤسسات في العالم الإسلامي: الغلو في القطرية التي جزأت العالم الإسلامي، إذ يعتبرون أن هذه الأمة قد ماتت وهم يرثونها! وتجد من يتكلم عن الشخصية القَطَرية والشخصية التونسية...الخ! مع أن الإسلام يصنع الجامعة الإسلامية، وتحتها يمكن تمايز للأقاليم والأقطار والولايات، وقد تكلم جمال الدين الأفغاني عن ذلك في "العروة الوثقى" بما يعني أننا لا نريد لأحد أن يترك كرسيه، لكن تكون هناك رابطة جامعة، فلو أصبحت "منظمة المؤتمر الإسلامي" فاعلة لأصبحت هي الشكل المعاصر والجديد للخلافة الإسلامية، فالخلافة ليست شكلاً، بل هي النظام أيًا كان هذا النظام، الذي يحقق "وحدة الأمة وتكامل دار الإسلام".

إذن نحن نستطيع تهذيب الغلو القُطْري، تهذيب الغلو القومي، فلو كانت القومية رابطة لغوية فهذه آية من آيات الله، إنما لننزع العنصرية والغلو القطري من القومية وعندئذ تصبح المؤسسة مؤسسة الأمة، إنما لو أنشأ كل منا مؤسسات داخل الأقطار سينتج نوعًا من التناحر، إنما تكامل الأمة ووحدة الأمة هو ما يمكن أن يجعل المؤسسات أفعل، ولذلك فنحن حريصون على المؤسسات التي لها امتداد على امتداد الأمة؟ لذلك يصعب علينا رؤية تراجع الأزهر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمجامع الفقهية ومؤسسات العالم الإسلامي، ولذلك نحن حريصون على إبقاء هذه المؤسسات فاعلة لتكون نموذجًا لعمل أفضل إن شاء الله وشكرًا لكم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسات العلمية والتعليمية
في عصر الحضارة الإسلامية

الأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا
نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسات العلمية والتعليمية
في عصر الحضارة الإسلامية

أ.د. أحمد فؤاد باشا

الورقة الثالثة ضمن مشروع "المؤسسية" **" المؤسسات العلمية والتعليمية في عصر الحضارة الإسلامية"** للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا – نائب رئيس جامعة القاهرة السابق

وقد ناقشت هذه الورقة مؤسسة هامة وهي المؤسسة العلمية، وخاصة أن هناك عجز شديد في واقعنا المعاصر في تلك المؤسسات مما جعل النشء وعموم الناس يتصور أنه لم يكن لأمتنا إنجاز على المستوى العلمي، وأن القفزة الهائلة للحضارة الغربية على مستوى المؤسسات العلمية والتكنولوجية كانت البداية التي لا سابق لها.

وأتت الورقة لتعرفنا بالدور العلمي الكبير لعلماء المسلمين حتى أنه عند قراءة المحاضرة ينتاب المرء ذلك الشعور بالانبهار عندما يزور الغرب أو يطلع على أحد إنجازاته العلمية أو يسمع من أحد قاطنيه عن مدى الاهتمام الذي يجده عند زيارة مؤسسة طبية أو مؤسسة تعليمية.

فقد أتت الورقة لتقول لنا أنها سنة الله في خلقه من أخذ بها وصل ومن تقاعس تخلف -وإن كان مسلماً- فالله عادل لن يحابي أمتنا الحالية المتهاونة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العاجزة وخاصة أنه أكرمها بالمنهج التي لـو سـارت عليـه لاهتـدت، كـما فعـل السلف الصالح.

نترككم الآن بين رحاب نص الورقة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسات العلمية والتعليمية
في عصر الحضارة الإسلامية

أ.د. أحمد فؤاد باشا

مقدمة:

عادة ما تقاس المظاهر الحضارية لدولة ما في عصرنا بما لديها من مؤسسات ومنظمات اقتصادية واجتماعية وعلمية وصناعية وغيرها، حيث تعرف العلوم الإدارية الحديثة مفهوم المنظمة أو المؤسسة على أنها مجموعة المراحل أو الوظائف التي يتصل فيها الأفراد وفق تنظيم هيكل قادر على تحقيق أهداف معينة. أي أن المنظمة أو المؤسسة عبارة عن الترتيب المنظم للأفراد والتكنولوجيا من أجل تحقيق بعض الأغراض المحددة، فهي عملية تركيبية يتفاعل في مكوناتها الأفراد لتحقيق الأهداف.

ولقد كان نظام المؤسسات بصورة عامة من أهم مميزات الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، وارتبط تاريخ المؤسسات العلمية على وجه الخصوص في العصر الإسلامي، كالمستشفيات والمراصد والمدارس العلمية والمكتبات وغيرها، ارتباطًا وثيقًا بسيرة الحكام الذين أنشأوها، وبالعلماء الذين أحيوها. وهذا يعني أن مهمة هذه المؤسسات في الأساس هي رعاية العلم والعلماء في مختلف المجالات على أن يمتد البعد الاجتماعي لنتائج نجاحاتهم إلى المجتمع الذي يعيشون فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأهم ما يميز نشاط العلماء والمؤسسات التي كانوا ينتمون إليها آنذاك أنه لم يكن نشاطًا متواصلاً ومنتظمًا في الزمان والمكان، فقد تركز في العواصم الكبرى، في بغداد أيام الخليفتين العباسيين هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م) والمأمون (٨١٣-٨٣٣م)، وفي مصر في العصر الفاطمي، وفي العواصم البويهية الكبرى في القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) كالريّ وأصفهان وشيراز وبغداد، وفي سوريا زمن الأمراء الأيوبيين... الخ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ - البيمارستانات

جاءت الرعاية الطبية للمرضى في العصر الإسلامي مصحوبة بإقامة مؤسسات للعلاج والمداواة أطلق عليها اسم "بيمارستانات" "والبيمارستان" – بفتح الراء- كلمة فارسية مكونة من كلمتين هما "بيمار" بمعنى مريض أو مصاب و"ستان" بمعنى دار، أي أنها "دار المرضى". وهي تناظر "المستشفى" في العصر الحاضر. وقد اختصر اللفظ بعد ذلك إلى "مارستان" وأطلق على ما يقصد به الآن "مصحة الأمراض العقلية والعصبية".

ولم تكن وظيفة البيمارستانات تقتصر على مداواة المرضى وعلاجهم، بل كانت في الوقت نفسه معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج فيها المطببون والجراحون والكحّالون (أطباء العيون) والصيادلة وغيرهم. وكان بعضها ثابتًا في المكان الذي أقيم فيه، وبعضها الآخر متنقلاً مع الجيوش في الحرب، أو مع الخلفاء والأمراء في أسفارهم، أو بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها في البلدان التي تخلو من البيمارستانات الثابتة. ذلك أن "البيمارستان المتنقل" يناظر ما يعرف اليوم باسم "المستوصف" أو "المستشفى الصغير" الذي يقتصر على الخدمات الطبية اليسيرة، ويقابله بالإنجليزية كلمة **.Ambulance**

وأول مستشفى غير ثابت أقيم في الإسلام هو الذي أمر الرسول **r** بإقامته أثناء غزوة الخندق. فعن عائشة رضي الله عنها قالت "أصيب سعد بن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معاذ يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له حبّان بن العَرِفة، رماه في الأكحل، فضرب النبي r خيمة في المسجد ليعوده من قريب".

وقال ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨م: كان رسول الله r قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من "أسلم" يقال لها "رُفَيْدَة" في مسجده، كانت تداوي الجرحى. وتحتسب نفسها على خدمة من كانت به ضبعة من المسلمين، وقد كان رسول الله r قد قال لقومه حين أصابه (يعني سعدًا) السهم بالخندق: "اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب [سيرة ابن هشام: ٣/ ١٤٥].

وكانت البيمارستانات المتنقلة أو المحمولة لدى خلفاء المسلمين وملوكهم وسلاطينهم عبارة عن "مستوصفات" –كما ذكرنا- مجهزة بالأطباء والصيادلة، ومزودة بكل ما يلزم لعلاج المرضى من دواء وغذاء وشراب وملبس وكل ما يعين على ترفيه الحال. ومن هذا النوع ذلك "البيمارستان" المتنقل الذي أنشئ في عصر المقتدر بالله بناء على كتاب أرسله ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة يقول فيه: "فتقدم مدّ الله في عمرك بإبقاء متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد [أي القرى، وسواد العراق ما بين البصرة والكوفة وما حولها من قرى] ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ويعالجون من فيه، ثم ينتقلون إلى غيره".

وأما أول مستشفى ثابت في الإسلام، فهو ما بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ/٧٠٦م وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق. وأمر بعزل المجذمين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لئلا يخرجوا ويختلطوا بالناس، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق، فكان هذا أيضًا أول "محجر صحي" في الإسلام.

وكانت المستشفيات الثابتة في أول عهدها بسيطة، ثم ازدهرت وتطورت تطورًا كبيرًا في عهد العباسيين، وانتشرت في مختلف البلاد التي ضمتها الدول الإسلامية الكبرى، وتزايد عددها في الحواضر حتى أن مدينة قرطبة وحدها كان بها خمسون مستشفى في أواسط القرن العاشر الميلادي. وكان اختيار موقع البيمارستان يتم بعد بحث وتفكير لاختيار أفضل الأماكن صحة، وأكثرها جمالاً. فقد جاء في كتاب "طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة أن عضد الدولة استشار أبا بكر الرازي الطبيب المعروف المتوفي سنة ٢١٣هـ/ ٩٢٥م، ليختار له مكانًا لبناء مستشفى يحمل اسمه، فطلب الرازي أن يعلق في كل ناحية من جوانب بغداد شقة لحم، واعتبر الناحية التي لم يتغير اللحم فيها هي أنسب الأماكن لإقامة هذا المستشفى. وعندما أراد صلاح الدين أن يبني المستشفى الناصري في القاهرة، اختار لهذا الغرض أحد قصوره الفخمة البعيدة عن الضوضاء.

وكان العمل في البيمارستانات الكبرى يسير وفق نظام وترتيب دقيقين. فكان البيمارستان بوجه عام ينقسم إلى قسمين منفصلين: أحدهما للذكور والآخر للإناث، وفي كل قسم عدة قاعات فسيحة لمختلف الأمراض: فقاعة للأمراض الباطنة، وقاعة للجراحة، وقاعة للكحالة (أمراض العيون)، وقاعة للتجبير... وهكذا. كما كانت قاعة الأمراض الباطنة تنقسم بدورها إلى أقسام أخرى، كقسم المحمومين (أي المصابين بالحمى)، وقسم المبرودين (أي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المتخومين)، وقسم الممرومين (أي المصابين الذين فسد مزاجهم أو أصابهم هوس، وهو ضرب من الجنون يتميز بالانفعال الشديد ويسميه الأطباء "مانيا" Mania)، وقسم لمن به إسهال، وهكذا. وكان لكل قسم من هذه الأقسام خدم وفراشون من الرجال والنساء يقومون على خدمة المرضى وتقديم الطعام والعلاج لهم.

أما العمل الطبي في البيمارستان فيقوم به الأطباء الأخصائيون في مختلف فروع الطب يتناوبون العمل فيما بينهم، وكان رئيس الأطباء يتفقد أحوال المرضى ومعه معاونوه. وإذا احتاج الأمر إلى استشارة دُعي الأطباء والأخصائيون من قسم آخر غير الذي يقيم فيه المريض. وكان جميع ما يكتبه الطبيب لكل مريض من المداواة والتدبير ينَّفذ ولا يتوانى في ذلك.

ونشأ إلى جانب العمل بالأقسام الداخلية نظام للعلاج الخارجي، إذ كان الطبيب يجلس على دكة –فيما يقول ابن أبي أصيبعة- ويكتب لمن يرد عليه من المرضى للعلاج أوراقًا يعتمد عليها (أي روشتات)، ويأخذون بها الأدوية والأشربة من البيمارستان وكانت "الشرابخانة" (أي بيت الشراب أو الصيدلية) جزءًا مهمًا من مرافق البيمارستانات يقوم عليها العشابون (أي الصيادلة)، وتحتوي على العديد من الأدوية والأشربة والعطريات والمعاجين وغيرها من أصناف شتى.

أما من ناحية الإدارة، فقد كان للبيمارستان ناظر يشرف على إدارة الأموال والأوقاف المخصصة له، وكان تعيين الناظر يتم وسط مظاهر حافلة، حيث إن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نظارة البيمارستان كانت من وظائف الدولة السامية، وكان يتولاها أحيانًا السلاطين بأنفسهم أو يولونها أحد أمراء الدولة. والواقع أن السجلات التي كانت تقيد فيها مصروفات البيمارستانات تنبئ عن مدى الاهتمام الزائد بالإنفاق عليها، سواء من حيث قيمة رواتب الأطباء والعاملين، أو الميزانيات المخصصة للعقاقير والتجهيزات والآلات الطبية وغيرها.

وقد شيد نور الدين محمود بن زنكي بيمارستانًا في دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م اعتبره الرحالة ابن جبير بمثابة "مفخر عظيم من مفاخر الإسلام". وقد أوقف نور الدين هذا البيمارستان على الفقراء دون الأغنياء، اللهم إلا إذا لم يجد الأغنياء دواءًا مسقمًا لعللهم إلا في هذا البيمارستان، مما يؤكد الأهمية الاجتماعية لهذه المؤسسة الطبية.

ويتألف مبنى "البيمارستان النوري" من باحة سماوية أطوالها (٢٠×١٥) مترًا تتوسطها بحرة ماء مستطيلة الشكل أبعادها (٧×٨.٥) مترًا، وهي مبنية من الحجر المنحوت، لزواياها من الداخل حنايا نصف اسطوانية، كعنصر زخرفي شاع استعماله في العهدين السلجوقي والأيوبي، ويحيط بالبحرة بعض الأشجار المثمرة والورود والأزهار الجميلة، ويحيط بالباحة أبنية يتوسطها في كل جهة إيوان، وعلى جانبه غرفتان، وهذه الغرف بعضها مربع والبعض الآخر مستطيل، وكلها مسقوفة بالعقود المتقاطعة. المبنى خال من الواجهات المتقنة باستثناء الباب، وهو مفتوح في الواجهة الغربية، له مصراعان من الخشب مصفحان بالنحاس ومزخرفان بالمسامير النحاسية الموزعة على أشكال هندسية وللباب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ساكف مؤلف من حجر واحد، منقول من بناء قديم يعود تاريخه إلى العهد الروماني، ويعلو الباب واجهة من الزخارف الجصية الجميلة تعود إلى زمن السلطان نور الدين زنكي، تتألف من صف من المحاريب ذات الأقواس المجصصة، ومصممة من تسعة مداميك من المقرنصات التي تعتمد على شكل الورقة المجوفة. وهذا النوع من التشكيل جديد في سورية، أتى به السلاجقة. كما أن تجويف البوابة فن جديد أيضًا، حيث نشاهد الأقواس المؤلفة من سبعة فصوص.

يلي الباب غرفة مربعة الشكل أبعادها (٥×٥)أمتار، تقوم مقام الدهليز، تعتبر من أجمل غرف المبنى عناية وزخرفة، كان يطلق عليها بلغة ذلك العصر- "الدركاة"، وتقع ما بين البابين الداخلي والخارجي، مزودة بإيوانين صغيرين في جانبيها الشمالي والجنوبي، مسقوفين بعقد مزين بزخارف تشابه زخارف الباب. وعلى الجدران أشرطة كتابية وزخارف تشير إلى أعمال الإصلاح في العهد المملوكي، ويعلو القاعة قبة عالية تغطيها المقرنصات من الداخل والخارج. وهذه المقرنصات الخارجية تجعلها من النماذج الفريدة في سوريا.

ومازال هذا البيمارستان على حاله حتى اليوم بعد أن أعيد ترميمه في أواسط سبعينيات القرن الماضي، وحولته مديرية الآثار العربية السورية إلى متحف للطب والعلوم عند العرب، يضم في قاعاته مجموعات هامة من الآثار الطبية والعلمية والصيدلية التي تبين أهمية العلوم ودور العرب في ابتكارها وتطورها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن لم يكن البيمارستان النوري مجرد مستشفى لمعالجة المرضى، وإنما كان منشأة من مفاخر العمارة العربية الإسلامية، ومؤسسة علمية وتعليمية من طراز متميز. وقد ذكرتنا المستشرقة الألمانية "زيجريد هونكه" في محاضرة لها ألقتها منذ عدة سنوات في فناء البيمارستان بمثال عن روح الممارسة الطبية في هذا المستشفى، فقالت: "في القرون الوسطى وحتى ما قبل القرن الثامن عشر الميلادي كان المرضى المختلون عقليًا في الغرب هم الضحايا البائسة للدعوى القائلة بالعقاب الإلهي للخطيئة. وكان شفاء الاضطرابات النفسية والعقلية خاضعًا لمهمات الكاهن في استخراج العفريت الذي يسيطر على المريض، وبالتالي فإن ذلك يعني أنهم في حال عجزهم عن استخراج هذا العفريت الذي ركب هذا المريض، لجأوا إلى تكبيله وسجنه وحجزه مدى الحياة في ملاجئ للمعتوهين حيث تعمل في أجسادهم سياط الحراس الشداد الغلاظ... بينما كان المعتوه في بيمارستان دمشق يحظى بعلاج خاص، في عيادات متخصصة شديدة المراقبة، أو في أقسام الأمراض العصبية التي كانت المعالجات فيها دقيقة وحكيمة، تجرى من قبل أخصائيين، وبوسائل أقرب ما تكون إلى وسائلنا العصرية، كالخضوع للمنوم الصحي، واستخدام الموسيقى".

وإن شئنا مثالاً آخر، نذكر المستشفى المنصوري الذي أنشأه الملك المنصور قلاوون من أمراء المماليك البحرية عام ٦٨٢هـ، وسمي أيضًا "مارستان قلاوون"، في منطقة بين القصرين، أي المنطقة بين القصر الشرقي الكبير والقصر الغربي الصغير في قاهرة الفاطميين، وهي ما يعرف اليوم بشارع المعز لدين الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد بني هذا المستشفى على مساحة كبيرة تبلغ عدة أفدنة، إلى جانب مسجد وقبة ومدرسة، وتشهد آثاره الباقية حتى اليوم على ما كان عليه من روعة الزخرفة والبناء العظيم.

عرض "مسيو جومارا" **Gomara** أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر، وصفًا تفصيليًا لمستشفى قلاوون في كتاب "وصف مصر" **Description de L'Egypte** فأوضح ما كان عليه هذا المستشفى من شهرة وتنظيم ومستوى عال في خدمة المرضى، حتى أنه كان يقال: إن كل مريض ينفق عليه في كل يوم دينار، وكان له شخصان يقومان بخدمته، وكان المؤرقون من المرضى يعزلون في قاعة منفردة يشنفون فيها آذانهم بألحان الموسيقى أو يتسلون باستماع القصص، وكان لكل مريض عند خروجه من "المارستان" خمس قطع من الذهب حتى لا يضطر إلى الالتجاء إلى العمل الشاق قبل أن يستعيد صحته.

وأضاف بريس دافن **Prisse d'avennes** في وصف مارستان قلاوون أن قاعات المرضى كانت تدفأ بإحراق البخور، أو تبرد بالمراوح الكبيرة، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان شجر الحناء أو شجر الرمان أو الشجيرات العطرية.

وإذا كانت هذه الشهادة من جانب علماء الحملة الفرنسية على مصر تعكس المستوى الحضاري الذي كانت عليه المؤسسات الطبية في العصر الإسلامي، فإن الحال في الغرب كانت آنذاك على النقيض، حيث أشار إليها "ماكس نوردو" في وصفه لمستشفى "أوتيل ديو" **Hotel Dieu**، وهو أقدم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مستشفى في باريس في القرون الوسطى، فقال: "... كان ثمة قش كثير موضوع على الأرض، تزاحم عليه المرضى، وأقدام بعضهم إلى جانب رؤوس الآخرين.. الأطفال قرب الشيوخ، والرجال بجانب النساء بشكل يدعو إلى العجب.. وكان قرب المتوعكين توعكًا بسيطًا أناس ذوو أمراض معدية، وأناس كثيرون، منهم الحبلى التي تعاني آلام المخاض، والطفل الذي يعاني سكرات الموت، ومريض السل الذي مزق صدره السعال يبصق دماء والمصاب بالمرض الجلدي يمزق جسمه بأظافره حكًا.. والطعام سيء ويقدم لهم على فترات متباعدة بكميات ضئيلة جدًا. وكان المبنى الذي يضم المرضى يزدحم بأخطر الحشرات. أضف إلى ذلك فساد الهواء في الداخل لدرجة لا تطاق ولا تحتمل. وكانت جثث الموتى من المرضى تترك حتى يدب فيها الفساد. فتفوح الروائح النتنة في الأجواء، وينقض البعوض ويهجم ممعنا نهشًا وأكلاً من اللحم العفن، ويضطر المرضى الآخرون أن يشاطروا الجثث هذا المكان قبل أن تنقل".. (راجع: زيجريد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب").

ويشهد "مايرهوف" بأن المستشفيات الأوربية لم تبدأ مستواها في التحسن إلا إبان الحروب الصليبية ونتيجة لها، فالمستشفيات التي ظهرت في أوربا خلال القرن الثالث عشر الميلادي كانت تقليدًا للمستشفيات الراقية التي شاهدها الصليبيون في الشرق أثناء الحروب الصليبية (راجع: د. أحمد فؤاد باشا في كتابه "أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي: دراسات تأصيلية).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - المراصد الفلكية

المرصد الفلكي بناء يتم فيه رصد الأجرام السماوية المختلفة، من نجوم وكواكب وأقمار وشهب ونيازك ومذنبات، وكل الظواهر الكونية المتاحة، وتسجيل ما يتوفر عن ذلك من ملاحظات ومعلومات يفيد منها الباحثون في كشف المزيد من أسرار النظام الكوني.

ولابد أن المرصد كان في البداية بدائيًا مجردًا، تقوم العين وحدها بأعبائه نظرًا لعدم توفر الأجهزة والأدوات العلمية اللازمة، ومع التقدم العلمي أدخلت الأدوات المساعدة لتعزيز مهمة العين، ولتسهيل عمليات الرصد والحساب، فاستخدمت آلات بسيطة، تطورت فيما بعد إلى أن بلغت في عصرنا الحاضر درجة عالية من الدقة والكفاءة والتعقيد.

ومن أهم المراصد القديمة التي اشتهرت في التاريخ ذلك المرصد الذي بُني في الإسكندرية بمصر في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد ظل هذا المرصد الذي طوره "بطليموس القلوذي" وحيدًا في العالم حتى إنشاء المراصد في عصر الحضارة العربية والإسلامية، وتزويدها بالعديد من الآلات والأدوات الرصدية مثل المزولة "الساعة الشمسية" والساعة المائية وآلات الأسطرلاب وغيرها.

وقد أجريت أول أرصاد علمية في الإسلام في عهد الخليفة المأمون العباسي (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، وذلك سنة ٢١٤هجرية في دمشق من أرض الشام والشماسية ببغداد عند محلة الصليخ إحدى محلات الأعظمية اليوم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويوضح حاجي خليفة.. صاحب كتاب "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" هذا الأمر بكلام صاعد الأندلسي، فيقول: "لما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون بن الرشيد العباسي، وطمحت نفسه الفاضلة إلى إدراك الحكمة، وسمت نفسه الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة، ووقف العلماء في وقته على كتاب "المجسطي" وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة فيه، بعثه شرفه وحداه نبله على أن جمع علماء عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الآلات وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها بها كما صنعه "بطليموس" ومن كان قبله، ففعلوا ذلك وتولوا الرصد بها بمدينة الشماسية وبلاد دمشق من أرض الشام سنة ٢١٤ أربع وعشرين ومائتين".

بعد ذلك تعددت المراصد الفلكية وزادت بزيادة الفلكيين وتطورات علم الفلك، فأنشئ في بغداد عدد من المراصد منها مرصد "ابن الأعلم" سنة ٢٥٠هـ، ومرصد بني موسى القائم على قنطرة بغداد المؤدية إلى باب الطاق، والمرصد الشرقي المنسوب إلى شرف الدولة بن عضد الدولة البويهي، وقد بناه في حديقة قصره بدار المملكة ببغداد.

وفي بلاد الشام أنشأ البتاني مرصدًا وأنشأ ابن الشاطر مرصدًا آخر، وفي مصر أنشئ المرصد الحاكمي.

ومنذ القرن الرابع الهجري "العاشر الميلادي" بدأت أعمال المرصد الفلكي في الانتشار غربًا، وتحظى أرصاد ابن يونس (ت٣٩٩هـ/١٠٠٩م) في مصر بأهمية خاصة، ولا يبدو أنه عمل من خلال مؤسسة دائمة، فقد حصل على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نتائجه الممتازة بواسطة آلات محمولة. أما سلسلة الأرصاد التي قام بها "الزرقال" ومعاونوه لدراسة القمر والنجوم الثابتة فقد أجريت في طليطلة وقرطبة على مدى خمسة وعشرين عامًا.

على أن المرصد، باعتباره مؤسسة دامت لفترة طويلة من الزمن، وعمل بها فريق من الباحثين، يؤرخ له بالمرصد الذي أسسه ملكشاه (١٠٧١ - ١٠٩٢م) أصفهان، وأكمل فيه عمر الخيام وأعوانه أعمالاً فلكية مهمة.

أما أشهر المراصد الفلكية التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية فهو المرصد الذي أنشأه العالم والفيلسوف نصير الدين الطوسي ومعاونوه سنة ٦٥٧هجرية، ١٢٥٨ميلادية، في مراغة بأذربيجان، مستغلاً علاقته الجيدة بهولاكو المغولي (ت٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م) الذي كان محبًا للتنجيم والعلوم. وكان مرصد مراغة مؤلفًا من عدة بنايات تشكل قصر هولاكو ومسجدًا وخزانة كتب عظيمة ثرية فسيحة الأرجاء. وذكر الصفدي في "الوافي بالوفيات" عمن شاهد هذا المرصد: "سافرت إلى مراغة وتفرجت في هذا الرّصد "أي المرصد" ومتوليه صدر الدين علي بن الخواجا نصير الدين الطوسي، وكان شابًا فاضلاً في التنجيم (أي علم النجوم) والشعر بالفارسية، وصادفت شمس الدين الشرواني، والشيخ كمال الدين الأيكي، وحسام الدين الشامي، فرأيت فيه من آلات الرصد شيئًا كثيرًا، منها ذات الحلق وهي خمس دوائر متخذة من نحاس: الأولى دائرة نصف النهار وهي مركوزة على الأرض، ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل، ورأيت الدائرة الشمسية يعرف بها سمت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكواكب، وأصطرلابًا تكون سعة قطره ذراعاً، واصطرلابات كثيرة وكتبًا كثيرة".

وقد ألف مؤيد الدين العُرضي، أحد علماء مرصد مراغة، كتابًا شرح به الآلات المستخدمة في المرصد وسماه "في كيفية الأرصاد" وفيه الكثير من المعلومات القيمة عن أجهزة المرصد. والكتاب لا يزال مخطوطًا لم يقم بطبعه أو نشره أحد إلى الآن –على حد علمنا.

ويذكر المستشرق الفرنسي سيديو أن الطوسي أحدث ثقبًا في قبة المرصد تنفذ منه أشعة الشمس على وجه تعرف به درجات حركتها اليومية ودقائقها وارتفاعها في مختلف فصول السنة، وتعاقب الساعات، وهذا يعني تطبيقًا جديدًا للميل ذي الثقب الذي استعان به العرب منذ القرن العاشر الميلادي. ومن هذا الميل وذات الحلقة الكبرى التي تشابه آلة "تيكو براها" وأرباع الدائرة المتحركة والكرات السماوية والأرضية وأنواع الأسطرلابات تتألف مجموعة آلات مهمة استعان بها نصير الدين الطوسي".

وتسجل المراجع عددًا كبيرًا من الفريق العلمي الذي عمل في هذا المرصد، نذكر منهم:

- نصير الدين الطوسي، الرئيس والمشرف على مرصد مراغة.
- نجم الدين الكاتبي القزويني.
- ركن الدين الاسترابادي.
- الفخر الخلاطي من تبليس (عاصمة جورجيا السوفيتية الآن).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- مؤيد الدين العُرضي، من بلاد الشام.
- الفخر المراغي، من الموصل بالعراق.
- محيي الدين المغربي، مهندس وراصد.
- قطب الدين الشيرازي.
- شمس الدين الشيراواني.
- الشيخ كمال الدين الإيجي.
- حسام الدين الشامي.
- نجم الدين الأسطرلابي.
- صدر الدين على بن نصير الدين الطوسي.
- أصيل الدين بن نصر الدين الطوسي.
- نجم الدين على بن محمود الحكيم الكاتب البغدادي.
- قومنجي (تومة جي) الصيني الملقب (سينك سينك) العارف.
- ابن الغوطي، تولى إدارة خزانة مراغة.
- شمس الدين بن محيي الدين بن عربي.

لقد قدم هذا الفريق العلمي خدمات جليلة لعلم الفلك والأرصاد بما توصل إليه من نتائج مؤلفات، يقف في طليعتها "الزيج الإيلخاني" الذي كتبه الطوسي نفسه بالفارسية منسوبًا إلى الاسم الأصلي لهولاكو، وظل مرجعًا معتمدًا في الدراسات الفلكية الأوروبية حتى عهد قريب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتجدر الإشارة إلى أن مرصد مراغة هو المرصد الأول في العالم الإسلامي الذي استفاد من ريع الأوقاف، وهذا ما أثار -على ما يبدو- بعض الاحتجاجات لأنه لم يكن يشكل مؤسسة دينية أو خيرية، وهكذا فإن هذه المؤسسة العلمية، وبفضل هذه المخصصات، لم تكن لتتأثر بموت مؤسسها هولاكو، واستمر نشاطها حتى أوائل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد)، والدليل على ذلك أن أحد أبناء نصير الدين كان قد عين مديرًا للمرصد سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م. ولكن بعد ذلك بثلاثة عقود لم يرى منه سوى الأنقاض.. ومع ذلك فإن تلك الأنقاض كانت مؤثرة في نفس الفتى أولغ بك" عندما زارها وأوحت إليه بإنشاء مرصد مماثل في سمرقند في عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م على الأرجح، فهو نفسه رياضيّ وفلكي جدير بالاهتمام.

ومن بين رجال العلم الذي اشتهروا في سمرقند "قاضي زاده" الذي أدى دورًا مهمًا على المستوى التعليمي شهد به كاشان، حيث يروي أنه عندما أتى إلى سمرقند وكان المرصد في طور البناء، وجد جميع الأجهزة المصنّعة لهذا المرصد قائمة على تصور خاطئ، الأمر الذي اضطره إلى صنع غيرها برعاية من أولغ بك، وقاضي زاده. وقد وضع موت أولغ بك سنة ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م حدًا لنشاط المرصد، واكتشفت آثاره سنة ١٩٠٨م على رابية في الضواحي الشمالية الشرقية للمدينة على يد عالم الآثار الروسي ف. ل.. فياتكين. وبعد الحرب العالمية الثانية جاءت حملة تنقيب ثانية حصلت على نتائج مثيرة للاهتمام، وقد نشرت بالروسية تحت رعاية أكاديمية العلوم الأوزبكية، وأفضت إلى ترميم ما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تبقى، وهو بشكل أساسي جزء من مزولة كبيرة تستعمل في تحديد ارتفاع الشمس بواسطة طول الظل. وتدل الآثار على أن المكان كان يحتوي على تمثيل للكرات السماوية وخرائط ولوحات جدارية.

وهناك مرصد آخر أسسه تقي الدين بن معروف في استنبول عام ١٥٧٥م، ويعتبر من المؤسسات العلمية الضخمة في فترة ما قبل العصر الحديث، على غرار مرصديْ مراغة وسمرقند، ولكنه دمر عام ١٥٨٠م.

نعم، لقد كانت المراصد الفلكية في العصر الإسلامي قليلة العدد كمؤسسات متخصصة مثل مرصدي مراغة وسمرقند، ولكنها قدمت دليلاً واضحًا على نضج المنهج العلمي الذي اتبعه المسلمون، وأكدت سبقهم إلى الأخذ بعمل الفريق كنموذج رائد لممارسة البحث العلمي السليم، وربما كان السبب في قلة عدد هذه المراصد كمؤسسات علمية أنها لم تحظ برعاية دائمة كمؤسسات خيرية أو دينية، بخلاف بقية المؤسسات العلمية والثقافية الأخرى كالمكتبات والمدارس والمستشفيات والجوامع، التي كانت الأوقاف تؤمن لها ما يساعدها على البقاء لفترات طويلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣ - المكتبات

يعد الكتاب –بما يحويه من علم- من أهم الأسس التي تقوم عليها أي نهضة علمية أو فكرية. وإذا كان القرآن الكريم.. ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه.. قد بدأه الوحي الأمين بهذه الآيات الباهرات التي تأمر مرتين بالقراءة، وتذكر مادة العلم، وتتضمن ذكر القلم باعتباره أداة للتدوين. وذلك في قوله تعالى: **[**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**]** (العلق: ١-٥)، فإن الوحي في المرة الثانية بدأ الآيات بحرف من حروف الهجاء، وتضمنت القسم بالقلم وما يسطر بالقلم، فكان هذا أول قسم إلهي في القرآن الكريم. قال تعالى: **[**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**]** (القلم: ١).

صناعة الكتاب:

اهتم المسلمون بالكتاب والمكتبات لنشر العلم والمعرفة، وحرصوا على اقتناء كل ما يقع تحت أيديهم من كتب، يتساوى في ذلك العلماء وكثير من العامة. وكان للحكام جهد بارز في تشجيع التأليف والعمل على نشر الكتب بنسخها وإيداعها في المكتبات، ولهذا ازدهرت الوراقة وكثر الوراقون والنساخ الذين كانوا يحصلون من وراء عملهم على أرباح مجزية، وتعتمد هذه الأرباح على أهمية موضوع الكتاب ومدى جدته وجودة خطه. ولما كان للناسخ دور كبير في نشر الكتاب، فقد كان عليه أن يتحرى الدقة، ويبعد عن التصحيف، مع وضوح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخط، والحرص على مقابلة ما ينسخه بالأصل. وقد قال محمد بن إبراهيم اللخمي الإشبيلي (ت: ٦٣٩هـ) ناصحًا النساخ:

فلا تكتب يمينُك غير خطٍّ * * * بهيٍّ بيِّن صحّت يمينُك

ولا تكتب بها خطًا دقيقًا * * * فأحوج ما تكون له يخونك

أي ربما –عند حاجتك له- قد مسح بفعل الزمن أو ما يقع عليه من الغبار أو الرطوبة، وقد يكون مقصوده أنه عند تقدم العمر وضعف البصر- لا يستطيع قراءة ما كتب بهذا الخط الدقيق.

وكان العلماء وطلبة العلم ينسخون الكتب بأنفسهم لضمان انتشار الكتاب الخالي من الأخطاء أو التصحيف، لأن الناسخ إذا كان عالمًا بما يكتب، فإن ذلك سيجنبه ما يقع فيه النساخ عادة من أخطاء تقلل الاستفادة من الكتاب. وقد كان الحسن بن الهيثم –على سبيل المثال- يعيش في آخر حياته على ما كان يكسبه من بيع الكتب العلمية التي ينسخها، لأنه كان لا يأكل إلا من عمل يده.

وتأتي بعد النسخ عملية أخرى، وهي التسفير أو التجليد، وهو بمثابة الإخراج النهائي للكتاب، والغرض منه حفظ الكتاب وصيانته ضد عوامل التلف، كما أن من شان التجليد أن يضفي جمالاً على الكتاب، إذ لم يقتصر عمل المُجلِّد أو المُسفِّر على مجرد كسوة الكتاب بالجلد لحفظه، بل يقوم بزخرفته وتلوينه وتذهيبه مما يجعله قطعة فنية. أيضًا، يسّهل التجليد عملية نقل الكتاب واستعماله وتداوله. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصناعة أصبحت علمًا له أصوله وقواعده، وقد ألف فيه بكر الإشبيلي (ت: ٦٢٩هـ) كتابًا أسماه "التيسير في صناعة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التسفير"، ضمنه خبراته التي استفادها من خلال عمله الطويل في هذه المهنة، وباستعراض أبواب وفصول هذا الكتاب نجده لم يترك شاردة ولا واردة تتعلق بالتسفير إلا وتحدث عنها حديث من أمضى عمره في هذه الصناعة، فيضم الكتاب عشرين بابًا: أولها باب الأدوات التي تستعمل في التسفير، وآخرها باب العيوب في التسفير.

وكانت حوانيت الوراقين –بالإضافة إلى دورها في إنتاج الكتب ونشرها- منتديات فكرية وأدبية، فكثيرًا ما تدور المحاورات العلمية والأدبية بين المترددين على تلك الحوانيت.

وبصورة عامة ينسب إلى النساخ والوراقين والعلماء خلال القرنين الأولين من تاريخ الإسلام (القرنين السابع والثامن الميلاديين) فضل الحرص على حفظ ونسخ نصوص أهم الكتب في العالم الإسلامي، ونعني بها القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد نهضوا بهذه المهمة بجد ومثابرة، وبدرجة من الدقة جنبتهم كثيرًا من المشكلات التي اكتنفت حفظ ونقل معظم الكتب الأخرى الدينية والدنيوية خلال الانتقال من عصر المخطوطات إلى عصر المطبوعات.

ونذكر في هذا المجال أن استيراد الطريقة الصينية لصناعة الورق وتطويرها وانتشارها في العواصم الإسلامية الكبرى خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين (الثامن والتاسع الميلاديين) ساعد كثيرًا على ازدهار عمل الناسخين الذين توافرت لهم منذ ذلك الوقت مادة خفيفة. وصلبة، وأقل كلفة من البردي والرق، فانتشرت تجارة النسخ بفضل تهافت الطبقات المثقفة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للحصول على الكتب الجميلة، وازداد عدد النساخ في المكتبات الخاصة والعامة. وقد روي أنه كان بمكتبة "بني عـامر" بطـرابلس الشـام مائـة وثمانـون ناسـخًا يتبادلون العمل ليلاً ونهـارًا بحيـث لا ينقطـع النسـخ، ولا يقـل الـذين يـؤدون عملهم فعلاً عن ثلاثين ناسخًا في أية ساعة من ساعات النهار والليل.

المكتبات العامة والخاصة:

من بين عوامل ازدهار النهضة العلمية في العصر ـ الإسـلامي نـذكر تلـك المكتبات التي شاعت في أيام بني العباس، وكان الخلفـاء والأمـراء يتسـابقون في إقامتها وتزويدها بكل ما تنتجه قرائح العلماء في مختلف فروع المعرفـة. وحسـبنا أن نعلم أن مكتبة العزيز بالله الفاطمي بالقاهرة كانت تضم مليونًا وستمائة ألـف مجلد مفهرسة ومنظمة، وأن دار الحكمة في القاهرة ضمت مائة ألف مجلـد، منهـا ستة آلاف مخطوط في الرياضـيات والفلـك، وأن دار الكتـب في قرطبـة ضـمت أربعمائة ألف مجلد تقع فهارسها في أربع وأربعين كراسة. كذلك كان يلحق بكـل جامع مكتبة كبيرة يؤمها الناس من كل حدب وصوب.

وقد كانت هذه المكتبات بمثابة مراكز للبحـث العلمـي ومجـالس لتبـادل العلوم والمعـارف. ففـي مكتبـة دار الحكمـة اسـتقر علـماء ومقرئـون ولغويـون ومؤلفو معاجم وأطباء وفلكيون، وفيها كان أساتذة يعلمون وباحثون يجتمعون. وقد أنشأ الخليفة "الوقف"، وهو عبارة عن عقارات مـن الأراضي في الفسـطاط يخصص ريعها لحساب عدد من الجوامع ودار الحكمة. وكان أكثر من عُشر هـذا الريع بقليل مخصصًا لهذه الدار لدفع رواتب كل من المسئول الإداري "الحـافظ"

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والناسخين والخدم، ولتأمين إصلاح الكتب، ولتزويد القراء بالحبر والورق والأقلام، ولشراء السجاد والأبسطة. إن هذه الميزانية المخصصة بأكملها للمكتبة، لا يدخل في حسابها مصاريف أخرى كتعويضات العلماء المرتبطين بالمؤسسة ونفقات التعليم. وقد ازدهرت هذه المؤسسات بفضل المخصصات الكبيرة من الوقف.

وكان للمؤسسات الشبيهة بدار الحكمة الدور نفسه في كل من الموصل، والبصرة، وحلب، وطرابلس، وبغداد، فقد كانت جميعها تؤمِّن حفظ المخطوطات ونسخها، كما كانت في الوقت نفسه مراكز للتعليم ونشر العلوم والأفكار، وقاعات للاجتماعات والمناقشات، وأحيانًا مأوى للعلماء والطلاب. وكان يتولى أمور هذه المكتبات علماء مميزون، مثل سهل بن هارون وكان أمينًا لبيت الحكمة، وعلى بن يحيي المنجم وكان أمينًا لمكتبة الفتح بن خاقان، وعلى بن محمد الشابشتي وكان أمينًا لدار الحكمة بالقاهرة، وابن مسكويه وكان أمينًا لمكتبة ابن العميد.

من ناحية أخرى، انتشرت المكتبات الخاصة في المجتمع الإسلامي بطريقة لم يسبق لها مثيل، ويذكر بعض المستشرقين أن متوسط ما كانت تحتويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) كان أكثر مما تحتويه مكتبات الغرب مجتمعة. وهذا يعكس الحال الذي كانت تعيشه أوروبا في العصور الوسطى ويوضح مدى تخلفها عن العالم الإسلامي، ويؤكد ما جاهر به المؤرخون عن انغماسها في ظلمات الجهل والسحر والخرافة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويصف ابن أبي أصيبعة مكتبة الطبيب ابن المطران الغنية بأكثر من ثلاثة آلاف مجلد، وكان يشتغل فيها لحسابه ثلاثة ناسخين دائمين، كما أن ابن المطران نسخ بنفسه عددًا من الكتب، وعند موته سنة ٥١٧هـ/ ١١٩١م بيعت مجموعته الفريدة هذه إلى عمران، وهو طبيب آخر مولع بالمكتبات.

وأنشأ علي بن يحيي المنجم (ت: ٢٧٥هـ/ ٨٨٦م) مكتبة كبيرة في قصره في ضواحي بغداد، ويروي ياقوت الحموي أن أبا معشر الفلكي المشهور توقف فيها عندما كان في طريقه إلى مكة للحج، فشغف بما تحتويه من الكتب، مما جعله يعكف عن الحج ليتفرغ للإطلاع على كتب علم الفلك، ويعيب الراوي بطريقة غير مباشرة أبا معشر لقلة إيمانه!!.

وكان لمحمد بن أحمد بن عبد الرحمن العبيدي المعروف بابن البناء الأشبيلي (ت: ٦٤٦هـ) مكتبة عامرة، وكان حسن الخط متقن التقييد، ومن المولعين بجمع الكتب، فكان ينسخ كل ما يقع تحت يده من أمهات الكتب ويودعها مكتبته. وقد اتسعت هذه المكتبة وضمت أعدادًا كبيرة من الكتب حتى ليقال إنه عندما خرج من إشبيلية أخرج معه نحوًا من خمسمائة مجلد كلها بخط يده.

ومن طريف ما يروى في حب المسلمين للعلم والمعرفة وحرصهم على جمع الكتب في مكتباتهم الخاصة قول محمد بن عبد الملك بن سعيد (ت: ٥٨٩هـ) عن عبد الله بن يحيي الحضرمي (ت: ٥٧٨هـ): "أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي، فأراني شخصًا عليه لباس رياسة فدنوت منه، وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه أن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغتْ به الزيادة بيننا فوق حدّه، فقال لي: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد، استحسنته...الخ".

وهذه القصة الطريفة لا تخلو من معلومات قيمة، فهي تشير إلى وجود سوق خاص بالكتب في كل مدينة أندلسية، كما نجد فيها ما يدلنا على حرص العلماء على الكتب وشغفهم بها، فالحضرمي بلغ به الفرح غايته لأنه وجد كتابًا يحتاجه، قضى مدة في البحث عنه وكأنه يبحث عن ضالة، ولكنه لضيق ذات اليد لم يظفر به، وفاز به من لديه مال، ولكنه لا يعرف القيمة العلمية لهذا الكتاب، وانصرف الحضرمي حزينًا، وكأنه فقد عزيزًا لديه.

ويرتبط شغف العلماء بجمع الكتب ارتباطًا وثيقًا بحرصهم على بلوغ الحكمة وإدراك الحقيقة، مهما كلفهم ذلك من مشقة، فقد أخذ حنين بن إسحق العالم الطبيب يبحث عن كتاب "البرهان" لجالينوس في أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر حتى ظفر بما يقرب من نصفه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقضى أبو الريحان البيروني، عبقري الحضارة الإسلامية، في تباريح الشوق أكثر من أربعين سنة يبحث عن نسخة من كتاب ماني "سفر الأسفار"، وذلك لتوخي الحقيقة فيما رواه أبو بكر الرازي عن "ماني".

ومهما يكن من أمر، فإن شغف المسلمين بالكتب وحرصهم على اقتنائها، كان جزءًا من اهتمام المسئولين في الدولة الإسلامية بإنشاء المكتبات العامة لتكون ضمن منظومة المؤسسات العلمية التي أثمرت الحضارة الإسلامية الزاهرة وبقدر ما أسهمت هذه المكتبات الكبيرة خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر ـ للميلاد في إزكاء النهضة الحضارية للأمة الإسلامية، نجدها قد تعرضت بعد ذلك للمصادرات والتدمير في عصور التفكك والتراجع والانحطاط.. فلله الأمر من قبل ومن بعد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤ - المدارس التعليمية

اهتم المسلمون اهتمامًا كبيرًا بالتعليم والتربية، وكانت المدرسة إحدى المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية التي تميز بها المجتمع الإسلامي الأول. ويبدو أن "التعليم الابتدائي" بدأ منذ عهد النبي محمد r ، الذي كان يطلق الأسْرى في مقابل أن يعلموا أولاد المسلمين. وفي عهد عمر بن الخطاب بُدئ في تنظيم تعليم الطلاب الصبيان، فنسمع عن "الكتّاب"، وقد انتشر هذا التعليم بعد ذلك وظهرت كلمات عديدة تدل عليه ولاسيما في عهد العباسيين؛ فنسمع عن "مكاتب الصبيان". ومن يقوم بالتعليم فيها من مؤدِّبين (أو معلمين). وتذكر المراجع أن أحد مؤدبي الصبيان كان عنده تسعمائة، وآخر كان عنده ثلاثة آلاف. ولعل التهذيب الخلقي كان أهم جانب من التعليم في هذه المرحلة المبكرة من العمر، ولذا فإن مكان الدرس كان يسمى "مجلس الأدب"، مثلما كان المدرس يسمى "مؤدبًا". وكانت الدولة تشرف على هذه المجالس عن طريق المحتسب الذي كان من عمله أن ينذر المعلمين بألا يضربوا الصبيان ضربًا مبرحًا. وكانت مقررات التعليم الابتدائي أساسها التربية الدينية وعلوم الخط والحساب. وقد وضع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بنفسه برامج الدراسة لأبنائه، فقال لمعلمهم: "وعلمهم كتاب الله عز وجل حتى يحفظوه، وقفهم على ما بيّن الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه، وخذهم من الأخلاق بأحسنها، ومن الآداب بأجمعها، وروّهم من الشعر أعفّه، ومن الحديث أصدقه،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجنّبهم محادثة النساء، ومجالسة الأظناء، ومخالطة السفهاء، وخوّفهم بي، ولا تخرجهم من علم حتى يفهموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم".

وظهر في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) نوع من التعليم المتوسط متمثلاً في شكل "المدرسة النظامية" التي أنشأها الوزير نظام الملك (ت: ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م) في عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م، وأنشأ المستنصر العباسي "المدرسة المستنصرية" في عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م، وقد كانت أشبه بمدينة فيها أربعة أروقة، كل منها يختص بمذهب خاص من مذاهب السنة، وكان عدد طلابها ثلاثمائة موزعين على الأروقة يتلقون العلم داخليًا وبالمجان، ويعطى الطالب إعانة مالية. وافتتح الحكم الثاني حوالي عام ٩٦٥م في قرطبة سبعًا وعشرين مدرسة لأبناء الفقراء، بالإضافة إلى المدارس الثماني التي كانت فيها فعلاً. وفي القاهرة أنشأ المنصور قلاوون مدرسة لليتامى ملحقة بالمستشفى المنصوري، ومنح كل طفل فيها، يوميًا، رطلاً من الخبز، وثوبًا للشتاء وآخر للصيف.

وقد ازداد عدد المدارس في بلاد الإسلام إلى حد كبير، واستمر بناؤها طوال فترة عصر صدر الإسلام المزدهر، وفي جميع دوله، ينشئها القادرون من الأفراد، بالإضافة إلى الملوك والأمراء، ويبدو أن بناء المدرسة المثالي كان يتكون من صحن (فناء) وإيوانات تحيط به عليها القباب، كما كانت تلحق به مكتبة، ففي إحدى مدارس مصر في أيام المماليك، ألحقت مكتبة بها مائة ألف مجلد. وتصف المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغرب" جانبًا من الحياة التعليمية في الدولة الإسلامية، فتقول: "كان الطلبة يتناولون طعامهم مجانًا، ويتقاضون مرتبًا صغيرًا، ويسكنون في الأدوار العليا في المدرسة، دون مقابل، أما في المهاجع، فثمة المطبخ والمخازن والحمامات، وفي الطبقة (الطابق) الأرضية تلتف الفصول وقاعات المكتبة على شكل دائري خلف ممرات مظللّة تزينها الأعمدة، وفي الوسط فناء فسيح تتوسطه نافورة ماء. هنا يتعلم شباب العرب الطموح القرآن وقواعد اللغة والديانة والخطابة والأدب والتاريخ والجغرافية والمنطق والفلك والرياضة، ويساهم الطلاب في المناقشات والمناظرات، ويعيد معهم دروسهم مساعدون (أي معيدون) من طلبة الصفوف المتقدمة أو من الخريجين. وتبدو هذه المدارس كخلايا النحل الدائبة النشاط، تخرج للجميع شهدًا حلوًا فيه شفاء للناس، ولتقدم قادة للعلم والسياسة".

ويتضح من هذا النص أن دور "المعيد" –مثلما هو في عصرنا- أن يعيد على الطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه.

أما الطريق الذي يسلكه الراغب في تعلم فرع معين من العلوم، والذي يرغب الطالب أن يقوم هو بتدريسه يومًا من الأيام، أو العمل في مجاله بعد إجازته، فكان يبدأ في المساجد؛ فلم تكن المساجد مجرد أماكن لأداء الصلوات فحسب، بل كانت جامعات للعلوم والمعارف. وحول أعمدة هذا النوع من التعليم العالي كان يجلس الأستاذ ويلتف حوله طلابه ومريدوه في شكل حلقة أبوابها مفتوحة لمن يشاء، رجلاً كان أو إمرأة، ولكل الحق في سؤال الأستاذ أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معارضته. وكان هذا النظام أفضل دافع للأساتذة والطلاب على حد سواء، لكي يحرصوا على إتقان الدرس والتعمق فيه، كما كان يحمي تلك المجالس من أن يتسرب إلى التدريس فيها مدّعو العلم ومن لم تكتمل ثقافتهم. وكانت حلقات العلم في الجامع الأزهر مثلاً تتعدد حتى تزيد على الأربعين حلقة.

وحول أعمدة المساجد أتيحت للطلاب دائماً فرصة التعلم والاستماع إلى الأساتذة الزائرين من كل أنحاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف. كما كان المتعلمون يحرصون خلال رحلات الحج على زيارة مراكز الثقافة الإسلامية الواقعة على مقربة من طريقهم إلى مكة المكرمة، فيستمعون لكبار الأساتذة في القاهرة أو دمشق أو بغداد أو القيروان. ويفرز هذا التلاقي الثقافي على أيدي هؤلاء المعلمين والمتعلمين أفكارًا علمية تنتشر في كل البقاع. وهنا تلفت "هونكه" الانتباه إلى جانب أخلاقي بالغ الأهمية، تظهر من خلاله قيمة الأمانة العلمية في نقل مثل تلك الأفكار ونسبتها إلى أصحابها، فلم يكن المسلم يحرق فمه بأفكار سرقها من غيره، وكان مألوفًا مثلاً أن نسمع من أستاذ علامة قوله: "أخبرني يحيي بن عيسى أنه سمع من أبي بكر البغدادي كيف شرح سعيد بن ياقوت في إحدى محاضراته أن...".

ولم يكن لأحد أن يأخذ آراء أستاذه التي ألقاها شفويًا في إحدى محاضراته ليدرسها لتلاميذه دون أن يستأذن أستاذه صاحب الرأي نفسه. وبذلك كان حفظ حق المؤلف –بلغة العصر- مرعيًا مقدسًا، ورثته الجامعات الغربية عن المدارس العليا والجوامع الإسلامية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن المدارس العليا الشهيرة في العالم الإسلامي، بالإضافة إلى المساجد الجامعة، المدرسة الرشيدية والأمينية والطرخانية والشريفية في سوريا، والناصرية والصلاحية في مصر، ولم تخل مدينة هامة من مدرسة نظامية أو أكثر، كالإسكندرية ونيسابور وسمرقند وأصفهان ومرو وبلخ وحلب وغزنة ولاهور وغيرها. كما ظهرت في أسبانيا معاهد كثير للدراسات العالية، ومن أشهر الجامعات الأسبانية جامعات قرطبة وأشبيلة ومالقة وغرناطة، وإلى جامعات أسبانيا هذه كان يفد الطلاب الأوربيون للتعلم والدراسة.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى الاهتمام بتعليم النساء المسلمات، وإن وجدنا أول نداء لتعليمهن من قبل المبعوث معلمًا r ، حيث اعتبرت زوجته عائشة رضي الله عنها حجة في الدين الإسلامي. وقد وجدنا نساء شاعرات وأديبات وقابلات، كما كان النساء يحضرن مجالس الوعاظ وتكون بينهن وبين الرجال ستارة.

واهتم علماء المسلمين بالتربية والتعليم في مختلف مراحل العمر، وخصصوا كتبًا لذلك، فألف حجة الإسلام الغزالي –على سبيل المثال- كتاب "إحياء علوم الدين" الذي بين فيه أن عملية التربية تتعاون فيها طبيعة المتعلم وبيئته، وأن دراسة المعلم لنفسية تلاميذه تكون بقصد إيجاد الصلة الروحية بين المعلم وتلميذه دون أن يرفع الكلفة حتى لا يفسد خلقه، وأن يبتعد به عن التدليل، ويعوده الخشونة حتى لا يغلب عليه الكسل. وينبغي أن يعوّد الأخلاق الكريمة، فيقوم لمن فوقه، ويعوّد ألا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويربأ الغزالي بالمعلم الإسلامي أن يطلب الأجر لقاء التعليم –على غرار ما يعرف اليوم بالدروس الخصوصية- فإن من يقبل من المعلمين المال لا يجد الاحترام الكافي، ويشير إلى ذلك بقوله: "إن من طلب العلم بالمال، كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه، فجعل المخدوم خادمًا والخادم مخدومًا". فكان المعلم يحصل غالبًا على المال عن طريق الهبات؛ كما نظم أجر المدرس في عهد الأيوبيين والمماليك، وبلغ في أيام صلاح الدين أربعين دينارًا للمدرس وعشرين دينارًا للمعيد، وكل يوم له ستون رطلاً من العيش، هذا غير كعك ولحم في عيدي الفطر والأضحى.

وربما نجد في المستشفيات الإسلامية خير نموذج لتدريس العلوم التخصصية، فقد كانت بمثابة مدارس عالية للطب، وكان الطلاب يتلقون فيها كل ما قاله أبوقراط وجالينوس، وما جاء به أساتذتهم المسلمون أنفسهم الذين اتبعوا في تدريس الطب طريقة عملية تفرض على الطلاب أن يحتكوا بالمرضى ليقابلوا بين ما تعلموه نظريًا وما يشاهدونه عمليًا. وكان المبدأ الأساسي المعمول به في امتحانات التخصص هو الاهتمام بحقل معلوم لدرجة الاتقان، ويدل على ذلك صيغة الشهادة التي حصل عليها أحد الأطباء المختص بالجراحة الصغيرة: "بسم الله الرحمن الرحيم.. بإذن الله الباري العظيم نسمح له بممارسة فن الجراحة لما يعلمه حق العلم ويتقنه حق الإتقان حتى يبقى ناجحًا وموفقًا في علمه، وبناء على ذلك فإن بإمكانه معالجة الجروحات حتى تشفى، وبفتح الشرايين، واستئصال البواسير، وقلع الأسنان، وتخييط الجروح وتطهير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأطفال.. وعليه أيضًا أن يتشاور دومًا مع رؤسائه ويأخذ النصح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم".

هذه هي بعض المؤسسات العلمية التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية، وكانت سببًا في رقي العلوم وانتشارها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهم المراجع

١ - د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.

٢ - د. أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي، دراسات تأصيلية، دار الهداية، القاهرة ١٩٩٧م.

٣ - د. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨م.

٤ - زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، دار الأفاق الجديدة، بيروت ١٩٨١م.

٥ - م. شريف، الفكر الإسلامي منابعه وآثاره، ترجمة د. احمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٦م.

٦ - جورج عطية (تحرير)، الكتاب في العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الستار الحلوجي، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٣م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسات البينية في العالم الإسلامي

أ. د. ناديه محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية – جامعة القاهرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقديم

أ.د. رفعت العوضي

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.. بين أيدي القارئ الورقة الرابعة في مشروع "المؤسسية" بعنوان "**المؤسسات البينية في العالم الإسلامي**" للأستاذة الدكتورة / ناديه مصطفى وهى من هي فهي تمثل نصف الأمة وليس هذا من قبيل المبالغة فهي قدوة وعلم ويعجبني وصف "العالم العامل" وقد عهدنا كثير من الرجال العاملين إنما إن تكون أخت فاضلة من طبقة العلماء العاملين فهذا ما يسعد الأمة لكونها قدوة لغيرها إن شاء الله.. نحن نعلم أن هذا الكتاب كله مخصص للمؤسسة وهناك ثلاث مصطلحات معن: المؤسسية والتقدم والحرية. وهذه تنتشر على دائرة وليس خط مستقيم بحيث نعرف أين تبدأ هذه الدائرة وأين تنتهي، فأمة فيها مؤسسية فيها حرية، وأمة تتمتع بالمؤسسية والحرية فهي متقدمة، والأمة التي تنعم بالتقدم هي تلك التي بها مؤسسية وحرية، فهذه هي المنظومة التي جعلتنا نهتم بموضوع المؤسسية ليكون اهتمام الموسم الثقافي، لنقدم للأمة شيئًا.

وانأ أقدم الأستاذة الدكتورة نادية أقول مما أعجب له كيف تسكن الفردية والاستبداد في أمة عندها أركان الإسلام الخمس، وانأ أريد أن تقرأوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الأركان الخمسة من مدخل المؤسسية البينية للأمة وأنتم تـدركون كيـف أن هذه الأركان الخمسة تبني الأمة على المؤسسية البينية الكبرى.

وقد تكون الصلاة مؤسسية معنوية، لكن الزكاة ليست كذلك فهي مؤسسـية بينية للأمة وإذا لم تستوعب الأمة المؤسسية البينية للزكاة، فتكون الأمة في خطـر كبير.

فيما يتعلق بالصوم.. أنا أقول دائما أن وحدة المصـالح في صـوم رمضـان هو مؤسسية بينية للأمة، أما الحج فاعتقد أن المؤسسية البينية ظاهرة فيـه ظهـورًا واضحًا.

انظر إلى المؤسسية البينية في قوله لا الـه إلا الله محمـد رسـول الله التـي يقولهـا المسلمون في كافة إرجاء الأرض، أنا دائمًا أقول أن الصلاة التي تـؤدى في تـأطير مؤسسي أفضل من تلك التي لا تؤدى في تأطير مؤسسي بـ سبعة عشـرين درجـه فالجماعة في الصلاة تأطير مؤسسي، كذلك الصوم فالأمة كلهـا تصـوم في وقـت واحد أي وفق تأطير مؤسسي وكذلك الحـج وأنـا أعجـب كيـف لأمـة مـؤطرة مؤسسيا بالمعنى المعاصر للأمة تعشش فيها الفردية بهذه الصورة وأتمنى أن تعـود إلى المؤسسية وأترك تبيان ذلك للأستاذة الدكتورة / نادية.. وشكرا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسات البينية في العالم الإسلامي

أ. د ناديه محمود مصطفى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. السلام عليكم ورحمه الله وبركاته أشكر مركز الدراسات المعرفية على اختيار هذا الموضوع كمادة لكتاب يصدر عن المؤسسية وهو أمر طيب أن يكون هناك موضوع يحدث فيه تراكم عن المؤسسات بصفة عامة ومؤسسات الأمة بصفة خاصة.

عنوان الورقة "المؤسسات البينية في العالم الإسلامي" وقد اقترح دكتور / سيف عنوانًا فرعيًا "من الفاعلية للتفعيل" وهذا ما أشار إليه كلام د. رفعت في البداية أنه إذا كان لدينا مؤسسات فهل لها فاعلية؟ وإذا لم يمن لها فاعليه فكيف يمكن تحقيق مزيد من التفعيل لصالح الأمة؟ في الواقع أن هذا الموضوع يمكن أن يقترب منه بطريقة تقليدية جداً وذلك باختيار أهم مؤسسة بينية للعالم الإسلامي أو تجمع بين الدول الإسلامية وهى "منظمة المؤتمر الإسلامي"[1]

(١) ظهرت فكرة تشكيل منظمة المؤتمر الإسلامي لأول مرة عام ١٩٦٥ تحت اسم الحلف الإسلامي هو حلف دعى إليه الملك فيصل بن عبد العزيز، عام ١٩٦٥، ولم يوافق على الانضمام إليه سوى إيران الشاه والأردن، فقد رؤي على أنه محاولة لتوسيع حلف بغداد الموالي للغرب، ضد المد الثوري في العالم العربي، في خضم الحرب الباردة ضد المعسكر الشيوعي. بالرغم من عدم قيام الحلف، إلا أن نكسة ١٩٦٧ ثم حريق المسجد الأقصى، عام ١٩٦٩، أديا إلى قيام نسخة من ذلك الحلف تحت اسم منظمة العالم الإسلامي عام ١٩٧٠. http://www.marefa.org

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأتحدث عنها، ولكنى أحسست أنني لست راغبة في هـذا الأمـر عـلى الإطـلاق لسـببين: الأول أننـي لسـت أسـتاذة تنظـيم دولي بـل أسـتاذة علاقـات دوليـة وأحسست أن موضوع المؤسسات البينية للعالم الإسلامي أكبر وأوسع بكثير من مجرد منظمة المؤتمر الإسلامي، ولذا فأن مدخلي أكثر اتساعاً مما قد يبـدو في ذهـن البعض من عنوان الورقة.

ولذا سأبدأ خطوة بخطوة في بعض الأفكار معكـم تـتلخص في محاولـة لأن نعرف:

أولاً: أهمية المدخل المؤسسي لدراسة العالم الإسـلامي وأوضـاعه في النظـام الدولي.

ثانياً: ننتقل معكم مجموعه ما اسميه ملاحظات منهجية تنظم التفكير في هذا الموضوع وتحدد القضايا والإشكاليات التي تثور على صعيده.

ثالثًا: ثم ننتقل إلى رسم خريطة المؤسسات البينيـة في العـالم الإسـلامي عـلى اعتبار أني لا أنظر لمنظمة المؤتمر الإسلامي كالمنظمـة الوحيـدة المعـبرة عـن هـذه المؤسسات، ثم أبحث في الإشكاليات والعقبات والتحديات التي تواجـه أنـماط المؤسسات البينية، وأصل في النهاية إلى بعض التصورات عـن ملامـح للتفعيـل على ضوء المشاكل والعقبات أخذة في الاعتبار أمر هام كيف يمكن أن ننتقل مـن الفكر إلى الحركة والممارسة للتفعيـل؟ هـذه باختصـار عنـاصر الموضـوع الـذي سأتكلم فيه، وأابدأ على النحو التالي:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مداخل متعددة لدراسة الأمة الإسلامية:

كما قلت هناك مداخل متعددة لدراسة العالم الإسلامي أو الأمة ـ وهناك فارق بين العالم الإسلامي والأمة ـ منها المدخل المؤسسي. وأتساءل لماذا هناك أهمية للمدخل المؤسسي؟ ولماذا يتزايد المدخل المؤسسي كمدخل لدراسة أوضاع العالم الإسلامي في حد ذاتها، وكجزء من أوضاع العالم؟

أنا أعتبر أن هذا ناتج عن التعقد المتزايد في الأوضاع العالمية التي تمس العالم الإسلامي في حد ذاته أو التي تتصل بالعالم كله والعالم الإسلامي جزء منه، تتصل أيضاً بالمنافسة التي أضحت بلا حدود على صعيد العالم في ظل العولمة، كل هذه الأمور التي تمثل خصائص متصاعدة للعالم الذي نعيش فيه نحن كأمة وكعالم إسلامي تجعل الاستجابة للتحديات التي تواجهها أي مجموعة -ليس العالم الإسلامي- فحسب، بل الأمة الأوربية الأمريكية... أياً كانت تسميتها أو معايير تصنيفها تحتاج لتستجيب للتحديات التي تواجهها وهي توجد في العالم وتتأثر وتؤثر فيه، ليس فقط لدقة تشخيص مشاكلها واحتياجاتها، أو إلى دقة المقترحات حول ما يجب أن يفعل، ولكن المطلوب وبصفة أساسية - وهذا ما يميز الغير عنا - دقة وفاعلية الإدارة وهنا يأتي معنى المؤسسية بالمفهوم العملياتي ليتحقق الاستمرار والتراكم وليتحقق الانجاز والفاعلية وليحدث تحول نوعي في الوضع، فهذا هو دور المؤسسات المتزايد الأهمية ويزداد الأمر أهمية أكثر بالنسبة لمجموعات الدول الأقل حظاً في التقدم على صعيد العالم مقارنة بغيرها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولو فكرنا جيداً في أسباب التراجع أو الفشل أو عدم الانجاز بالنسبة للعالم الإسلامي في المراحل السابقة التي شهدت الحديث منذ أكثر من قرنين عن النهضة أو الإصلاح أو التجديد أو اليقظة - أياً كان المسمى - فاعتقد وليس هذا اعتقاد شخصي وإنما اعتقاد ناتج عن آراء مفكرين وعلماء متميزين في البحث في أسباب عدم النهوض للأمة الإسلامية بعد أن بدت عملية إصلاحها وتجديدها، يرجع إلى العامل المؤسسي، وبالتالي كما سبق القول أنني لا أقترب من الموضوع اقتراب جزئي يختص بمنظمة المؤتمر الإسلامي، ولكنني أقترب اقتراباً واسعًا يقوم على العناصر أو الملاحظات المنهجية التالية:

١. نمط المؤسسات التي نتحدث عنها مؤسسات الأمة آم مؤسسات في الأمة آم مؤسسات للأمة فهناك فروق بين كل منها على النحو التالي - مؤسسات الأمة هي المؤسسات الأصيلة في الأمة أي مؤسسات خاصة بالأمة بأصولها، بتراثها، بتقاليدها وتاريخها كمؤسسات الحسبة والوقف، مؤسسات في الأمة هي المؤسسات القائمة ألان في الأمة والتي جزء منها هي تلك الأصلية وجزء أخر منقول أو مأخوذ عن تجارب أخرى، أو مؤسسات للأمة، مؤسسات يراد أن تكون لدى الأمة في وضعها الراهن، فهناك اختلاف في الثلاث تعريفات، هل نحن نتحدث عن استعادة ما كان كما هو؟ طبعا هذا لا يصلح شكلاً ولا من حيث المبادئ.

٢. هل نحن نتكلم عن مؤسسات الأمة أم عن مؤسسات العالم الإسلامي؟ فهناك فارق كبير بينهما فالعالم الإسلامي هو هذه الحقيقة الجغرافية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإستراتيجية التي تتكون من عدة دول تسمى دول إسلامية نسبة إلى عدد السكان، إلى طبيعة الدستور ونسبة الحكام ولكن ليس دائمًا إلى طبيعة النظام السياسي.. حتى إن الدولة الإسلامية أمر مختلف عليه فضلاً عن المسلمين الموجودين في أماكن أخرى من العالم وليس في نطاق الدول ذات الأغلبية المسلمة سواء كان في الشرق آم الغرب.

هذا هو العالم الإسلامي حقيقة جغرافية قانونية تعكس الوضع الحالي أكثر مما يعكسه مفهوم الأمة الذي هو بالأساس مفهوم عقدي حضاري إجتماعي إنساني يتشكل بأشكال متعددة وله مستويات متعددة في مرحلة ما كان يجمعها دولة واحدة ثم خلافة واحدة ثم أضحت عدة خلافات وهكذا، هذا التطور ولكن يظل للأمة مفهوم ودلالة تختلف عن العالم الإسلامي وبالتالي فإذا كنا نتحدث عن مؤسسات العالم الإسلامي ولدينا خلفية ذهنية عن الأمة فهذا دائما يجعلنا نقارن بين واقع وبين نسق قياسي أو معياري نحاول أن نسترشد به دائمًا.

٣. مجال هذه المؤسسات، لدينا ثلاثة أنماط من العلاقات التي يدخلها العالم الإسلامي أو تفاعلات الأمة.

أ- العلاقات البينية أي بين مكونات الأمة سواء كانت دول أو غير دول.

ب- العلاقات مع الخارج أي ما هو خارج نطاق الأمة دول وغير دول.

ج- العلاقات الداخلية على مستوى الدولة الواحدة.

فهذه إذاً ثلاث مستويات تعكس عدة قضايا أساسية في فكر الأمة وأصولها وشريعتها وخبرتها هي قضايا وحدة الأمة، قضية الجهاد كقيمة عليا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سواء مع النفس أو كان الجهاد تجاه الأخر ليس بمعنى القتال فقط ولكن الجهـاد بالمعنى الواسع كمفهوم، والقضية الثالثة وهي الإصلاح والتجديد في الداخل.

أنا أتصـور أن هـذه مجـالات ثلاثـة لـيس بينهـا انفصـال عـلى الإطـلاق والاختزال لأحدها على حساب الأخر هو اقتطاع من الرؤية الإسلامية لحقيقيـة هذه العلاقات المتفاعلة بينهم.

هذه مجالات ثلاثة للأمة في تفاعلاتها فـيما سـبق وفى الأصـل كـان هنـاك مؤسسة جامعة واحدة تقوم بهذه الأمور الثلاثة معاً حين كانت الأمة، والأمة في الخبرة الإسلامية منشأة قبل الدولة وليس العكس كما في خبرة الدول القوميـة في أوربا.

كان هناك مؤسسة جامعة واحده تقوم بهذه المجالات الثلاثة مع ما نسـميها دولة الخلافة حين كان المسلمون ينضوون جميعاً تحت خلافـة واحـدة في مرحلـة معينه خلافة مركزية ثم أضحت خلافة لا مركزية مع ظهور السـلطنات والأسر المتغلبة في إرجاء العالم الإسلامي ثم بدأت التجزئة والتعـدد عـلى النحـو القـائم الآن.

٤. هذا التطور من وجود مؤسسة جامعة لكل الأمة إلى وجود حالة من التعـدد والتجزئة تقتضى الحديث الآن عن المؤسسات البينيـة في العـالم الإسـلامي لم يتم في يوم وليلة لكن عبر تطور مسار الخبرة التاريخية وكان لهذا المسار ولهذه الخبرة التاريخية عدة دلالات، البداية كانت مع الأصل وهو المؤسسة الجامعة للأمة إلى الوضع الحالي الـذي تـم فيـه نـوع مـن الاسـتبدال بـأنماط وافـدة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(كتشكيلات الدولة القومية الحديثة)[1] أي أنه حدث انتقال من الكلية إلى منظومات التجزئة، حدثت مواجهة الآن بين التغلب الرسمي الحداثي وبين وجود معارضة إسلامية، حدث تحول في حالة الاستقلال والوحدة والانجاز الحضاري إلى حالة التجزئة والتراجع الحضاري والاختراق من الخارج، حدث تطور من الفاعلية إلى الهامشية والشكلية، حدث تطور من القيمية بمعنى أن تكون القيمة مرشداً ومؤثرا في الواقع وتشكيلاته إلى المادية المفرطة، حدث الانتقال من المفهوم الحضاري الشامل الذي يجمع بين السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في بوتقة واحدة وتناغم إلى التمييز بين ما هو سياسي وما هو اقتصادي وما هو اجتماعي وما هو ثقافي وما هو ديني، كل هذا المسار يشكل الإطار المحيط بالأمة ولابد أن ينعكس على مؤسساتها. ولهذا وصلت إلى ما أردت أن أصل إليه وهو أمران:

---

(١) الدولة القومية **هي دولة وأمة في آن واحد. وتتميز بمميزات الدولة، بمعنى مساحة ترابية محدودة، وسيادة، وهوية وطنية التي تمثل شعور الانتماء والثقافة المشتركة. توجد حالتين لتكوين دولة قومية:**

- إن الدولة تشكل أمة يتم إدماج الشعور القومي فيها فيما بعد. مثال: فرنسا
- أن مجموعة أفراد يعترفون بانتمائهم إلى نفس أمة ويعبرون عن رغبتهم في العيش ضمن دولة موحدة. مثال: الولايات المتحدة الأمريكية. لكن توجد أمم ليست لها دولة مثال الأمة الكردية. كما أن هناك دولاً لا تحمل خاصيات الأمة أو الدولة القومية، كما هو الحال بالنسبة لبلجيكا حيث إن للفلمنكيين وللولونيين ثقافة ولغة مختلفتان كليا، نقاط مشتركة قليلة؛ وكذلك بالنسبة لبعض دول إفريقيا حيث لا توافق الحدود توزيع التجمعات العرقية. ويكبيديا الموسوعة الحرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١) انه لا يمكن التحدث عن المؤسسات البينية للعالم الإسلامي بـدون أن أقول هذا الكلام لأن المؤسسات البينية في العالم الإسلامي من وجهـة نظري ليست هي المؤسسات بين الدول فقط لأن العالم الإسلامي هـو تشكيل حالي لأمة، والأمة ليست الدول فقط وبهذا أخرج من النطـاق الضيق لمعنـى المؤسسـات البينيـة للعـالم الثالـث الـذي يقصرـها عـلى العلاقات بين الدول فالمؤسسات البينية في العالم الثالث أكثر رحابة من وجهة نظري فهي تضـم أنـماط وتشـكيلات غـير رسـمية أيضًـا عـلى مستويات مختلفة ربما تبدأ من الأفراد ولعـل الـذي بـدأ بـه د. رفعـت العوضي خير دليل على هذا أن هذه بينية ليست بـين دول، المؤسسـات التي تحدث عنها د. رفعت في نطاق الصوم والصلاة والحج بل وأيضـاً في قيمة التوحيد هذه ليست بين مؤسسات دول، فهذا يعنـي أن فكـرة المؤسسية لدينا لا يجب ألا تقترن على الإطـلاق فقـط بالـدول بـالمعنى الرسمي ولكن هي أوسع من هذا. هذا هو الأمـر الأول الـذي أردت الوصول إليه من كل الملاحظات المنهجية.

٢) ما هي أنماط هذه المؤسسات؟ رسمية وغير رسمية، لكـن الأهـم مـن ذلك هو ما مناط عملها؟ ما الذي يجب أن تقوم به الآن في ظل الوضع الحالي للعالم الإسلامي؟ بعبارة أخرى ما هـي أنـماط التحـديات التـي تواجه الأمة في المجالات الثلاثة التي استعرضناها (العلاقات البينيـة، والعلاقات مع الخارج، العلاقات مع النفس). فهنا يجب أن اسـتدعي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بكل وضوح إشكاليه العلاقة بين البيني والداخلي والخارجي بعد أن تحولت الأمة إلى العالم الإسلامي كجزء من عالم أكبر محيط بنا وهى ليست في مكان الصدارة أو التميز من معايير كثيرة مادية وغير ذلك.

وبالتالي يصبح هذين الأمرين هما ما أريد أن أركز عليه وسأنتقل لشرحهما حالاً لخريطة المؤسسات بعد أن أشرح أنماط التحديات التي يجب على هذه المؤسسات الرسمية وغير الرسمية أن تتعامل معها. لكن قبل هذا وذاك يجب أن نتذكر العنوان الفرعي الذي قلناه (من الفاعلية إلى التفعيل) إذا نحن أيضًا لا نرسم فق خريطة المؤسسات ولا نحدد أنماط التحديات التي يجب على هذه الأنماط أن تتعامل معها ولكن - وهذا هو منطلق أساسي في كلامي اليوم وغاية أساسية من غاياتي- على ضوء العنوان الفرعي هو أني أبحث في كيفية التفعيل؟ لا أريد أن اقتصر على التفكير في ما أصاب المؤسسات أو فيما يجب أن تقوم به المؤسسات ولكن ما يجب فعله من كل فرد لتتحقق فاعليه وتفعيل هذه المؤسسة طالما إننا قلنا أنها ليست مؤسسات الرسميين فقط وليست مؤسسات الدول فقط ولكنها مؤسساتنا جميعا.

هذا هو المفهوم الذي يدور في ذهني والذي يشغلنا جميعاً منذ فتره، ولا نلتقي بأحد خاصة إذا كان طبيباً أو مهندساً أو في الجوانب المهنية والعملية إلا وطالبونا بحلول، كذلك يطالبنا د. عبد الحميد أبو سليمان – رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي مطالباً إيانا بتحديد الأسباب وليس العوارض وأن نهتم من الفكر إلى العمل، من الرسمي للمواطن.... وكنا بصدد مخطط الحولية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجديدة (حولية أمتي في العالم)[1] في مركز الحضارة وهو مشغول بهذا الهم وهو ملامح مشروع حضاري إسلامي... وهذا ينقلني إلى النقطة الأولى كما قلت وهى مزدوجة وهى خريطة المؤسسات وخريطة التحديات التي على هذه المؤسسات أن تستجيب لها، وسأبدأ أولاً بخريطة التحديات الخارجية والبينية أمام العالم الإسلامي عبر القرن العشرين (الخارجية والداخلية)

التحديات لبينية والخارجية أمام العالم الإسلامي

أبدأ بالتحديات وليس بخريطة المؤسسات لأن هذه التحديات تمثل الإطار العام الذي تعمل في ظله هذه المؤسسات، وهو الإطار الذي يفرز محددات فاعلية أو عدم فاعلية المؤسسات ومن ثم يكمن في فهمها كيفية تفعيل هذه المؤسسات إذا أردنا أن تكون أداة من أدوات إدارة هذه التحديات والتغلب على كثير من المشاكل لأنها تعكس الناحية الجمعية، سبب أخر للبدء بالتحديات: هناك تساؤل شائع هل الفشل المؤسسي- في العالم الإسلامي فشل في إدارة المؤسسات واستمرارها وبقائها تراكم حتى بعد غياب رموز لها، هل هذه مسألة ثقافية أم مسألة هيكلية؟ هل المسلمون بطبعهم لا يعرفون الناحية العملياتية الإجرائية لأنهم وفق النموذج المعرفى الإسلامي ليسوا وضعيين أو ماديين أو

(١) حولية أمتي في العالم وأمتي في قرن وهي نشرة يحاول مركز الحضارة للدراسات السياسية الذي تأسس في ديسمبر ١٩٩٧ من خلالها متابعة رصد أحوال الأمة الداخلية والخارجية والإقليمية على مستوى الرموز والأحداث والمؤسسات وتشخيصها في محاولة لاستشراف المستقبل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إجرائيين أو نفعيين أم أن هناك محددات محيطة بالبيئتين الداخلية والخارجية؟ الدول الموجودة على ساحة العالم الإسلامي الآن يمكن أن تساهم في هذا التفسير هذه مشكلة ليست سهلة الحل لكنها في ثنايا التفكير، وهذا إما جعلني اهتم بالتحدث عن أنماط التحديات الداخلية والخارجية في العالم الإسلامي ونبحث في كيفية تأثيرها وتأثرها بدرجة المؤسسية في إدارة أمور هذا العالم الإسلامي البينية ومع العالم الخارجي وفي الداخل دون فصل بينهما، ولقد عملنا بهذا في أكثر من إنتاج في مركز الحضارة للدراسات السياسية وذلك في موسوعة (الأمة في قرن) والمكونة من ستة أجزاء في الجزء السادس منها دراستين عن التحديات الداخلية والخارجية لي والدكتور سيف الدين عبد الفتاح، فأحد المقولات الأساسية في هذه الدراسات عن التحديات أن دراسة مراحل تطور التاريخ الإسلامي خلال القرنين الماضيين قد بينت كيف أعيد تشكيل أوضاع دول العالم الإسلامي وتوازنات مناطقه في ظل التحولات الدولية الكبرى لهذه المرحلة وبالتالي المرحلة التحولية الراهنة التي نحن فيها في نهاية القرن العشرين وحتى الآن شهدت مفترق طرق جديدة للدول الإسلامية حيث يتعمق من خلالها مجموعة أنماط متطورة من الأدوات التدخلية من الخارج، هذه هي صفه المرحلة الراهنة تزايد الاختراق الخارجي بأدوات عديدة تؤثر على السياسات الخارجية وعلى العلاقات البينية وعلى علاقات العالم الإسلامي مع غيره على نحو يسعى إلى إعادة تشكيل هذا العالم مرة أخرى كما حدث في عدة مراحل سابقة على نحو يفرض درجات جديدة من التحديات الموجودة دائماً في قضايا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوحـدة والاسـتقلال، والإصـلاح، وبالتـالي هنـاك أربعـة أنـماط كـبرى مـن التحديات:

١. التحديات على صـعيد البعـد العقـدي، الثقـافي، الحضـاري ومـا تفرضه على منظومة القيم.
٢. في مجال الأمن العسكري - سياسات النظـام الـدولي لمنـع حيـازة الدول الإسلامية الأسلحة الحديثة وفرض كثير من القيود عليها.
٣. التدخلات الخارجيـة لإعـادة بنـاء النمـوذج الـداخلي في الـدول الإسـلامية، وهـذا يثـير معضـلة العولمـة والخصوصـية والسـيادة القوميـة والشرـعية الدوليـة، كـالتحول الـديمقراطي وحقـوق الإنسان وحرية التعبير وتوجهات المجتمع المدني وتجديد الخطـاب الديني والتعليم الديني، وبالمناسبة جميعها مجالات تحتاج لإصـلاح وتجديد لأن حالها ليس بأحسن حال لدين ولكن السؤال كيف يتم هذا التجديد وهذا الإصلاح؟
٤. كيف تدار مشاكل وأزمات الأمة من الخـارج (قضـية فلسـطين، أفغانستان، دارفور) بعبارة أخرى تفكيـك العلاقـات الإسـلامية بعيدًا عن أطر الحركة الجماعية لحل وتسـوية المنازعـات الإقليميـة والداخلية لدينا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أربعة أنماط من التحديات تبين جميعها تشابك وتعقد البيني والداخلي والخارجي وتكالب أدوات عدة سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية يستخدمها الخارج في اختراق الداخل ومن ثم يصبح الحديث عن من القادر على إدارة هذه التحديات؟ هل الدول الإسلامية فرادى كل منها تستطيع إدارة هذه التحديات التي تكتسب طوابع كلية ومعقدة ومتغيرة جدًا؟ أم هناك حاجة ما عفوا نسيت النمط الخامس الخاص بالناحية الاقتصادية، ماذا لدينا على الساحة من مؤسسات؟ إذا كان هذا هو الإطار المعقد، وما هي أنماط المؤسسات التي في حاجة أن نفعلها؟ كما قلت لدينا مؤسسات رسمية وغير رسمية لكن الأهم من ذلك هو التفكير في النطاق المكاني لهذه المؤسسات، هل هي مؤسسات بينية على مستوى الأمة؟ أم مؤسسات في دول ولها امتداداً في الخارج؟ وهكذا.

وقد قمت بمحاولة رسم خريطة ويمكن لحضراتكم أن تتصورها معي وذلك بأن وضعت معيار الرسمي والغير رسمي أولاً، ثم وضعت معيار أخر هو العام والنوعي. فالرسمي مثلاً هو العام والجماعي أي الذي يجمع بين الدول الإسلامية الأكثر شهرة لدينا وهى "منظمة المؤتمر الإسلامي" وانأ اعتبرها منظمة غير إقليمية لأنها عبر أكثر من إقليم، لدينا أيضا "الجامعة العربية" وهى قائمة على أساس قومي، "مجلس التعاون الخليجي" وهو قائم على أساس إقليمي، فهذه مؤسسات بينية، جماعية، رسمية، عامة تجمع بين الدول الإسلامية استناداً إلى معايير مختلفة لكن من يعبر فعلاً عنها - "منظمة المؤتمر الإسلامي".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيضا هناك رسمي جماعي لكنه نوعي يركز على مجال معين كالمجال الثقافي مثلاً، الاقتصادي، العسكري، تسوية المنازعات... الخ فعندنا نماذج كالأتي: الثقافي (الأيسيسكو، الإليسكو، مركز الخليج للتربية والتعليم)، الاقتصادي (البنك الإسلامي للتنمية، منظمة العمل العربية، المنظمة العربية الإدارية، الأوابك).

في مجال تسوية المنازعات هناك مشروعات لمحاكم عدل عربية أو إسلامية، على الصعيد السياسي هناك البرلمان العربي وهو مؤسس على صعيد الجامعة العربية وتأمل إن يكون على غرار البرلمان الأوربي. على الصعيد الإجتماعى هناك "منظمة المرأة العربية" وقد كان هناك محاولة لتأسيس وتفعيل مفوضية حقوق الإنسان ومفوضية المجتمع المدني ومفوضية حوار الحضارات على صعيد الجامعة العربية، أيضًا الـ OIC في تقديراته الأخيرة تحاول إن تمتد إلى هذه المجالات.

المجالين اللذين سنجد إن فيهما قصور كبير جدًا ولا يظهرون تحت الأضواء هما مجال البحث العلمي، مجال الأمن العسكري، عنصرين شديدي الخطورة والأهمية في الأمن القومي، هناك ما يسمى بالمركز الاقليمى للبحوث النووية، الهيئة العربية النووية (مقرها تونس) لكن ما هو الزخم والثقل الذي تقدمه؟ لدينا اتفاقية الدفاع العربي المشترك في نطاق الجامعة العربية ليس لها نظير على صعيد منظمة المؤتمر الإسلامي. إذا انتقلنا للنمط الثاني من المؤسسات الرسمية أيضًا النوعية ولكن ليس الجماعية ولكنها وطنية ذات امتدادات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خارجية تعمل على العلاقات مع البينية والعلاقات مع الخارج لا مع الداخل، هناك جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في ليبيا، رابطة العالم الإسلامي في السعودية، مؤسسة وجامعة آل البيت في الأردن، الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا وباكستان، الأزهر كمؤسسة وجامعة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر، مؤسسة الفكر العربي (ومقرها بيروت أنشأها الأمير خالد الفيصل) ومؤخراً مبادرة الشيخ راشد بن مكتوم حاكم دبي للتعليم ولدينا مبادرة لزوجة حاكم قطر الشيخة موزة للمجتمع المدني وللتعليم.

المؤسسات غير الرسمية (المدنية الأهلية)

إذا جئنا للتقسيم الثاني وهو المؤسسات غير الرسمية (أسميناها المدنية أو الأهلية) التي قد تكون عبر إقليمية أو عبر قومية أو قد تكون وطنية ذات امتدادات خارجية سنجد الكثير فليس ما أذكره أو ذكرته هو تغطية كاملة بل نماذج تغطى مجالات التعليم، التربية، الدعوة، حقوق الإنسان، المرأة، لدينا رابطة الجامعات العربية ورابطة الجامعات الإسلامية، المنظمة العربية لحقوق الإنسان، الشبكة العربية للجمعيات الأهلية، اتحاد الكتاب العرب، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المجلس الإسلامي الأعلى للدعوة والإغاثة، اتحاد المحامين العرب، هيئة الإغاثة الإسلامية في لندن بفروعها، الجمعية الشرعية (لها أنشطة ذات امتد خارجية)، جماعات التبليغ والدعوة (في الهند وباكستان) الحركات الصوفية، جمعيات رجال وسيدات الإعمال العرب، تنظيم القاعدة، مجلس الإفتاء الأوربي، التنظيم العالمي للإخوان المسلمين، جمعيات مقاومة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التطبيع والصهيونية والامبريالية والتمييز، جمعيات مقاومة العولمة، **Islam on line**، اتحادات المنظمات الإسلامية في أوربا، مؤسسة الحج، الدعاة الجدد، القنوات الفضائية الإسلامية، المؤسسة الدولية لحوار الحضارات والثقافات في طهران، مؤسسة أبند في تركيا (مؤسسة مدنية نشطة جدًا) تعمل في المنطقة التركمانية والدول العربية والإفريقية.

لماذا مع كثرة المؤسسات لا يحدث إنجاز؟

كل هذا غير رسمي وما قلته ربما يكون بسيط في بحر كبير، كل هذا يبين إننا لا نفتقر إلى مؤسسات لكن السؤال هو أي نمط من المؤسسات وكيف تعمل هذه المؤسسات؟ ولماذا لا تحقق قفزات نوعية؟ ليس من العدل أن نقول أنها لا تفعل شيء الجميع يعمل ونحن كذلك نعمل ونكد ولكل دوافعه المختلفة وهناك انجازات ولكن لماذا لا يحدث التغيير النوعي المرغوب من وجهة المشروع الحضاري الإسلامي؟ حين تسمع آخرين من مشروعات مختلفة يتحدثون بأرقام وانجازات تعتقد أنهم يتحدثون عن مكان أخر لا نعيش فيه (كما يحدث أن نستمع عمن يتحدث عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي في مصر) ونتساءل أين هذه الأرقام وما دلالاتها. أنا أتكلم فيما يتصل بكيفية مواجهة هذه الأمور، أين مكمن التفسير؟ هذا ما نريد أن نصل إليه فالنوايا موجودة كذلك المؤسسات أين الخطأ في تفعيل العلاقات البينية بين الدول الإسلامية؟ ليكون هناك اقتصاد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسلامى قوي وتجارة بينية أكبر وأقوى بين الدول الإسلامية ليكون هناك تعاون في برامج التعليم، في مجال السياسات الخارجية، وهكذا على ضوء ما بدأت به.

طبعا أنا لا أستطيع إن أتحدث بالتفصيل عن نماذج تمت من دراسات ممتازة قامت بهذا المسح لتقييم ممارسات وفعاليات العديد من المؤسسات البينية في العالم الإسلامي وعلى رأسها "منظمة المؤتمر الإسلامي" يكفى أن أحيل إلى أعداد "حولية أمتي في العالم" المختلفة حيث لا يخلو عدد منها من تقييم لهذه الأمور (التعاون الاقتصادي، الثقافي، السياسي بين الدول الإسلامية، درجة فاعلية الجمعيات الأهلية في العالم الإسلامي) بالتالي أريد أن أحيل من يريد تفصيلات في هذا الأمر، يكفيني أن أشير إلى دراسة قام بها أحد شباب الباحثين في هذا العدد من الحولية... هناك دراسة تسمى الخريطة الإدراكية للنخب المسلمة لقضايا الأمة، أي كيف تدرك نخب مسلمة قضايا الأمة، هناك تحليل لكتابات د. على المزروعي، د. جمال حمدان، المستشار طارق البشرى، د. حامد ربيع، مهاتير محمد، د. خاتمي، علي عزت بيجوفيتش، مراد هوفمان، نجم الدين أربكان. كيف يروا حال الأمة وكيف يروا خريطة قضاياها وكيف يفسروا أسباب تعثراتها المتتالية وخصوصاً الراهنة، أستطيع أن أقول وقد قرأت أنهم يجمعوا جميعاً على عدة أمور: أولاً: البعد المؤسسي- ليس عدم وجوده ولكن ضعف البعد المؤسسي (ضعف الانجاز). ثانيًا: كيف أن هذه الأمة التي بينها قاسم مشترك روحي وإيماني وتاريخي وقيمي وعقيدي لا تستطيع أن تحول هذا إلى طاقة خدمة للمصالح في حين أن الاتحاد الأوربي استطاع أن يحقق هذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنظومة من المصالح وأحد مؤسسي خبرة الجماعة الأوربية، يقول يا ليتنا كنا بدأنا خبرة الجماعة الأوربية بالبعد الثقافي لأنهم بدأوا بالبعد الاقتصادي وحققوا فيه انجازاً كبيراً وحاولوا وما يزالون التحسين في الدفاع العسكري والسياسة الخارجية ويجتهدون الآن في تحديد الهوية الأوربية يحاولان التجميع بين الثقافات الأوربية فيجدون أنه أمرا صعباً ويعرفون أن هذا محك أساسي لتكتمل الوحدة الأوربية، ونحن لدينا العكس.

أيضا هناك دراسات أخرى تحلل التعاون الإقتصادى ولماذا أنها ليست ناجحة بالقدر الكافي وإن كان البنك الإسلامي للتنمية يقوم بمجهود كبير وخصوصًا في زيادة التجارة البينية بين الدول الإسلامية ليرجعوا هذا إلى العديد من العوامل منها أن كل دولة إسلامية تتجه إلى العلاقة الاقتصادية مع القوى الكبرى أكثر، هياكل اقتصاد الدول الإسلامية متشابهة فلا يصلح أن نتعامل مع بعضنا البعض إلا إذا كان هناك تنوع.

أركز على ما أشرت إليه في البداية هل المؤسسات الفاعلة هي مُدخل لتفعيل الأمة أم هي مُخرج من مخرجات حال الأمة أي هل المؤسسة هي وليدة بيئتها أم أنها من المفروض إن تساهم في تغيير هذه البيئة؟ أنا أرى أن المؤسسات نتاج بيئتها ومن ثم عدم فاعلية المؤسسة في إحداث الاختراق النوعي هو نتاج عدة عوامل حضارية متضافرة داخلية وخارجية على حد سواء، أيضًا ما يشغل ذهني هل هي مشكلة ثقافية هل هي في ثقافة البشر وهذا ما تساءل عن الدكتور رفعت العوضي، كيف لأمة لها هذه المكونة الأساسية وتتغلب عليها الفردية؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأن المؤسسية هي عمل جماعي، ألا ليس لدينا فنون العمل الجماعي؟ في الحقيقة أنا أفسر ذلك صفاتنا كمسلمين موجودة لكن هذه الصفة أصبحت صفة تتجلى فى المجال الخاص الضيق كل إنسان يريد أن يحسن أسلامه في مجاله الخاص الضيق ليكون أكثر قرباً من الله. فنحن مسلمون هذه صفة تجلياتها فى هذا المجال الضيق تتزايد (أداء الحج والعمرة والتصدق) لكن هناك شيء أخر وهو هويتنا وهو الإحساس أن هذا الإسلام يجب أن يخرج من هذا المجال الخاص الضيق إلى المجال الخاص الأوسع، بأن أوسع فاعليتي كمسلم، الأهم كما يقول د. حامد ربيع أن يكون للأمة وعي بأن لها وظيفة حضارية على مستوى العالم، فهنا ننتقل من الخاص إلى الخاص الأوسع إلى العام أن يكون لهذه الأمة وعي وإدراك بوظيفة حضارية يجب أن تؤديها، لذلك أقول أن حالنا يغلب عليه الصفة بأننا مسلمون، يغلب على الهوية وعلى الوعي بالوظيفة الحضارية وهذا ما يقصده مراد هوفمان حين يقول: يجب أن ننتقل من كوننا مسلمين بالميلاد إلى مسلمين بالإيمان، ولكن ليست المحددات البيئية لكن هناك عامل خاص بالوعي وبالثقافة وبالتالي نحن كيف نواجه تحديات أساسية كتيارات العلمنة المتدفقة أمام التيارات الإسلامية كيف ندير هذه العلاقة؟ وقد يتساءل البعض ما علاقة هذا بالمؤسسات؟ فأقول أن هذا في صميم عمل المؤسسات لأنه حتى المؤسسات الجماعية الإسلامية تضم دول إسلامية لكن أن تتحرك من منطلق رؤية حضارية إسلامية حقيقية فهذا يعتريه تجاذبات مدارس وتوجهات عديدة على المستويات الرسمية وغير الرسمية والوطنية. الآن الحوار والجدل فى تركيا حول تحركها من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلمانية الصلفة الراديكالية الاستئصالية إلى العلمانية الإنسانية الرحبة التي سمحت وتسمح للإسلام أن يستعيد دوره فى المجتمع، وعلى مستوى الفرد نحن وقد بدأت تجربة علمانية شديدة الوطأة منذ عام خمس وثمانون عام ونحن الآن في مصر تيارات الدعوة إلى إن العلمانية هي الحل لكل المشاكل التي نعانى منها ومن بينها مشكلة الفتنة الطائفية، مشكلة الديمقراطية أمر لا يريد أن يحقق تمايزاً بين الدين والسياسة فقط ولكن أمر يريد أن يستبعد الدين والدين المقصود هنا هو الإسلام من المجتمع ومن تجلياته.

التحدي الثاني وهو يسبب مشاكل في عمل المؤسسات هو كيف نعترف بواقع وجود تعدد دول قومية وهى تنتمي لأمة واحدة، كيف تستطيع أن تتخطى مصالحها القومية الضيقة لتحقق مصلحة الأمة؟ هذه إشكالية لأنه كما نرى أي تقييم نجد أن تمسك الدول بمصالحها وسيادتها على حساب المصالح الجماعية هو أحد أسباب عدم القدرة على تسوية المنازعات؟ التعاون الثقافي والاقتصادي المأمول، كيف نحقق نوع من الاستجابة للتنوع والتعدد على صعيد الواقع ولكن فى إطار الوحدة.

أسباب ومشاكل عدم فاعلية المؤسسات

استطيع أن الخص سريعًا ما قلته من أسباب ومشاكل عدم فاعلية المؤسسات على مستوياتها المختلفة وهذا من واقع الدراسات المختلفة التي أجريت على حالات محددة مثال: حالة خاصة بالتوجهات - تنازع التوجهات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القومية والإقليمية مع التوجه الجماعي الإسلامي- تنازع التوجه للخارج المهيمن مع التوجه نحو العلاقات البينية الإسلامية على سبيل المثال هناك توجه متوسطي، توجه أطلنطي، توجه أسيوي على حساب التوجهات الجماعية العربية الإسلامية، صحيح تتم توجهات عربية جماعية إسلامية ومنظماتها لكن أحد أسباب عدم فاعليتها الاتجاه للأخر. القطرية والمصطلحية القومية الضيقة جداً، المصالح الوطنية السيادية على حساب الجماعية، تنافس الأدوار الإقليمية بين الأركان بدلاً إن تنسق الأركان كمصر- وتركيا وإيران، السعودية وماليزيا، ينسقوا هناك تنافسات والخارجي يتدخل بقوة في تحويل هذه التنافسات أحياناً إلى حالة عداء مفتوح وعدم تنسيق وهذا كله ينعكس على عمل المؤسسات.

مجموعة أخرى من العوامل مهمة جداً هي فقدان الرابطة بين الرسمي والمدني فالمؤسسات الرسمية وهى تتحرك من أعلى بتصميمات من أعلى على الرغم من أن مشروعاتها تتجه إلى الأسفل ولكن ليس لأخذ وعطاء مع... الاتحاد الأوربي أحد أسباب نجاحه أنه كسر هذا الفصل وأوجد هذه الرابطة لذلك منظمة المؤتمر الإسلامي بعد ما جاء د. اكمل الدين إحسان كأمين عام لها وضع يده على هذه النقطة ويجب أن تتحرك المؤسسة من أسفل لأعلى، ثم تنازع هذه التوجهات على مشروعات الإصلاح مما يرسخ ثنائية مفتعلة تحول دون تبلور تيار رئيسي يتفقوا على المقاصد على الأقل، مقاصد الإصلاح والتغيير في الأمة ويقيموا المؤسسات من أجل تنفيذ هذه المقاصد، هذه آفة كبيرة التداول موجود في كل العالم وفي كل المراحل التاريخية، والتوجهات متنوعة ومختلفة في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كل الدول لكن أن يظل هناك استقطاب ثنائي بين طرفين لا يعرفان كيفية تداول السلطة ولا الاتفاق على الإصلاح فهذا ينعكس على عمل المؤسسات على اختلاف مستوياتها.

فيما يتصل بأنماط المؤسسات غير الرسمية وبالرغم من أنها من وجهة نظري أكثر أهمية من المؤسسات الرسمية في المرحلة الحالية لتفعيل مفهوم الأمة تعانى بدورها من الكثير من المشاكل وقد سبق وقلت أنني أقصد بالمؤسسات في الأمة ليست فقط مؤسسات الأمة ذات التوجهات الإسلامية ولكن كل المؤسسات اياً كانت توجهاتها التي تعمل في نطاق الوطن أو الأوطان من أجل إصلاحه وتغييره إلى الأفضل أياً كان توجهها لأنه يمكن أن نجد قواسم مشتركة كثيرة بين المشروعات الإصلاحية ذات التوجهات المختلفة إذا صلحت النوايا وكان هناك حرص وحذر في عدم المساس بالخطوط الحمراء من جانب الطرفين لأن الجميع يعيش في وطن واحد ولا يمكن الادعاء أن لتوجه يعلو ويتغلب ويستأصل ويبعد الآخر تماماً لكن الأهم أن توجد الفرصة المواتية والمتساوية لكل التوجهات والمشروعات الفكرية والسياسية أن تتنافس وأن تتداول وأن تعمل لصالح الوطن جميعه هذه نقطة هامة، فبالنسبة للمؤسسات غير الرسمية أستطيع أن أقول أن هناك افتقاد للتنسيق والتعاون الفعال في عمل هذه المؤسسات الغير رسمية، وأعمالها تكون احياناً موسمية أو شكلية وضعف الموارد البشرية والمادية اللازمة الشبكات البينية مثلاً في مجال حقوق الإنسان، المرأة، في مجال مراكز البحوث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شيء أخر مهم هو افتقاد المؤسسات غير الرسمية النوعية في الأمة للروابط مع مؤسسات مناظرة في الغرب تفهم قضايا العالم الإسلامي وتستطيع أن تساعده على حلها لأن ثنائية أننا في العالم الإسلامي عدو للعالم الغربي كله جملة واحدة أمر غير سليم لأن الغرب في جانب الرسمي قد تكون له سياسات معينة مرفوضة ولكن هناك قوة مجتمعية ومدنية ذات توجهات إنسانية ممكن أن نجد بيننا وبينها على صعيد المجالات المختلفة التعليم، والتربية، والمرأة، والمواطنة، وحقوق الإنسان قواسم مشتركة تجعلنا نستطيع أن نأخذ من خبراتها ونستطيع أن نقدم لها ما لدينا من منظومات قيم الإسلام.

مقترحات للتفعيل

أخيراً أصل إلى بعض المقترحات للتفعيل، قد تكون مقترحات عامه لكن هدفها الأساسى وهو محاولة تجاوز منطق الثنائيات الذي يحكم تفكيرنا وعملنا دائما والذي لا يعكس رؤية حضارية إسلامية وسطية... مؤسسات الأمة ليست هي المؤسسات الرسمية فقط كذلك المؤسسات البينية للعالم الإسلامي ليست هي مؤسسات الأمة فحسب فمؤسسات الأمة ليست هي المؤسسات الرسمية الجماعية الشاملة فقط لكن ايضاً النوعية. المؤسسات في الأمة ليست فقط ذات التوجه الإسلامي في المشروع النهضوى الحضاري ولكن كل من يوجد على أرض الوطن ويعمل لصالحه هو من المؤسسات التي يجب أن تحظى بالتقدير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مؤسسات الأمة ليست مؤسسات الدول فقط أو شعوبها لكن أيضًا هي مؤسسات المسلمين وفى أي مكان في العالم ليسوا في نطاق دولة إسلامية.

المجموعة الثانية من المقترحات ضرورة الوعي بالتأثير الخارجي ودرجته ونوعيته، ضرورة الوعي بكيفية توظيف هذا الخارجي للديني والثقافي والحضاري لخدمة السياسي في استيراتيجيته تجاهنا بدرجة كبيرة تفوق ما كان من قبل. والأمر الذي يجعلنا نتساءل لماذا نحن ونحن ندير مؤسساتنا ندعى ضرورة الفصل بين الديني والمدني والسياسي والمجتمعي والاقتصادي والأهم هو نمط العلاقة.

المجموعة الثالثة من الاقتراحات، هو ضرورة التغلب على قصور الموارد البشرية باستخدام التنسيق الفعال بين أصحاب الأنشطة المتناظرة في المجالات الواحدة.

ومما لا شك فيه أن أساليب الأتصال الحديثة والتواصل من خلال شبكات المعلومات تجعلنا على علم دعم ومعرفة بما يقوم به الآخرين، وعلى كل مؤسسة أن يكون لها موقعها الفعال النشط على شبكة المعلومات للتعريف بنفسها ولإيجاد روابط بينها وبين نظرائها في نفس المجال.

- ضرورة الانفتاح على الخارج انطلاقاً من احتياجات الداخلي والبيني.
- ضرورة الاهتمام بمؤسسات القوة الصلبة وليس مؤسسات القوة الرخوة... أين البحوث العلمية؟ أين المؤسسات البينية في مجال الصناعات؟ أين المؤسسات البينية في المجال العسكري الأمني؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخيراً: كيف يجب أن نفكر ونجتهد لتتحول الرابطة العقيدية التي تجمع الأمة وتجمع دول العالم الإسلامي إلي مصالح ملموسة للخروج من إيثار القيمي المثالي المجرد المرتبط في ذهن البعض بكل ما هو أممي إلي دائرة خلق المصالح وإنشاء هذه المصالح وحمايتها وتوزيعها، وهي المصالح المرتبطة في الذهن بكل ما هو وطني فقط وعلى اعتبار أن كل ما هو خارج الوطني ليس بالضرورة في صالح هذا الوطني، وهذا مفهوم ضيق عن المصلحة الوطنية ثبت بالتجربة العملية أنه ليس في صالح مصر علي سبيل المثال عندما أنفصلت عن دائرتها العربية.

كيف يجب أن نولد – فالمشكلة ليست فقط في البيئة المحيطة - بل في الثقافة الموجودة التي تعمل ضد الجماعية وتلتزم الفردية سبيلاً وحيداً لها – أسلوب العمل الحرفي مفتقد تماماً في المنظمات الإسلامية، على العكس من ذلك المؤسسات في الغرب. كيف نولد العقلية البرامجية المنهجية الإجرائية الإدارية المنظمة وليس الكلام المرسل عن النوايا والأهداف، فالتراكم والإنجاز والتفعيل لا يتحقق بالنوايا مهما صلحت، وبالإيمان مهما خلص، ولكن يجب أن يتحول إلي عمل مخطط منظم، سواء على مستوى المؤسسات الجماعية الرسمية أو على مستوي المؤسسات التي تجمع بين عدة أفراد.

((أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم))

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حوار حول الورقة

أ.د. عبد الرحمن النقيب:-

بسم الله الرحمن الرحيم... عندما اختار مركز الدراسات المعرفية موضوع المؤسسية كمحور تدور حوله موضوع الكتاب كان في ذهننا أيضاً أن نؤكد على الأختلاف بين روح المؤسسة في المنظور الإسلامي وروح المؤسسة في المناظير الأخرى، المؤسسة في الروح الإسلامية تظل موجودة حتى وأن سقطت بعض مظاهرها، علي سبيل المثال أن مؤسسة الأمة ماتزال قائمة رغم سقوط بعض مؤسساتها الشكلية بدليل أنه إذا التقينا في أي لقاء إسلامي فستجد فعلاً هناك وحدة إسلامية قوية، أيضاً اعتقد أن مؤسسية المسجد أو الوقف أو الحج أو حتى مؤسسية المدرسة والعلاقة البينية التي كانت بين الأستاذ والطالب وبين شجرة المعرفة والعلاقة بين العلم والله كل هذه الأشياء خصوصية تحتاج منا إلى بعض الحفر والتجلية ولولا ذلك لضاعت الأمة تماماً، فروح المؤسسية تظل باقية وما نريده بالفعل هو أن تغذي حقيقة الروح التي كانت تحرك تلك المؤسسات أي كأن ما أشار إليه المحاضرين معاً، عملية الانتقال من الفردي إلي الجماعي كما كنا لأن الأصل فينا لأننا أصحاب دعوة جماعية لا فردية ولو استطعنا أن نحرك هذا الشعور ونعيد تفسير الدين والثقافة الدينية إلى وضعها الأصيل كما يري القرآن الكريم أعتقد أن المؤسسية عندنا ستكون مبهرة ومنجزة و هذا هو الجهد الذي ينبغي أن نحاوله في السنوات القادمة بأذن الله...شكراً..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ.د.سيف الدين عبد الفتاح: -

بسم الله الرحمن الرحيم **{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَـــا}** شكراً للدكتورة نادية على هذه الورقة القيمة، ولا ننسي أن نشير في هذا المقـام أن هذا الدين ولد مؤسسياً ونشير إلي أدوار هامة جـداً لمؤسسـات قامـت في تـاريخ الأمة مثل الأزهر، و جامعة القرويين و كذلك مؤسسات الزكاة و الوقف.. أريد أن أؤكد في البداية أن هذه المؤسسة وهي مؤسسة مركز الدراسات المعرفيـة مـن المؤسسات التي قامت بدور مهم في تأسيس المسائل التي تتعلق بالفكر والمعرفـة والعلم وأود أيضاً أن أقول أنه ليس لمثلي أن يعقـب عـلي أسـتاذته فلـيس ذلـك بتعقيب ولكنه ربما يكون تأليف معها كما تعودت دائماً وأنا أشكرها شكراً جزيلاً علي ذلك، الأمر المهم في هذا المقام يتعلق بالبعد المؤسسي وأنا هنا أريد أن أتوقف عند نقطتين: النقطة التي تتعلق بكيف أن الفـروض الكفائيـة يمكـن أن تشـكل مدخلاً غاية في الأهمية لتأسيس المؤسسات الجماعيـة ذات الهـم والاهـتمام العـام هذه المسألة غاية في الأهمية ولكن للأسف الشديد أن هذه الفروض الكفائية قـد اتُّخذت بشكل معين أدى ألي إجهاضها وتفريغها من مضمونها وعدم تفعليهـا في إطار الوعي الإسلامي الذي يمكن أن يؤصل مؤسسات تتعلق بهذه الأمة، فكرة الفروض الكفائية التي تقوم على هذا الأصل الأصيل والذي يتكامل مـع فكـرة الفروض، فروض الأعيان من المسائل المهمة في هذا المقام ومن المهم أن أؤكد أن فكرة فروض الكفاية لا تتعلق بذلك التعريف الذي أشتهر في كتب الفقـه نظـراً للمثال الذي ضرب على هذه الأمور فالمثال الذي ضرب في كتب الفقه دائماً كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتعلق بصلاة الجنازة على الميت ولكن نريد فقهاً للأحياء والعمران والمسألة التي تتعلق بأصول لهذا الفقه الحضاري ومن ثم هذه الفروض الكفائية تتعلق بثلاثة أمور: كفاية عدد، وكفاية غرض وكفاية أهلية.. وهنا وجب علينا أن نتحدث عن معني المؤسسة بمثل هذه الأمور الثلاث لأن كثير من مؤسسات يمكن أن يحملها من ليس بكفء ولا مؤهل، مؤسساتنا تحمل عناصر مجاملة شديدة الخطورة يمكن أن تفسد العمل الذي نقوم عليه ونؤسس له، مؤسساتنا يمكن أن تقوم بأدوار هامشية ولا تقوم بالأدوار الحقيقية والجوهرية التي يجب أن تقوم عليها.

أما الأمر الثاني فهو ما يتعلق بمعني الإجرائية والمؤسسية وهنا من الأهمية بمكان أن نؤكد على ذلك الوصل والاتصال والصلة ما بين الأمر الذي يتعلق بالقيمة والمؤسسة والإجراء ويبدو أن الأمر قد فقد حلقات الوقت والنظم ما بين هذه العمليات الثلاث التي تتعلق بالقيمة وكيف تتحول إلي مؤسسات، والمؤسسات و كيف تتحول إلي إجراءات وقواعد، وهنا من الأهمية بمكان أن نذكر أن صحابة رسول الله r كانوا يؤكدون أننا كنا نحفظ الآية والآيتين ونعمل بهما هذه الإجرائية التي تتعلق بالعمل المستمر إنما يؤكد على هذه المعاني التي نحن فيها. وكان من الأهم في هذا الأطار أن نستند إلي حديث نبوي يؤكد على هذا المعني الذي يتعلق بالديمومة والاستمرارية التي هي أصل من أصول المؤسسة "أحب الأعمال إلي الله أدومها وإن قل" هذه هي الأمور التي تتعلق بالمعني المؤسسي التي أردت أن أتحدث عنها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما المسألة الثانية التي أريد أن أتحدث عنها هو التكافؤ بين التحدي والمؤسسة هذا التكافؤ بين التحدي والمؤسسة مسألة غاية في الأهمية، هل نحن مستعدون لمواجهة التحديات التي تتراكم على هذه الأمة وتركت بلا حل فترة طويلة فتراكمت فتحولت من معضلات ومشكلات إلي أزمات وإلي أزمات بنيانيه وهيكلية في كيان الأمة أضعفها وأنهكها لا شك أن هذه المسألة تحتاج منا بعض التوقف والعمل البحثي الذي يتعلق بالتكافؤ بين التحدي الذي يتعلق والمؤسسات التي يمكن إلا تكافئ هذه التحديات التي تراكمت على هذه الأمة ومن هنا أعجبتني عبارة غاية في الأهمية أستندت إليها أ.د. نادية مصطفي، حينما قالت: إنه من المهم أن نتحدث عن العلاقة بين درجة المؤسسية وإدارة التحديات هذه فكرة غاية في الأهمية ويجب أن تصطلح لها الفرق البحثية حتى يمكن أن نؤكد على هذا المعني الذي يصل ما بين أمرين أن الإرادة لابد وأن تكون موصولة بالإدارة غير أن الأمر دائماً في عالم المسلمين أو غالباً كان إما إرادة بلا إدارة وإما إدارة بلا إرادة، وهذه هي المشكلة الخطيرة التي نجابهها، وإما أمر لا يرتبط لا بإرادة ولا بإدارة وهذه هي المشاكل التي تطرأ على الأمة في هذا الأمر...

المسألة الرابعة التي تتعلق بهذا الموضوع هي ما يتعلق بتدويل الأزمات وإعطاء أزمتنا لغيرنا هذه المسألة تحتاج منا الكثير من التنبؤ في هذا السياق نحن في وقت من الأوقات عند غزو العراق للكويت خرج مجموعة من الصحفيين يتحدثون عن وهم أسمه الحل العربي فصار ذلك وهماً فحينما ننظر إلي إسرائيل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في عملها طيلة هذه السنوات المائتين حينما أحتفلت بمرور مائتي عام على تأسيس مؤتمرها السكسوني الأول لابد وأن نري كيف تحولت مستحيلات إسرائيل إلي ممكنات وكيف تحولت ممكناتنا إلي مستحيلات.. وشكراً.

أ.د. صلاح عبد السميع:

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلي آله و صحبه صلاة موصولة إلي يوم الدين، كل شكري وتقديري إلي أ. د / نادية مصطفي، أ.د. رفعت، و سعادتي بالغة أن أدرج ضمن من يعقب على هذه الورقة الهامة جداً، أ. د / سيف، أ. د / عبد الرحمن سبقاني و كأن هناك حوار عقلي تتسارع فيه الأفكار وتتسابق فسبقني أ. د / سيف لكي يربط كعادته دائماً بين أزمة الإرادة وأزمة الإدارة وهذا ما أردت أن أعقب عليه ضمن محور هام جداً يهم كل أسرة ومواطن علي مستوى الأمة وعلى مستوي عالمنا العربي والإسلامي هو قضية التعليم، هذا الفصام الذي حدث بين مؤسسة التعليم سواء كانت مؤسسة رسمية أو مؤسسة التعليم بشكلها وبهيئتها الأهلية كما أشارت أ. د / نادية عندما عممت آلية المؤسسات بأنها ليست فقط الرسمية وإنما كل المؤسسات أياً ما كان نوعها و أياً ما كان دورها على مستوي الأمة أو حتى على مستوي ما هو خارج الأمة.. التعليم وهذا هو تعقيبي وتعليقي في عالمنا العربي يعاني من أزمة إدارة و أزمة إرادة. أما في الإدارة فعلي المستوي المحلي نجد أنه يُختزل في شخص واحد فقط وهو الذي ينوب عن المؤسسة التعليمية أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المدرسة وهو المدير فلا صلاحية إلا صلاحية المدير، أما باقي أعضاء الفريق كمنظومة جماعية أرادت هذه المحاضرة أن تؤكد عليها كسبيل من سبل إصلاح هذه الأمة ومن سبل المشروع الحضاري للنهوض بهذه الأمة إذا أسقطناه علي باقي المؤسسات في عالمنا الإسلامي نجد أنه في الواقع التعليمي وواقع التعليم الذي نعاني منه الآن هو هذه المسألة التي في غاية الخطورة وهو اختزال دور المؤسسة التعليمية في دور شخص واحد وإذا ما علقنا هذا الأمر في إطاره المركزي نجد أن الشخص المنوط به الأهتمام بوضع السياسة التعليمية والتخطيط هو شخص الوزارة متمثلة في شخص واحد وإن بدا أمام الناس أن العمل جماعي في صورة مؤتمرات تعقد هنا وهناك إلا أنها تصب في النهاية في صورة مقررات ومناهج مهمشة لا تخاطب في واقع المجتمعات التي تعايشه... وإنما تحاكي الأخر وكأن هذا الخطاب التبعي الذي تحدثت عنه د. نادية إما أن تكون تابعاً ولا تحاول أن تحاكي نفسك وأن تأتي بحل الأزمة ممن يعايش هذه الأزمة هذه إشكالية أخرى في واقعنا التعليمي.

يبقي الأمر الآخر وهو الفصام و هذا الفصام المصطنع بين الأسرة كمؤسسة في غاية الأهمية وكلبنة في غاية الخطورة وبين الواقع التعليمي الذي نعايشه، لماذا خاصمت المدرسة الأسرة و لماذا أدعت المدرسة أنها تسعي لصالح الأسرة؟ وفي نفس الوقت فقدت الأسرة كل علاقتها بالمؤسسة التعليمية ولم يبق رابط يربط هذه المؤسسة التي بها تنهض هذه الأمة إلا شعار ما يسمي بدروس خصوصية أو مسألة حفظ مقرر ما وابتعدت التربية تماماً ولم تعد المؤسسة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التعليمية تمارس دورها التربوي وإنما بقي ما يسمي بالدور التعليمي وفي أدني مستوياته وهو مستوي حفظ المقررات، هذا عيب في غاية الخطورة تعاني منه هذه الأمة ويعاني منه الآباء في كل مكان في وطننا الأصغر أو في وطننا الذي نحاكيه، بل إذا عممت الأمر على مستوي الوطن العربي ستجد بما يسمي بموسم الأمتحانات وموسم استرجاع المعلومات وغيرها، أين التربية، أين بناء الفكر، أين محاولة تقليد الأخر بما يقوم به من ممارسات فكرية و ممارسات وجدانية ومن ممارسات أدائية هذا الحوار ثلاثي هام جداً الذي ينبغي أن نصنع به أبنائنا أبناء هذا الجيل، كيف أعمم لديه المعرفة؟ كيف أؤصل لديه الوجدان؟ كيف أعمق لديه الإطار المهاري؟ هذا هو خلاصة ما أردأت الأمة أن تحاكيه.

إذا ابتعدت الأمة عن هذا الأمر في إطار التعليم لن ينهض التعليم سواء العام أو الجامعي وهذه إشكالية أخري ينبغي علي المؤسسات التي تتبني هذه الرؤية في الواقع التعليمي أن تسعي إليها جاهدة وخلاصة القول أن أ. د. نادية طافت بنا بواقع ما نعايشه وطرح رؤية شاملة وكلية كيف لا نكون نحن عندما نخاطب أنفسنا وكأن المرض مسيطر علينا وإنما نبحث عن سبل العلاج قد نبحث عنه لدي الأخر اذا توافر لديه ولا ننغلق تحت مظلة أن هذا الآخر غير مرغوب فيه على الإطلاق وهذه حقيقة وأمر ينبغي أن تدرسه جيداً وينبغي أن تدرس نفسك جيداً وأن تبحث عما لديه وتأخذ منه وأظن أن هذه هي فكرة المنهجية في إطارها الوسطي.. شكراً جزيلاً...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ.عبد الله محروس:

بسم الله الرحمن الرحيم: ما هو مصدر المعرفة لدينا؟ لابد من البحث في مصدر المعرفة هل هو الدراسات الوضعية الغربية أم الشريعة الإسلامية الغراء؟ لنا في رسول الله صلي الله عليه وسلم قدوة في بناء الأفراد في مكة فتوجه الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة إلي بناء الفرد المسلم.. تم بناء اللبنات في هذا البناء وبعده أنتقل الرسول صلي الله عليه وسلم إلي المدينة فأصبحت جماعة المؤمنين، وكما حدثتنا أستاذتنا الفاضلة الآن يوجد تقوقع أو فردية أو ذاتية في توجهات المسلمين، يجب أن يتم العمل من خلال بناء جماعي، هذا البناء الجماعي قد نحارب أو نواجه فيه ونلمس هذا من خلال غلق المساجد بمجرد الانتهاء من أداء الصلاة، فالمسجد نحن نعلم دوره كمؤسسة في الدولة الإسلامية، كانت تعقد فيه الألوية، كان الرسول صلي الله عليه وسلم يقابل فيه الوفود، كان يعلن فيه أنتصار جيش المسلمين فكان المسجد هو المحور في هذا النظام المؤسسي- في الدولة الإسلامية.. بعد المستجد ظهرت مؤسسات تعليمية أخري بعد أتساع الدولة الإسلامية حيث ظهرت المؤسسات الإجتماعية كالمشافي وما شابه، حتى أن السجون كانت مؤسسات اجتماعية حيث كان يقدم للمساجين الجراية والمرتبات فكان هدفها الإصلاح وهذا ما أردت أن أشير إليه أن العمل الإسلامي لابد وأن يكون من خلال جماعة. وشكراً....

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشيخ عماد:

لاحظت أن مجتمعاتنا لا تحسن العمل إلا بطريقة فردية فهل ممكن في الوقت القريب أن يتم تحويل في الشخصية الإسلامية من العمل بطريقة فردية إلي إحسان العمل في فريق؟

أ.د. نادية مصطفى:-

الحوارات أكدت المقترب الشامل الذي حاولت أن أدخل به وهو البيني فالبيني ليس كذلك فحسب وإنما هو متصل بالداخلي والخارجي فمعظم التعليقات دارت عن الداخلي وليس عن البيني عبر الحدود والقوميات والأقاليم هذا كان المقصود وقد سجلت عدة نقاط بداية من تعليق د. رفعت أعتقد أن الموضوع ليس مشروعات بحثية ورسائل أخرى، ربما تكون هناك حاجة لمشروعات بحثية ورسائل لوضع تصورات عن كيفية تحقيق الإجرائية والعملية فلا نريد مشروعات ورسائل أخرى لنتحدث في أمور أستفاض فيها البحث (الإجراءات والقواعد لترجمة القيم) وهذا ما قاله د. عبد الرحمن حينما قال: نريد تغذية الروح التي تحرك هذه المؤسسات وما قاله أ. عبدالله بضرورة بناء الفرد المسلم لعلاج التقوقع وما قاله الشيخ عماد من الفردي إلي إحسان العمل في فريق.. فهذا كله في نطاق الداخل نطاق الأسرة، الجماعة، فالجماعة الأوسع إلي أن نصل إلي أن نعبر الحدود وهذا يتطلب تفكير وهذا ما يجعلني أكرر السؤال: هل الموضوع عبارة عن محددات بيئية داخلية وخارجية تؤثر على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فاعلية مؤسساتنا وتجعلها لا تنجز، الدول تتعارك، المصالح تتضارب، يتدخل الخارج، لا يوجد مال وبشر بشكل كافي لا توجد رؤية واضحة، أم أن هناك جانب ثقافي وسلوكي متصل بنا كمجتمعات، ماذا آلت إليه الجماعية فينا؟ فنحن نحسن الاصطفاف في الجامع ثم نخرج إلي الشارع فنجد المصلي وقد ترك سيارته في مكان مخالف أو رمي ما في يده من قمامة علي الأرض.. هناك شيء خطأ فينا وإذا لم يتم إصلاحه لن ننجح، هناك مكون أساسي سلوكي وثقافي وليست فقط محددات محيطة عندما ذكر أ. عبد الله أن المساجد تغلق بعد الصلاة، المساجد لم تغلق بعد الصلاة من تلقاء نفسها بل النظام المحيط هو الذي أدى إلي ذلك وهناك قيود كثيرة على كيفية تحديد دور المسجد، فهنا أثر المحدد البيئي.. هناك سبل للخروج علي ذلك.. نأخذ تركيا كمثل، هناك لا يدرسون القرآن والحديث في المدارس بسبب الحكم العلماني لكن حدث تحايل على ذلك دون أصطدام مباشر مع النظام وهذا الأمر كان يتم بطرق أخرى لابد وأن نفكر ماذا لدينا من بدائل، لدينا جمعيات أهلية، هناك إبداع في التفكير وفي الحركة ليس من الضروري التحجر وبالتالي نصل إلي الخطاب الديني والوازع الديني. كيف يعمل الإنسان هذا مهم لكن الأهم لا أن يعطي له الوازع لكي يعمل ولكن يجب أن يتعلم كيف يعمل وعليه ما مصدر المعرفة الشريعة أم الغرب؟ الحكمة ضالة المؤمن، فالشريعة مصدر لأمور معينة لكن إذا كان لدى آخر أساليب عملية وإجرائية وإدارية أعرف بها كيفية الإدارة والتدريب فلنأخذ بها والأهم أن نلبس هذه الأساليب الثوب القيمي وأفعل من خلاله بحيث أكسر هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأنفصام ما بين القيمي والإجرائي للعمليـاتي، أظـل أعلـم الأولاد قـيم ووازع وأصل إلى أن الأولاد والكبار ليس لديهم منهج للتفكير أو إدارة ليـومهم وهـذا على كل المستويات فهذه نقطه هامة...

النقطة الأخرى لابد من التمييز بين مؤسسات الأمة نتكلم عن المسجد، الأزهر، الحركات الصوفية، الأوقاف ثم نـتكلم عـن المؤسسـات في الأمـة، قـد يكون هناك مؤسسات أخري وهنا قضية كان يتكلم عنها دائماً المستشار / طـارق البشرـي... وهـي في التبـديل والتحـديث كيـف اسـتبدلت مؤسسـات الأمـة بمؤسسات جديدة فلم يحدث التحديث لكن ما حصل أن مؤسسات الأمـة قـد حاق بها ضعف وتآكل فمثلاً كل ما يثار حول الأزهر وأهميته كجامعة إسـلامية لا أحد ينكره ودورها في دعم ونشر العلوم الإسلامية في العالم العربي وفي مصرـ والعالم الإسلامي عبر التاريخ لكن ماذا تعـاني كجامعـة ومؤسسـة مـن المثالـب وصعاب وحاجة إلي تحديث حتى تكون كما قال د. سيف التكـافؤ بـين التحـدي والمؤسسة فتراكمت المعضلات على مؤسسة الأزهر لتتحـول إلي أزمـات فهـل، هذا يعني أن نلغيه؟ كلا لكـن نـدرس كيـف تعـالج لتفعـل دورهـا في الـداخل والخارج أيضاً هذه هي القضية، نفس الشيء في الكلام عـن الصـوفية، الصـورة السائدة المشوهة أن الصوفية صور سـلبية لكـن أيـن دور الصـوفية التـاريخي في الجهاد، في نشر الإسلام؟ لكن الأخطـر الآن هـو كيـف ينظـر مـن الخـارج إلي الصوفية كمقابل للإسلام السياسي؟ يضربون الأخوان بالحركات الصوفية... في الحقيقة هناك مؤتمر لنا مع المعهد "الأمة وأزمة الثقافة والتنميـة" وكانـت هنـاك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دراسة متميزة جداً للدكتور / عمار على حسن، عن "الصوفية وتوظيفها السياسي الراهن من الخارج"... فهناك فارق بين الصوفية كمؤسسة من مؤسسات الأمة، ماذا كانت وكيف أصبحت؟ وماذا نريد أن نحقق من أجلها ؟ وبين دورها كمؤسسة لها دور في الداخل ودورها كمؤسسة ذات دور بيني.. جماعات التبليغ والدعوة التي حفظت العقيدة في الهند وباكستان في المحيط الهندوسي الوثني الكبير كاستجابة رشيدة تركز فقط على ما يتصل بالعقيدة في هذا الأطار الزماني والمكاني، هل تؤخذ لتنشر في أوربا؟ النوراسية في تركيا وكيف حمت إسلام المجتمع ومن الممكن أن ينظر إليها الآن أنها بإتجاهاتها الحوارية التسامحية (امتدادتها) والدعوة إلي نبذ العنف... لا يصلح هذا الكلام خارج تركيا في كل زمان ومكان... فالنقطة كيف أدت مؤسسات الأمة في بداية تطورها وكيف تطور دورها وما حال دورها الآن وما هي الحاجة لتطويره في ظل التحديات الموجودة أمام الأمة الآن لتفعلها والنظر في المؤسسات الأخري التي يمكن أن تقوم إلي جوارها وتحسن صنعاً أو تضيف وتراكم على ما كان لمؤسسات الأمة؟. نريد أن نوسع الذهن بصورة أكثر...

نقطة أخيرة... أود أن أشير إليها د. عبد الرحمن عندما قال: التحرك من الفردي إلى الجماعي أنا أريد التحرك من الفردي إلي الجماعي الإنساني والإسلامي العالمي... فالمؤسسات البينية في العالم الإسلامي لن تستطيع أن تنجح بفاعلية في مواجهة تحديات الأمة حالياً على صعيد العالم دون أن يكون لها أمتدادات تقدم بها أيضاً أن حلولها ليست للمسلمين فقط بل للإنسانية كلها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى تسقط هذه الصورة عنا وهي أننا انعزاليين ولسنا إنسانيين وحقوقيين لأننا نركز فقط على المسلمين هذه نقطة هامة جداً في ظل حالة العالم الآن ونظرته للمسلمين لذلك دائماً ما أقول أنه نحن (الأمة الإسلامية) في العالم وليس خارجه، (أمتي في العالم).

دعيت في مؤتمر بالكويت عن المرأة والوقف وتغيير دور المرأة وتكلمنا كثيراً ثم في النهاية أفردوا لنا جلسة مغلقة مع الدكتورة سعاد صالح فسألت ولماذا الجلسة مغلقة فاخبرونا أنه لكي تتكلم السيدات فيها بحرية فلما تكلمت السيدات تكلمن بما لا يفيد. فدعونا من الكلام الفارغ من محتواه فلتلبس السيدة دبلة أو لا فليست هذه بالشيء المفيد فلتعمل المرأة وتصلح واقعها وتربي أولادها أفضل من إضاعة وقتها في السؤال عن الدبلة.

بالنسبة لما قاله د. صلاح: في الحقيقة التعليم مهم جداً هو تكلم عنه ببعده الداخلي وأنا أتكلم عن المؤسسات البينية وعلى الخارج أريد أن أقول أن قضية التعليم لم تعد قضية داخلية، الأسرة ومؤسساتنا التي تعلم بالداخل، أنا لا أريد أن نتحدث عن الجزئيات الصغيرة طالما أننا نتكلم عن المؤسسات البينية فإذا لم نتخل عن الأعذار فلن نتقدم، ابدأ بنفسك وأقصد أن التعليم لم يعد قضية داخلية فالتعليم قضية عالمية "في مصر"، مؤسسة الفكر العربي في بيروت تعقد بعد شهرين المؤتمر الثالث للتربية والتعليم في الوطن العربي أحد الجلسات فيه أسمه "العولمة والتعليم" و نحن عندما عقدنا مؤتمر منذ ثلاث سنوات عن تطوير التعليم العالي في مصر كان هناك عدة جلسات عن العولمة والتعليم والعالم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كله يتكلم عن تأثير العولمة على التعليم (التعليم عن بعد، الجامعات المفتوحة وفروع الجامعات الأجنبية على النت) هذه قضية خطيرة جداً، ماذا تفعل مؤسساتنا البينية في العالم الإسلامي لأمرين: -

١ - أنها تدعم التعاون بين الدول الإسلامية على صعيد التعليم. الاتحاد الأوربي حيث نشأ وأنضم شرق أوربا لغربها تم عمل مشروع كبير جداً عن برامج التعليم يريدون أن يوحدوا وينسقوا بين برامج التعليم لأن الناس لن يكونوا يد واحدة إلا اذا تم توحيد التعليم.. أما نحن حين قمنا في جامعة القاهرة بتطوير التعليم كان الخارج هو مصدر التطوير فكان في كلية الأقتصاد ماجستير الدراسات الأوربية المتوسطية لكي ندعم العلاقة بيننا وبين فرنسا وأسبانيا، وطلبنا منهم (وهذه منحة من الأتحاد الأوربي) مساعدتنا لعمل برامج تعليم مع جامعات عربية فكان ردهم أن أصعب شيء هو الدخول في تعاون بين الدول العربية بعضها البعض لن تحصل علي شيء والكلام به جزء من الواقع...

٢ - التعليم لم يعد قضية داخلية، الآن التعليم الوطني في مصر ـ لم يعد يرضي كثيرين فأصبح هناك تعليم أجنبي ثم تعليم دولي فأصبح الطلبة في مصر ـ فئات وطبقية جديدة في التعليم يقترن بها طبقية في المسكن والعمل وأماكن التسلية والمشكلة إنها ليست طبقية داخلية بل مرتبطة بالخارج وسنة الله في كونه أن يكون الناس درجات لكن المشكلة أن تكون مرتبط بالخارج في هذا التقسيم، فهذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نقطة مهمة يجب إضافتها ونحن نفكر في التعليم و مؤسساته طالما نحن نتكلم عن المؤسسات البينية.

وأخيراً: أقول إن الباحثين في العلوم السياسية في كلية الأقتصاد وأن كانت أسست أو دشنت أو تراكمت على توجه معين في الدراسة فهذا لم يكن بانعزال عن مستجدات ومنجزات العلم في الغرب وهذه نقطة هامة في مجال العلوم الاجتماعية والإدارية والإنسانية (تطوير منظورات حضارية إسلامية) لهذه العلوم لا يكون بمعزل عن فهم ونقد ما يجري في الغرب والاستفادة بكل ما يمكن الاستفادة منه وربما كان هذا دور المعهد العالمي للفكر الإسلامي اساساً ومركز الدراسات المعرفية والتعامل معهم وفر بيئة مناسبة في هذا الأمر ابتداءً من أ. د / طه جابر علواني، أ. د / عبد الحميد أبو سليمان، د. رفعت، د. عبد الرحمن....

ونأمل لهم كل التوفيق وأن يستمر التعاون بين العلوم الاجتماعية كلها (التربية والاقتصاد والعلوم السياسية).

((و كل عام و حضراتكم بخير،،،))

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسة السياسية في المنظور القرآني

إعداد:أ.د.السيد عمر
أستاذ العلوم السياسية بجامعة حلوان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسة السياسية في المنظور القرآني

إعداد: أ.د. السيد عمر
أستاذ العلوم السياسية بجامعة حلوان

مقدمة

تدور محاور هذه الدراسة حول بناء مفهوم المؤسسة السياسية عبر التعريف بمضامينه اللغوية، توطئة لرسم معالمه في المنظور القرآني، ورصد مؤشرات الحفاوة ببناء العقلية السياسية المؤسسية في القرآن الكريم، **وذلك على التفصيل التالي:**

أولاً: **المضامين اللغوية لمفهوم المؤسسة:** يقول صاحب مقاييس اللغة: الهمزة والسين يدل على: الأصل والشيء الوطيد الثابت. **فالأس:** أصل البناء، وأصل الرجل، ووجه الدهر[1]. وفى لسان العرب: أس الإنسان: قلبه، وأس البناء مبتدؤه. **وأسست الدار:** بينت حدودها ورفعت قواعدها. **والأسيس:** العوض[2].

وخلاصة هذه المضامين أن المؤسسية تدور حول: الثابت الناظم، للبداية والنهاية وما بينهما، وحدود الشيء ومعالمه، وما يساويه. ويتشابك هذا المفهوم بقوة بالتالي مع مفهومي العدل والمساواة. ويمتد فضاؤه المعرفي، ليشمل الإنسان والأشياء والزمان والمكان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتنسجم الدلالة الاصطلاحية للمفهوم مع تلك المضامين اللغوية،وإن كانت تضيق عنها. فهذا المفهوم ينصرف إلى التأسيس،بتنشئة **هوية جامعة**، إما ببناء أعراف وتقاليد مستقرة، أو بسن قوانين منظمة للسلوك. ويراد **بتأسيس شعب**:تحويل مجموعة أفراد إلى ذات اجتماعية مدركة لهويتها، وتعترف بسلطة ناظم هذه الهوية على تفضيلات أفرادها ومصالحهم.

بتعبير آخر، ينصب مفهوم المؤسسة السياسية على الحالة التي توجد فيها جماعة ينظم **العرف** سلوكها الإنساني،وينظم القانون الذي يسنه مشرعها، سلوك أفرادها كمواطنين.والمجتمع المؤسس هو المجتمع الذي يسوده **نظام** ينتظم أفراده في أنساق يستطيعون على ضوئه: **التعرف** على حقوقهم وواجباتهم المتبادلة، **وتوقع** عواقب سلوكياتهم على نحو منضبط.

والمؤسسة،بذلك،قواعد للتفكير والسلوك تبلورها جماعة ما، وتصير مميزة لها ومحددة لكينونتها. ويتعانق في هذا المفهوم: **المعيار والجزاء المحقق للامتثال له.** وبذا يتسع مفهوم المؤسسة ليشمل كل أشكال الضبط الاجتماعي المحققة لروابط متبادلة ملزمة على مستوى الأنساق العمرانية بكل مستوياتها.فكل الأنشطة والممارسات التي تحكمها توقعات مستقرة ومتبادلة تندرج في ما يسمى:مؤسسة.والسلوك المؤسسي- هو امتثال ذات إنسانية جماعية أو فردية لمقتضى منظومة حقوق وواجبات متبادلة معترف بها، وملزمة[٣]

ويدور هذا المفهوم، في استعمالاته المعاصرة، حول البنى الفكرية،ونماذج التصرف، ونماذج العلاقات الإنسانية.ولما كان جذر المفهوم بهذه المعاني، هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأعراف المستقرة، الملزمة من جانب المجتمع، أو من جراء تدوينها في قواعد دستورية وقانونية، فإن المؤسسة ترتبط ببنية مجتمع،ويصعب نقلها من مجتمع إلى آخر.

ومفاد ما سبق، أن المؤسسة فكرة تتجسد في واقع معين في سلطة ومنظمة أولية أو ثانوية. وتشير المؤسسية إلى: وضع الأنظمة والتكوين النظامي لأنماط مستقرة للتفاعل الاجتماعي، مرتكزة على أعراف وعادات جماعية، وقواعد رسمية ملزمة، ونسق للثواب والعقاب. والمؤسسة، بدلالتها السائدة، شخص اعتباري يتخصص في مجال معين لرعاية عمل عام له طابع ديني أو علمي أو إنساني أو فني، أو أي عمل من أعمال البر والنفع العام، لأغراض غير الربح المادي.وهذه الدلالة على اتساعها، أضيق بكثير من الدلالة الأصلية للمفهوم، التي تشمل: **الأوضاع المصطلح عليها** في مجتمع ما لتنظيم العلاقات بين أفراده في كل مجالات الحياة، **وطرق التفكير والعمل السابقة** في نشأتها وقيامها على وجود الأفراد التي تنتقل من جيل إلى آخر، ويلتزم بها أفراد المجتمع، بوصفها من مقومات الترابط الاجتماعي،كنظم الزواج،والأسرة[٤].

- **ثانياً: مفهوم التأسيس**: ورد الفعل (أسس) في القرآن الكريم ثلاث مرات في اثنتين من آيات سورة التوبة في معرض التأكيد على عدم التسوية بين ذات إنسانية تؤسس بنيانها على التقوى،وأخرى تؤسس بنيانها على شفا جرف هار، فينهار بها في نار جهنم [٥]. ففعل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التأسيس جاء مرتبطا **بالبنيان الإنساني كله**، متلبسا بالتقوى أو بالضرار، مؤشرا على قابلية البنيان المؤسس، للصلاح والفساد، ولئن يكون مطية للضر والضرار، أو للفوز والتعاون على البر.

- ويتبين للناظر في الخطاب القرآني، التأكيد البالغ على الأنساق والمؤسسات المنضبطة، مع رسم معالم الانحراف بالمؤسسات للحذر منه، ومعايير الإستواء المؤسسي لتزن البشرية بنيانها بمعايرته بها. ومن بين العلامات الدالة على امتلاء الخطاب القرآني بخاصية المؤسسية، والعناية بتأسيس العقلية المؤسسية السياسية، للذات الإنسانية بكافة مستوياتها، على سبيل المثال، لا الحصر:

١ - **مقابلة الجمع بالجمع**: يكشف التأمل في **الجملة القرآنية**، عن توجيهها للذات الإنسانية، إلى تأسيس بنيانها على علاقة بين أنساق لها كينونتها الجماعية المنظمة، وتشكل في مجموعها نسقا إنسانيا جامعًا عبر الزمان والمكان. ويظل كل نسق مسؤولاً عن نفسه، في كل صور علاقته بالأنساق الأخرى. ومن شواهد المقابلة بين الجمع والجمع، في القرآن: استخدام الأفعال الدالة على الأمر والنهى الموجه إلى **جماعة**، المتضمن، في ذات الوقت، الأمر إلى **كل فرد منها**، فيما يتعلق بموضوع الأمر والنهى من جهة، والشامل لكل **فضائه** من جهة أخرى. ومن نماذج ذلك قوله تعالى " فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ "[٦]، وقوله تعالى " آمَنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ " [٧]. فالأمر باستباق الخيرات موجه إلى كل مكلف، فضلاً عن كونه موجه إلى الأمة بكاملها. والمؤمنون يؤمنون بكل ما أُنزل إليهم من ربهم كأمة وكأفراد. كما أن الخطاب القرآني يقابل **الجمع بالمفرد**، على شاكلة ما جاء في قوله تعالى " وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " [٨]. فالجلد ليس للاثنين معاً، بل لكل واحد منهما.

واستخدم القرآن الكريم **المفرد بمعنى الجمع**، في إشارته، على سبيل المثال، إلى **سيدنا إبراهيم** بأنه بمثابة **أمة**، وفى استخدامه لمفهوم **(الصديق)** على أنه بمثابة جماعة. فالحق يقول "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ **أَوْ صَدِيقِكُمْ** لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" [٩]. كما استخدم القرآن الكريم **الاثنين في مقام الجمع**. من ذلك قوله تعالى " وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ **يَحْكُمَانِ** فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا **لِحُكْمِهِمْ** شَاهِدِينَ " [١٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - **التوجيه إلى التآلف**: إلى جانب هذا التأكيد على العلاقة العضوية بين الجمع والمفرد في الخطاب القرآني، ترسى الجملة القرآنية [١١]، المؤسسية، كخاصية للعمران الإنساني، عبر التأكيد بالألفاظ ذاتها، على: **الطابع الجامع للخير، وعلى الطابع المفرق للشر**. فالفاعلية رهن بوحدة الفاعل وجمع الأمر. ومن نماذج ذلك قوله تعالى " هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم **بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ** وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا **رِيحٌ عَاصِفٌ** وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ " [١٢]. فلقد وضعت الآية الكريمة **ريح الرحمة الطيبة** بلفظ مفرد في مقابل **ريح العذاب**، بما يستبطنه ذلك من دلالة معنوية مفادها أن **تمام الفاعلية لا يتحقق إلا بوحدة الفاعل**. فوحدة الريح وعدم اختلافها يجعلها طيبة ويُفضى إلى الرحمة. واختلاف الريح أو اتصافها بـ **(الريح العاصف)** سبب للهلاك.

وبالمثل، نجد أن القرآن الكريم يفرد **مفهومي النور**، والصراط المستقيم، بينما يجمع **مفهومي الظلمات**، والسبل، بما يتضمنه ذلك من إشارة إلى وحدة سبيل الحق واستقامته، وتفرق سبل الباطل وتشعبها. ومرة أخرى، يغلب **الواحد المجتمع، المتفرق المختلف**. ومن النماذج القرآنية لذلك " اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ **الظُّلُمَاتِ** إِلَى **النُّورِ** وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ **النُّورِ** إِلَى **الظُّلُمَاتِ** أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النَّارِ هُـمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ" [١٣]. وقولـه تعـالى " وَأَنَّ هَـذَا **صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا** فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ **السُّبُلَ** فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُـمْ وَصَّـاكُم بِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُونَ " [١٤].

٣- **ربط الحرية الحقة بالالتزام بالصراط المستقيم**: لا موضع للحركة العشـوائية، ولا للفوضى، في تأسيس البنيان على تقوى من الله ورضوان. فطريـق الحـق المستقيم والواحد، يُفضى إلى السعة،وإلى الحرية الحقة للإنسان، بينما تُفضي- طرق الباطل رغم تعددها المـوحى في الظـاهر بتمتـع سـالكها بالحريـة، إلى **الضيق وضياع الحرية**. فكل طرق الباطل تصل إلى **(النار)** التي **لم يجمعها الله أبداً** في القرآن الكريم، في حين يُفضى- طريـق الحـق إلى **الجنـة** التـي أتـت في القرآن الكريم بصيغة المفرد والمثنى والجمع.

٤ - **الزوجية أساس العمران الإنساني**: السبيل الوحيد لبنـاء **الأنسـاق العمرانيـة المؤسسية**، هو ذلك المفهوم الجامع: **الزوجية**. ومن أبـرز العلامـات الدالـة على ذلك: تأكيد القرآن الكريم أن الزوجية هي نظـام كافـة المخلوقـات، في مقابل **الأحدية** كسمة ينفرد بها الخالق، حيـث يقـول الله تعـالى " وَمِـن كُـلِّ شَيْءٍ **خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ** لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ " [١٥]، ويقـول " وَخَلَقْنَـاكُمْ **أَزْوَاجًـا** " [١٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم يبدأ التكليف الإلهي إلا بعد أن صارت هناك صفة **الزوج** في النفس الواحدة. فخلق الله من آدم زوجه حواء، وسكن إليها، وشد الله أسره بها، فكانت **الأسرة الواحدة** الأولي بأول ميثاق غليظ، ليُبث منها بطريق الزواج رجالاً كثيراً ونساء، ينتظمون بدورهم في أسر، ويشكلون بطوناً وأفخاذاً وعشائر وقبائل وشعوباً مأمورة بالتعارف، المؤسس للأمة الواحدة الجامعة[١٧].

بل إن مفهوم **التزاوج** يظل ملازمًا للأمم يوم الحشر، حيث يقول الله تعالى " احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا **وَأَزْوَاجَهُمْ** وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ " [١٨]. ومن الشواهد الدالة على عمق مفهوم **الزوجية**، أن السورة التي سماها الله، باسمه الرحمن، التي تضمنت تذكيراً للمكلفين على نحو متكرر بنعمه، بُنيت على هذا المفهوم، حيث زاوجت بين: الإيجاد **بالخلق**، والإيجاد **بالتعليم**، وعن نوعى الخارج من الأرض، والحياة والموت،والعدل والظلم في ميزان الله تعالى، إلى غير ذلك من الأزواج. والزوجية،بذلك،هي جوهر الاختيار الإنساني، وهى علامة احتياج النوع البشرى، ومفتاح التكامل بين الأزواج في تحقيق مقصود الاجتماع الإنساني. و يتضافر مفهوم الزوجية مع مفهوم: **الأخوة** والذي هو مفهوم مشتق من: تآخى كل طرف ما يتأخاه الآخر، بمعنى وحدة القصد بين طرفين، وتتولد من ثمرة الزوجية الأسرية، أو من جامع الدين أو الإنسانية، أو القصد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥ - **الأمة الشاهدة السائلة** [١٩]: يهتم السياق القرآني في ظل هـذا الطـابع الجـامع الذي يؤسسه لعقلية أمة الإجابة، بـدعوتها إلى المؤسسـية الصـارمة بحكـم شخصيتها المتفردة. وهو يحذرها من التهاون في ذلك، لأنه يصـيرها حجـة على دينها، ويسقط مصداقيتها عند غيرها من الأمم. **فهويتها كأمة شـاهدة مبينة في كتب السابقين.** وعلى رأس التكليـف الإلهـي لهـا، ألا تـدع للأمـم الأخرى سبيلاً إلى إقامة الحجة عليها، بمخالفة سلوكها، في أرض الواقـع، للعلامات التي بين القـرآن أنهـا مـن الأمـارات المسـطرة في كتـب النبيـين السابقين الدالة عليها، كأمة واحدة،مكلفة بأن تكـون خـير أمـة أُخرجـت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله تعالى.

ومن هذا المنطلق، يرشد القـرآن الكـريم **الأمـة الشـاهدة** إلى التوجـه بالسؤال إلى السلف الصالح والطـالح عـلى السـواء. فهـي تنقـب في سـيرة **الأخيار** منهم بُغية **التبصرة**، وإتمام البناء الذي أسسوه، وتجـادل مـن تنكبـوا الصراط المستقيم منهم،بالتي هي أحسن، لإقامة الحجة عليهم.

ومن بين الأساليب القرآنية في التنشئة الإنسـانية مـن مـدخل **سـؤال السلف**: تأسيس **مجمع الشاهدين** المتكاتفين عبر الزمان والمكان لإقامة شرع الله في الأرض. وهذا السؤال موجه حتى للرسول نفسـه،في قولـه تعـالى "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ " [٢٠]، وتأسيس **مجمع المشهود عليهم**، بالسؤال الهادف إلى التعمق في معرفة الآخر وإقامة الحجة عليه عبر مصادره هو ذاته.

ومن هذه الأساليب أيضاً: **إعادة بناء السؤال**، والتنبيه إلى الأسئلة الأولى بالإثارة، في الرد على ما طُرِح بالفعل من أسئلة،والتوسع في الإجابة، بطرح ما هو أوسع من الرد الدقيق على السؤال المطلوب، والتنشئة على التخلق بالاقتصار في السؤال على الكليات، وما وراءه عمل، وما من شأنه التوسعة على الأمة وعدم التضييق عليها وعدم زعزعة طمأنينتها النفسية. ومن النماذج القرآنية التي يمكن إيرادها هنا، قوله تعالى " يَسْأَلُونَكَ عَنِ **الأهِلَّةِ** قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن **ظُهُورِهَا** وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [٢١]. فلقد تمت هنا إعادة بناء للسؤال، تنبيهاً على أن الأولى هو **السؤال عما وراءه عمل**. وحين سألت الأمة " يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ" [٢٢]، جاءت الإجابة ببيان المستحقين لإنفاق الخير عليهم، بدل بيان الأشياء التي يتم الإنفاق منها.

والمتأمل في فضاء مفهوم **(السؤال في القرآن الكريم)**، يلمس حفاوة بالغة بتنظيمه، وتأسيس قواعد للإحسان فيه، وبه،بالتوجيه للإجابة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصحيحة، وإلى عبرة سوابق طرح ذلك السؤال من قبل، وإلى الأسئلة الأولى بالإثارة، وتلك الأولى بالترك، وإلى مسؤولية الإنسان عن ما يثيره من أسئلة. وورد عن ابن عباس أن الصحابة خالفوا اليهود في كثرة توجيه الأسئلة إلى رسلهم والاختلاف عليهم، ولم يطرحوا على النبي غير أربعة عشر سؤالاً كلها وردت في القرآن الكريم. بل إن التدقيق في الأمر يبين أنهم سألوه عن **عشرة قضايا فحسب**،هي: ماذا أُحل لهم، الأنفال، اليتامى، الخمر والميسر، المحيض، الأهلة، الجبال، ذي القرنين، الروح، الساعة [٢٣].

ثالثاً: التأسيس للحرية الإنسانية المسؤولة: المؤسسة في جوهرها قواعد متعارف عليها من جانب جماعة منظمة لترتيب علاقاتها. وعماد هذه القواعد في المنظور القرآني،هو: تعزيز حرية الإنسان.والشواهد على ذلك لا تكاد تحصى، **نجتزئ خمسة منها**:

١ - **الخطاب بالشيء على اعتقاد المخاطب، دون ما في نفس الأمر**: من بين الشواهد على ذلك استخدم القرآن الكريم ألفاظ: الشركاء والأنداد، **ووصف بعض الكافرين به** بـ: العزيز الكريم، الحليم الرشيد. ومنها، أيضاً، الحديث في مسألة اعتبار إعادة الخلق أهون من إنشائه، بوصفها مسألة تتعلق بما يجول في خاطر البشر بحكم ضعفهم، وإن كان لا محل له بالمرة فيما يتعلق بالله تعالى. بل يصل القرآن في تأكيد هذه القاعدة،إلى حد تقديم فعل **البشر**، على فعل **الله** تعالى، في ترتيب استحقاق **الثواب والعقاب**، في قوله تعالى "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" [٢٤]. ويؤسس الخطاب القرآني لتعظيم **مسؤولية المبادرة الذاتية في إنشاء الخير والشر**. فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ويُستدل على هذه القاعدة من وصف القرآن الكريم لكل من يكون له السبق في المنكر بـ **(الأظلمية)**، بما أنه الأسوة في نوع الظلم الذي أسسه. وفي هذا السياق يؤكد القرآن أن أظلم من منع مساجد الله، هو من شرع ذلك، وكذا أظلم من افترى على الله كذباً هو أول فاعل لذلك.

٢- **بث الأمل في الإنسان في قدرته على التمتع بحرية الكلمة**، أياً كانت درجة الانحراف التي يواجهها، ما دام يستند إلى المنهج الإلهي، ويتحاشى دواعي الجفوة. **ومن أهم الأمثلة القرآنية لذلك** التوجيه الإلهي لموسى وهارون بعدم اليأس من إمكانية أن يهتدي أمثال فرعون، مع ضرورة استخدام اللين في القول، من باب الإحسان وإقامة الحجة. فمن الأهمية بمكان أن لا يفقد الداعي إلى الخير الأمل في فلاح سعيه. ومن الأدلة على ذلك، أن معظم الآيات القرآنية التي أشارت إلى الرحمة والعذاب، سبقت فيها الرحمة، باستثناء الإشارة في الآية الأربعين من المائدة المتعلقة بقطّاع الطرق والحرابة، وبعض مواطن أخرى معدودة خاصة بخطاب للكفار يوم الحساب [٢٥].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣- **التنشئة على وضعية اليد العليا، والتحرر من وضعية اليد السفلى. فاليد العليا خير من اليد السفلى.** والفقير إنسان كامل الأهلية، ينبغي توجيهه إلى الطريق لإخراج نفسه من تلك الحالة، بالتركيز على ما لديه من دافعية للعمل، وتجاوز سياسات **الإفقار الراهنة** التي تربط المساندة للإنسان بقدرته على رد مقابل لتلك المساندة. ويستدعى الوقوف على العمق القرآني لهذا المبدأ المؤسسي، إعادة تعريف **مفهوم الفقير**، من أجل تجسير الفجوة بين الأثرياء والفقراء. فالمفاهيم شبيهة بعلامات الإرشاد الملاحي في المياه المجهولة.

ولقد اهتم الرسول عليه السلام بتحرير مفهوم **(المسكين)** مبيناً أنه: من لا يجد غنى يُغنيه، ولا يُفطن إليه فيُتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس. وبين القرآن الكريم أن جوهر مفهوم **(التكذيب بالدين)** هو: المعاملة الفظة لليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين. وكل نظام يصنع الفقر والمسكنة، ويدعم وجودهما، هو بمثابة تكذيب بالدين. والمؤسسات الخيرية إذا قدمت ما يغرى الفقير بالتعطل والبطالة، ويستديم جعل يده سفلى، ويدفعه إلى تعمد الكذب والاحتيال، تكون قد أصبحت اسماً على غير مسمى. وتصوير **الزكاة** على أنها: آلية لجبر حاجة الفقراء اللحظية، وضع لها في غير محلها، إذا أن **وظيفتها هي: تحقيق الإحسان المالي الباني لمجتمع الكفاية.** وأي تشريع أو عرف يقيم **حياة شطر من الأمة على الفضلات التي يلقيها إليها الشطر الآخر، هو تشريع للإفساد** في الأرض. فالصدقة لا تجوز على غنى ولا على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذي مرة سوى. وتمثلت المعالجة النبوية للفقر، في توجيه الفقير إلى أن يصير صاحب عمل، بحيث يحل مشكلته بنفسه، ويخرج بجهده من ذل السؤال. ومما لا شك فيه أن قبول أمتنا مد اليد للأجانب، وجعل يدهم هي العليا ويدنا هي السفلى، هو باب فساد كبير، واختراق لهويتها وكرامتها [٢٦].

٤ - **التنفير من طلب الخوارق**: من بين القواعد التي يحث القرآن على تأسيس العمران الإنساني عليها: **السعي إلى الهداية بسنن الأولين**. فالقرآن الكريم يؤكد على أن الآيات التي عززت دعوة الأنبياء السابقين كانت ذات تأثير مؤقت، فضلاً عن كونها أفضت في المدى الطويل إلى الإضرار ببني الإنسان. ومن هنا يأتي التحذير القرآني للأمة الإسلامية من أن تحاكى الأمم السابقة في طلب المعجزة من نبيها. وفى ذلك يقول الله تعالى " أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ " [٢٧]. وهكذا بلغ التنفير من سؤال الخوارق، حد اعتباره بمثابة تبديل للكفر بالإيمان [٢٨].

٥ - **التنبيه على قابلية المؤسسة الدينية للتلاعب**: ينبه القرآن الكريم إلى أن العبرة بالنسبة للمؤسسة الدينية هي بالمعنى وليس بالمبنى. ولقد عرف صدر الإسلام ما عبر عنه القرآن الكريم، بقوله تعالى " **وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " [٢٩]. فرغم أن المؤسسة التي أُقيمت سُميت مسجداً، فإن غايتها كانت أبعد ما تكون عن رسالة المسجد الجامعة. **فهي مؤسسة ضرار** (وهو ما ليس فيه منفعة لفاعله، وفيه مضرة لغيره، **وهو غير الضرر**، الذي فيه منفعة لفاعله، ترتبط بمضرة على الغير).

وكل مسجد يؤسس على الضرار والرياء والسمعة هو في حكم هذا المسجد. وإذا كان المسجد المبنى للضرار يُهدم، فإنه من باب أولى يهدر أية مؤسسة أخرى غايتها الضرار. وضابط هذا الباب هو: حظر كل فعل يترتب عليه إضرار بالغير. فالضرر يزال، حتى لو كان في مستوى دخان الفرن. ومن المضامين المهمة هنا، الإشارة إلى أن تأليف قلوب الأمة وجمع كلمتها هو المقصود الأكبر للدين، وبالتالي فإن كل ما من شأنه التفريق بين المؤمنين، وتشتيت الكلمة، ينبغي هجره. ومن هذا المنطق تأتى رمزية حظر إقامة صلاة جماعتين في آن واحد. والأفعال تختلف بالقصد والإرادة، حتى وإن ظن صاحبها أنه على صواب، طالما كان ضابطه في ذلك غير منهج الله تعالى. فبناة مسجد الضرار زعموا أنهم لم يريدوا إلا الحسنى. ومن هنا أيضاً يتأسس النهى عن القيام لله تعالى إلا في مسجد أُسس على التقوى، مع التنبيه إلى أن التأسيس على غير ذلك يورث النفاق في القلب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الأمور ذات الدلالة أن تأتى في هذا السياق الإشارة إلى شراء الله من المؤمنين أنفسهم، في التأسيس لعلاقة تعاقدية، من **خصال طرفها الإنساني**: الإيمان المتجسد في التوبة والرجوع إلى الله والطاعة والحمد، والصيام، والركوع والسجود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وحفظ حدود الله. وكنموذج للقدوة في هذه الخصال يأتي ذكر إبراهيم عليه السلام، ونهيه عن الاستغفار للمشركين بعد وفاتهم، مع مواصلة الاستغفار للأحياء منهم وتألفهم بالقول الحسن رجاء إيمانهم، ماداموا على قيد الحياة. فالشرع لم ينهنا، فيما يقوله ابن عباس، عن **الاستغفار للأحياء**، كما أمرنا بالحكم على الآخرين بظاهر أحوالهم عند الموت وترك سرهم لله تعالى. ومن بين الخصال المتجسدة في **النموذج الإبراهيمي**: كثرة الدعاء لله تعالى، والرحمة بعباد الله، وتعليم الخير، والشفقة، والاستغفار والحلم بالصفح عن الذنب والصبر على الأذى. وهذا النموذج هو الدليل إلى الفوز بـ **(قدم صدق عند الله تعالى)**.

ويتسع مفهوم **المؤسسية**، ليشمل الوعي بإمكانية التلاعب بالأدلة على مستوى الأنساق الإنسانية، ما صغر منها وما كبر. فإخوة يوسف اصطنعوا دليلا. و رد يوسف،وهو على رأس دولة، باصطناع دليل. ويتعانق هنا مفهوم **(الدم الكذب)** ومفهوم (من وجد عنده صواع الملك)، وهما مفهومان بالغا الثراء في مضامينهما السياسية المؤسسية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلقد أراد أخوة يوسف أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم، فجاءت الأمارات لتدلل على أنه مكذوب فيه، وعلى أن المكذوب فيه يصير كذباً في ذاته. وضمن هذا الدليل نبه القرآن الكريم إلى انتفاء العصمة عن أي اجتهاد بشرى، حتى لو صدر من نبي، ما لم يكن معه من الله برهان.

ومن المضامين السياسية المهمة هنا اعتبار الثمن الذي دُفع لمن أخذوا يوسف، ثمناً بخساً، رغم أنهم باعوه لعزيز مصر. ذلك أن **أي ثمن لا يساوى نزع الحرية عن نفس آدمية حرة**. وفى ذات الوقت، فإن في ذلك الموقف ما يؤشر على جواز شراء ما هو ثمين بما هو يسير، وعلى اعتبار لسان الحال أبلغ من لسان المقال. فموضع قد القميص، سبق إقامة الحجة.

ومن العطاء السياسي أيضاً لقصة يوسف، ضرورة التفرقة بين: **إساءة النظام الحاكم إلى الإنسان في شخصه، وبين حق الإنسانية عليه**. فالقدوة في يوسف داعية إلى عدم الرد على الإفساد والظلم وحفظ النصيحة الدافعة للفساد، والمحققة لكليات شرع الله تعالى في حفظ الدين والنفس والعقل والأنساب والأموال. وفى سبيل ذلك، جاء عرض يوسف **العمل**، حيث توفرت فيه شروط القيام به، وصار من أهله. وفى ذلك أيضاً ما يؤشر على جواز عمل الفاضل للمفضول، من أجل صالح الإنسانية، وأن النهى عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طلب الإمارة، لا يطول الحالة التي يكون فيها الإنسان أهلاً لعمل،لا يتـوفر من يقوم به على النحو الذي يستطيعه. ومعنى ذلـك، أن مبـدأ عـدم طلـب الإمارة نسبى، وليس مطلقاً.

ومن المضامين السياسية أيضاً التي يمكن الاستفادة منهـا مـن صـنيع يوسف مع أخوته، جواز قبول الضرر المؤقت، لما يترتب عليـه مـن خـير في المدى الطويل. فلقد أسفر أخذ يوسف لأخيه عن تنبيـه سـيدنا يعقـوب إلى رؤيا يوسف الأولى، وإلى أن ابنيه ربما كانا في مصر.

ومن جهة أخرى، فإن الطريقة التي أخذ بها يوسف أخيه، تؤشر عـلى ضرورة تربية الجماعة على الـوعي بـأن **السـلامة الشـكلية لأدلـة الاتهـام**، لا ينبغي أن تنفى حسن ظنها بنزلاء السجون، وعـدم اليقـين بـإدانتهم. ومـن شأن تكريس هذا المبدأ **تعزيز دافعية الجماعة** لإعادة النظر في الأدلة من جهة، وحفظ كرامة المسجونين من جهة أخرى، والتأسيس لإمكانيـة إعـادتهم إلى نسيج المجتمع، بيسر بعد انقضاء ابتلائهم بسجونهم.

ومن المهم الإشارة هنا أيضاً إلى أن يوسف استفاد من علمـه **بشـريعة بني يعقوب** التي كانت بمثابة قانون حاكم لهم، **في أخذ أخيه**، وهو مـا كـان لا يستطيع القيام به وفق القانون السـائد في مصر ـ آنـذاك. ولـو كـان أخـوة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يوسف على دراية بقوانين الأمة التي اضطرتهم الظروف للتعامل معها، لكان لديهم متسع للاحتفاظ بحرية أخيهم. وبالتالي، فإن من الأهمية بمكان التنشئة على الوعي **بقوانين الأمم** الأخرى للاستفادة منها. فالتعامل مع ذوى السلطان، مهما كان صلاحه يحتاج إلى تدبير في المقابل، وإلا اختلت المعادلة، وانفتح المجال أمام السلطة للتلاعب بالأدلة، والتوصل إلى أغراضها بحيل خفية.

ومن بين المضامين السياسية هنا: جواز الشكوى عند الضرر، وإظهارها لمن يرجى النفع بإظهارها له، ومطالبة السلطة في حالة الضرورة بتجاوز العدل إلى الإحسان. ومما يعزز فاعلية الشكوى الإقرار بالخطأ في حق الغير، وسؤال العفو، في حالة مواجهة السلطة للشاكي بما يثبت ذلك، في مقابل وجوب تحلى السلطة بالإحسان والعفو، والتأسيس لمبدأ تحلل أطراف العملية السياسية من كابوس الخطأ في حق بعضهم البعض.

وفى هذا السياق يأتي تركيز يوسف عليه السلام على خبرة السجن، وإغفال الإشارة إلى خطأ أخوته في حقه، لأن من الجفاء ذكر الجفاء في وقت الصفاء. بل إن يوسف أحال ذنب أخواته بحقه على الشيطان من باب التكرم منه، وأشار إلى لطف الله تعالى ورفقه بعباده وبره بهم، وتمنى الوفاة على الإسلام، بوصفها غاية ما يطمح إليه الإنسان مهما بلغت درجة التمكين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

له في الأرض. وفى ذات الاتجاه، يأتي تركيز السياق القرآني على التنفير في المقابل من دخول مساكن الظلمة، ومن الانشغال بما في أيدي الناس عن الغنى الذي يحققه الإنسان بالامتثال للنور القرآني [٣٠].

ومن عبرة السلف الصالح في **السعي المؤسسي في الأرض للتمكين للحرية**، ما يقدمه ذو القرنين، حين يسوى بين الصدفين، ويستخدم معالم الأرض ومعادنها، في تأدية وظيفتها، وكأنها امتداد له، في الفعل الحضاري الرامي إلى حماية الضعفاء، ودفع الظلم عنهم لوجه الله تعالى. وفى ضوء هذه الخبرة، يعتبر تقاعس أمتنا عن موقع الصدارة في العلوم الطبيعية بمثابة جريمة في حق الإسلام. وجوهر إنسانية الإنسان هو وعيه بذاته وتحمله للأمانة قولاً وفعلاً. والإنسان مفطور على القيام بالتكاليف الشرعية باختياره. وهو وإن كان غير معصوم من إمكانية الوقوع في ظلم النفس، فإن الشرع يفتح له باب التخلص من ذلك الظلم، بالتوبة من المعصية. ومن مداخل تضييع الأمانة، إسناد الأمر إلى غير أهله. وبالمقابل، فإن من أهم أسباب التمكن من حمل الأمانة، الاستعانة بنعم الله تعالى، في القيام بمهمة التسبيح المشترك، المتبلورة في حقيقة أن: كل مخلوق في هذا الكون صاحب رسالة، علمه الله إياها وكلفه بالقيام بها [٣١].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعاً: الإيلاف: تتجسد حفاوة القرآن بالعمران الإنساني المؤسسي، في اعتبار إيلاف الأمم السعي المنظم في أرض الله، المستند على الحرم،منة من الله. **ومن بين مبادئ رعاية الأمم لهذه النعمة:**

١ - **تأسيس أعراف حية مستقرة**: مما تنبه إليه سورة قريش، أن الاعتياد على الأمر الصعب، والذي هو جوهر نقل القيم من جيل إلى جيل، يتضمن أمرين: **التواتر** المولد للعادة، **والمخاطر** التي تهدد وضعية ذلك التعود. والقدرة على التكيف مع متطلبات الوقت هي أساس العرف الحي المستقر. أما الجمود على عرف معين مهما كان صالحاً في أساسه، فيحوله من قاطرة للإيلاف، إلى قيد قاتل لحيوية الأمم. وفى حين وجه القرآن الكريم، النبي، في بداية التنزيل، إلى قيام معظم الليل، ومجاهدة الكفار والمنافقين، فإنه وجهه في أواخر ما نزل منه، إلى: التسبيح والاستغفار والسعي إلى التوبة. ومما منَّ الله به على قريش أنه جعل حب التجارة عادة مألوفة لها، وهداها إلى سبل تحقيق الأمن ودفع المخاطر التي يمكن أن تصاحب هذه العادة. وقدمت السورة الكريمة: الألفة على الجوع، في حين قدمت الأخير على الأمن. وإقامة الدين هي السبيل للألفة والأمن معا. وعاصم الأمم من: الهلع والجزع، ومن البخل، هو: الصلاة، حيث يقول الله تعالى " إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ " [٣٢].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ - **إقامة العلاقات الإنسانية على واقع الأمر**: يتطلب فك أسر مفهوم التنشئة السياسية، بناء الوعي بالفارق بين: **واقع الأمر، وما في نفس الأمر**. فجوهر التوجيهات القرآنية يتعلق بترتيب علاقة الإنسان **بواقع الأمر**. ومن هذا المنطلق ينبغي عدم إثقال النص القرآني بما تكشف عنه البحوث المتعلقة بالسنن الطبيعية الكونية، بما أنها بمثابة سبل للتعرف على: **تفصيلات متعلقة بنفس الأمر**، تيسر سبل التسبيح المشترك بإعمال يد الإنسان وفكره فيما سخر الله له من أشياء في السماء والأرض. أما النص القرآني فيتعلق بالكليات.

ومن النماذج التي يمكن تسليط بعض الضوء من خلالها،على هذه الفكرة، ضرب الله المثل **بـ: بيت العنكبوت**، على أنه بمثابة **رمز للوهن**. فإذا تبين لباحث أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر، فانطلق من ذلك إلى القول بسبق القرآن الكريم لإثبات هذه المعلومة، بما أن القرآن استخدم الفعل بصيغة المفرد المؤنث **(اتخذت بيتاً)**، ثم انطلق من ذلك إلى المقارنة بين صلابة خيط العنكبوت وصلابة ما يناظره من الصلب، للخروج بأن خيط العنكبوت أقوى من نظيره من الصلب ثلاث مرات، فإنه يكون قد دخل في نطاق الصرف عن النص القرآني، بالخوض في نفس الأمر. وهذا من قبيل الخوض فيما لا علم يقيني بشأنه، وما لم يتوقف تفعيل النص القرآني عليه قبل اكتشاف مثل هذه الجزئيات. والقرآن الكريم،يربى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤمن به، على نبذ الخوض فيما لا عمل وراءه، واحترام مقولة **(لا ندرى)** بخصوص ما ليس له به علم [٣٣].

٣- **تحرير عقل الأمة من الوهم**: تأتى هنا ضرورة تربية ملكة: **السعي إلى إزالة الخفاء**، لإزالة الوهم. فمفهوم **(الإنس)** ذاته، يقابل مفهوم **(الجن)** في القرآن الكريم. وجوهر **(الإنسية)** هو: **عدم التوحش**. وكأن الإنسان مفطور على أن يأنس بما ينكشف له، و أن يشعر بالوحشة تجاه ما يخفى عنه، وتعتبر **الإنسية** سمة فارقة لجنسه، لا ينفتح معها، إلا على من يتحلى بها. أما من لا ينتمي إليها، فيعتبره مفارقاً له في مدركاته، وفى السنن الحاكمة لحياته ومآله.

ومن شأن تكريس هذا المفهوم إزاحة عبء كبير عن كاهل الأمة،تسلل إلى أعماقها وتوارثته أجيالها، نتيجة الأساطير والخرافات التي تراكمت في تراثها حول الجن وعلاقته بالإنسان. **فالآدمية السوية هي الآدمية الحرة التي تكتسب الخير بإرادتها، وتنسخ بالتوبة الصادقة كل شر، وتحس بالقلق بالنفس اللوامة من أي انحراف، وتنأى بنفسها عن أساطير نابعة من الوهم بخضوع غير المتماثلين لذات السنن.**

ويرشدنا القرآن الكريم في هذا الصدد إلى توخي **التنشئة الإنسانية**، التي ترتوي من **خمسة روافد: التوحيد، الاستدلال** على الخالق بالتدبر في المخلوقات، **التدبر** في سنن الله في الكون عبر القصص القرآني والسير في الأرض، **التربية** والتشريع، **البعث** والجزاء. وهذه المحاور التي انتظمها القرآن الكريم، تعول على التاريخ الإنساني كذاكرة ضرورية للحاضر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والمستقبل، **ضابطها هو**: التوحيد كقيمة ناظمة للحياة، **وأداتها هي**: الحرية الإنسانية المسؤولة التي لا موضع فيها لعقيدة الجبر، ولا للتعلق بالمرويات الموهمة بها، إذ الصدق كله في كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة، اللذين يقرران:رعاية حرية الإنسان ومسؤوليته، واعتبار كل علم لا يقود إلى الله تعالى هو علم مشبوه، ونبذ العزلة كخيار بأمة الإجابة، التي ينبغي أن تتخذ من المبادرة إلى البلاغ المبين، والثبات في مواضع الجهاد، والسعي من أجل العزة والتمكين عنواناً لها. فالقلة الصالحة العاملة هي الأهم في ميزان القرآن من الكثرة الباطلة المعطلة [٣٤].

٤ - **الحرية المسؤولة**: يحتل مفهوم **الإرادة الإنسانية الكسبية الحرة** موضعاً مركزياً في التصور القرآني للآدمية السوية. **فجوهر الإسلام كله** هو: **تحريم العبودية لغير الله، وتقرير المساواة بين كافة البشر**. ومن هنا لا يقر الإسلام مصادرة حرية الإنسان، ويحض على تصفية كافة مظاهر الرق، وتكريس حرية العقيدة، ويدعو إلى الكلمة السواء، والاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة عبر السير في الأرض والتأمل في آيات الله في الأنفس والآفاق، وإلى إبطال الوساطة الكهنوتية، ويوقف الشفاعة على رضا الله وإذنه [٣٥].

٥ - **عدمية ما لا ينفع**: **ينبهنا القرآن الكريم إلى مبدأ مهم، حاكم للأمم، فحواه**: أن كل ما لا يُستخدم ويُنتفع به يُعد في حكم الهالك. فالأمة التي لا تنقب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن ثرواتها، ولا تستخدمها، في حكم الأمة المعدومة. فالقرآن الكريم اعتبر القرى التي هلك أهلها، ولم يعودا ينتفعون بها، قرى هالكة، خاوية، معطلة. كما أنه وصم القرى التي اتسم أهلها بالظلم، بالظلم أيضاً [٣٦]. حيث يقول الله تعالى " فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ " [٣٧].

٦- **امتداد أثر الظلم إلى الأجيال القادمة:** يوجه النص القرآني البشرية إلى أن فعل الإنسان أو الجماعة تجاه نظائرهما، يرتد سلباً وإيجاباً على ذريتهم من بعدهم،بدليل قوله تعالى " وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا " [٣٨]. فالآية الكريمة تحرك شفقة الآباء على ذريتهم، بإنزال أنفسهم منزلة المورثين الذين اعتدوا هم على أموالهم، وإنزال ذرياتهم منزلة الذرية الذين أكلوا هم حقوقهم، لتحريك حاسة النفور من الظلم، والأخذ على يد فاعله، بما أنهم إن ضيعوا هذا الواجب، فإنه يوشك أن يلحق بأبنائهم وأموالهم مثله. ذلك أن اعتياد السوء يُنسى شناعته.

والمخرج من هذا التعود هو تقوى الله في مال الآخرين، وإحسان القول لهم، والقيام على الأمانات الحسية والمعنوية المأمور بأدائها إلى أصحابها، **وفي مقدمتها:** قول الحق، والإقرار به، وفعل الصالحات، وتبليغ العلم. وأول المخاطبين بأداء الأمانة إلى أهلها هم ولاة الأمر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمفهوم الحكم بحد ذاته يعنى العناية بإظهار المحق من المبطل، والـردع عن فعل ما لا ينبغي فعلـه، والتسـوية بإيصـال الحـق إلى أهلـه، ودفـع المعتدى عن الحـق وتحريـر مـا للآخـرين مـن حـق لديـه مـن قبضـته، والمساواة بين الناس في جوهرهـا تقتضى تمكين كل ذي حق مـن حقـه، وتعيين الأشياء لمسـتحقيها، دون إفـراط أو تفـريط، ودون تعجيـل ولا تأخير. وهذا هو جوهر العدل كأساس للحكم. والنص القـرآني يطلـق الأمر برد الأمانات إلى أهلها عن أي قيد، ويحرض عـلى الامتثـال لهـذا الأمر في كل الأحوال، ويخوف من مغبة خيانة الأمانات [٣٩].

خامساً: خلاصة عامة: تعنى المؤسسة السياسية: تكوين جمعي ينتظم جماعـة بشرية ما، برباط اجتماعي مشترك، تحل بـه **(ذات جماعيـة)** محـل **(ذوات فردية)**. وهى ضرورة، بما أن الفكـر الاجتماعـي غـير المؤسسي- عقـيم، والشعور الاجتماعي غير المنـتظم مؤسسـياً بمثابـة **(تكـوين مسـتنقع)**. ويدور الانتماء بين **(الفكر والشـعور الاجتماعـي المـنظم المتمأسـس، أي المصاغ في تكوين جمعـي بشـري مـنظم، يكفـل لـه الاسـتمرار والأثـر الاجتماعي المتتابع)**. وتقوم المؤسسـة عـلى روابـط مصـلحية بـذاتها، أو لجماعة كبرى خـارج إطارهـا. ونـواة هـذا التأسـيس المؤسسي- لشـبكة انتماءات متفاعلة متدرجـة هـو **(مؤسسـة الأسرة)**. ونحـن بحاجـة إلى استعادة مؤسسات وحدات الانتماء الفرعي التي ساقنا الغرب إلى الظن بأنها عقبة أمام الإصلاح **فهدمنا تجديداً، ودمرنـا إصـلاحاً، واسـتبدلنا**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مؤسساتنا بمؤسسات جديدة عقيمة، تنطلق من فلسفة تبدأ بالفرد، وتقفز منه إلى الولاء الكلى العام.

وينبغي الانطلاق من روح المؤسسية النابعة من القرآن والمنضبطة به. ولا ينبغي محاكاة الخبرة المؤسسية الغربية،التي هي نتاج واقع تختلف معطياته عن معطيات بيئتنا. فالغرب كانت ظروفه ملائمة عند تحوله من النظام الإقطاعي، ومن الصراع بين الملوك ورجال الكنيسة،إلى رحاب الدولة القومية،والثورة الصناعية، والعلمانية، لتعلية قيمة الفرد، لأنه كان يحرره بذلك من مؤسسات ضاغطة مانعة، ويفتح الطريق أمامه للانتماء إلى وحدات انتماء جديدة يفرزها رحم المجتمع نفسه. أما عندنا فتم استيراد فكرة الفردية مع القفز من الفرد، إلى الوحدة الكلية العامة، دون حلقات وسيطة متشابكة. وكما يقول المستشار طارق البشرى بحق فإنه **متى صار الشعب أفراداً، فقد صار الحاكم فرداً، لزوال التكوينات الضاغطة، وزوال وحدات الانتماء الفرعية، مع بقاء وحدة الانتماء الأم، المتشخصة فيه بذاته منفرداً عما عداه.**[٤٠].

وفحوى هذا الطرح، هي: وجوب استعادة دعم الشعور الاجتماعي بروابط القربى، والخروج ثانية من أسر الأسرة النووية إلى الأسرة الممتدة، واستعادة مما يمكن إعادته من وحدات الانتماء الفرعية ومؤسساتها، كنظام الوقف، وإصلاح ما تبقى من مؤسسات تقليدية بما يدعم فاعليتها الاجتماعية، وإصلاح ما استجد منها، وأصبحت له

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إمكانية الوجود الفعال كالنقابات والجامعات، وابتكار ما يستدعيه الوضع من وحدات انتماء جديدة، بشكل عفوي غير مصطنع، والنظر إلى وحدات الانتماء الفرعية، ليس كبديل لوحدة الانتماء العام، وإنما كروافد لها، والتحول إلى الأسلوب المؤسسي في اتخاذ القرارات.

والحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هوامش الدراسة:

١ - انظر مادة (أس) في: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا،معجم مقاييس اللغة،دار الفكر للطباعة والنشر،١٩٧٩،ج ١.وانظر:ابن دريد،أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري،جمهرة اللغة،بيروت:دار صادر،د.ت.

٢ - انظر مادة (أس) في: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم،ابن منظور،لسان العرب،بيروت:دار الرشاد الحديثة،د.ت.

٣- ر. بودون،ف. بوريكو،المعجم النقدي لعلم الاجتماع،ترجمة:د. سليم حداد،بيروت:المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،١٩٨٦،ص٤٧٩-٤٨٦

٤- د. رشدي فكار،علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية،باريس كدار النشر العالمية جتنير،١٩٨٠،ج ١،ص١١٥. وانظر: أحمد زكى بدوى، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية،بيروت:مكتبة لبنان،١٩٨٦،ص ٢٢٠-٢٢١.

٥- التوبة: ١٠٨- ١٠٩، محمد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة دار الريان للتراث، ١٩٨٧، ص ٣٣.

٦- المائدة: ٤٨.

٧- البقرة: ٢٨٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٨- النور: ٤.

٩- النور: ٦٦.

١٠- الأنبياء: ٨٧.

١١- استعرنا هذا المفهوم من الرافعي،كعنوان لمنهج يتعامل مع النص القرآني، ومع الحديث النبوي بعقل القلب، بعيداً عن القراءة القشرية، وعن النظرة التجزيئية، وعن القراءة الاستشراقية، وعن القراءة القائمة على الحواشي والوهن والجمود. انظر: مصطفى صادق الرافعي، الجملة القرآنية، تذييل: الأمير شكيب أرسلان، تصحيح وتعليق: عبد البديع القادري، بيروت: دار القادري، ١٩٩٢.

١٢- النور: ٢٢.

١٣- البقرة: ٢٥٧.

١٤- الأنعام: ١٥٣.

١٥- الذاريات: ٤٩.

١٦- النبأ: ٨.

١٧- د. السيد عمر، النسق السياسي للأسرة في المنظور الإسلامي، ضمن: مؤتمر واقع الأسرة في المجتمع: تشخيص للمشكلات واستكشاف لسياسات المواجهة، القاهرة: كلية الآداب جامعة عين شمس، ٢٠٠٤، ص ١٥- ٢٠.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٨- الصافات: ٢٢.

١٩- يلزم هنا التنويه بضرورة فك أسر مفهوم (السائل)في القرآن الكريم الذي جرى حصره في نطاق من يطلب صدقة مادية،مع أن افقه الأرحب هو:طلب الحقيقة (انظر في رحابة أفق مادة (سأل) في القرآن الكريم، وتشابكه مع مفهوم المسؤولية:محمد عبد الباقي، مرجع سابق، ص٢٣٦-٣٣٨.

٢٠- الزخرف: ٤٥.

٢١- البقرة: ١٨٩.

٢٢- البقرة: ٢١٥.

٢٣- انظر: محمد عبد الباقي، مرجع سابق، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٨. خمسة منها في البقرة،: الآيات ١٨٩، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، المائدة: والأنفال:١، الإسراء: ٨٥، الأعراف: ١٨٧، طه: ١٠٥، النازعات:٤٢

٢٤- الصف: ٥.

٢٥- للتوسع في مفهوم المؤسسية والأنساق كسمة للخطاب القرآني، انظر: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تقديم وتعليق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ج ٤، ص ٦ – ٤٢، ص ٥٦ – ٨٩، ص ١٨٢ – ١٨٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢٦- للتوسع في هذا المفهوم، يمكن الرجوع إلى: د. مجدي سعيد، تجربة بنك الفقراء، القاهرة: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧، ص ٣٧ – ٨٤. ويمكن أيضاً الرجوع إلى د. يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٦، الشيخ محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، القاهرة: دار الصحوة، ١٩٨٧.

٢٧- البقرة: ١٠٨.

٢٨- د. مصطفى بو هندي، نحن والقرآن، مقدمات في أصول التدبر، دراسة منهجية نقدية في علم التفسير، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢، ص٦٣ – ٧٢.

٢٩- التوبة: ١٠٧.

٣٠- انظر في هذه المضامين: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: دار الريان للتراث، د. ت، ج ٥، ص ٣٣٧٨ – ٣٦٧٢.

٣١- د. عبد الله شحاتة، تأثير الآيات الكونية، القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨٠، ص ٢٩، ص ١٨٠، ص ٢٢٠ – ٢٢٦

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣٢- المعارج: ١٩ – ٢٣. د. زكريا كمال، الجديد في تفسير بعض آيات القرآن الكريم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢، ص ٣٩، ص ١٢٤ – ١٢٥، ص ١٣١ – ١٣٧.

٣٣- انظر في تأسيس هذا المبدأ: د. عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري، هذا بلاغ للناس، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩، ص ٨٧ – ١٠٠.

٣٤- انظر في تفصيلات هذه الفكرة: محمد الغزالي، المحاور الخمسة في القرآن الكريم، القاهرة: دار الصحوة للنشر، ٢٠٠٠، ص ٥ – ٦، ص ٢٤ – ٣٩، ص ٤٢ – ٤٤، ص ٧٤ – ٨٠.

٣٥- د. عائشة عبد الرحمن، القرآن والتفسير العصري، ص ١٤١ – ١٥١.

٣٦- محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير، سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٧، ج ٨. ص ٤٣١ – ٤٣٤.

٣٧- الحج: ٤٥. محمد بن يوسف أطفيش، مرجع سابق، ص ٣٠، ص ٦٣ – ٦٤، ص ١٣٣.

٣٨- النساء:٩.

٣٩- المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٥٣، ج ٥، ص ٩١ – ٩٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤٠- المستشار طارق البشرى، منهج النظر في النظم السياسية المعاصرة لبلدان العالم الإسلامي، مالطة: مركز دراسات العالم الإسلامي، ١٩٩١، ص ٦٥ – ٦٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسة الدينية

فضيلة الشيخ / جمال قطب
رئيس لجنة الفتوى الأسبق
بالأزهر الشريف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقديم

أ.د. طه جابر العلواني

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين ثم أما بعد، لعل موضوع الورقة من أهم الموضوعات التي تشغل بال الجميع بأشكال مختلفة، الموضوع مهم وخطير ومتعدد الجوانب وله أهميه كبيرة في هذه المرحلة بالذات فالجدل كثير حول الفتاوى وصداها وحول المواقف الإسلامية المضطربة على مستويات مختلفة، المستوى الثقافي، المستوى الاجتماعي، المستوى السياسي، المستوى الإنساني... اضطراب هذه المواقف وتعددها يجعل الناس دائما يلتفتون أين المؤسسة الدينية؟ ما موقف المؤسسة الدينية؟ فأخونا حفظه الله رجل قضى سحابة عمره يتقلب في جوانب مختلفة مما له علاقة بهذه المؤسسة الدينية كما يعبر عنها، وخبر جوانبها المختلفة، خبر الوعظ، الإفتاء، الدعوة، المسجد، الإمام، الداعية، المتحدث، الكتاب، الباحث، الدارس حتى تكونت له خبرة وتجربة ثرية جدًا في هذا المجال تجعله في مقدمة -إن لم يكن أفضل من يتحدث- عن هذه المؤسسة التي تحمل لقب المؤسسة الدينية..

قبل أن أدعكم مع شيخنا أود أن أقول أن الأمم والحضارات لا تدخل دوراتها الحضارية ولا تبنى إلا بمؤسسات متنوعة قادرة على فعل البناء الحضاري وقادرة على بناء الأمم، متمكنة من بناء إرادة وفعل جماعي متصل ذي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

امتداد في الزمان والمكان قائم على تفاعل بين المشاركين فيه وانفعال يجعل الـدور الفردي دورًا قد لا يلتفت إليه وقد لا تُلحظ أهميتـه إلا في إطـار ذلـك المجمـوع الذي يشارك مؤسسيًا في صـنع العقـل الجماعـي الحضـاري. فـالمجموع يشـكل نسيجًا من علاقات متداخلة بين خيوطه بقـدر مـا تتـداخل وتـتلاحم بقـدر مـا تكون المؤسسة أقوى وامتداداتها أكثر فاعلية في الزمـان والمكـان. وحـين تعجـز الأمة عن بناء الجديد من المؤسسات الضرورية ومواصلة المحافظة عـلى القـديم منها والقائم منها فأن ذلك نذير خطير بعجز وبإرهاصـات انكسـار، ولعـل أول خطوات أمتنا التي سلكتها نحو مسيرة التراجع والتخلف بـدأت عنـدما بـدأت مؤسساتها بالانهيار فلم تتحرك الأمة بشكل جاد لإنقاذ تلك المؤسسات وإعـادة بناء ما انهار منها وإقامة ما كـان مهـددًا بالانهيـار أو كـان يريـد أن ينقضي.. إن عمليات تغيير وجهة أمتنا في العصور الأخيرة بدأت كذلك بتغيير مـا بقـى مـن مؤسسـاتها والانتقـاص منهـا وحـرف وجهتهـا في بعـض الأحيـان وإحـلال مؤسسات مستوردة من نسق حضاري أخر محلها لتبدأ الأمـة بمجموعهـا حالـة قلق نفسي واضطراب فكرى وتذبذب حضاري بلغ غايته في عصرنا هذا في كثير من بلداننا المسلمة... وبدايـة التجديـد والبعـث والإحيـاء لا يمكـن أن تنطلـق بشكل سليم إلا من خلال مؤسسات قد يبنيها أفراد أو تقيمهـا جماعـات لكنهـا ينبغي أن تحظى بحب وولاء وقناعـة الأمـة بكـل فصـائلها بمجموعهـا، لتبـدأ فاعليتها الحقيقية في التجديد والبعث والإحياء والأفراد بعد ذلـك أو الجماعـات المؤسسية قد يرفع لها ذكر في هذه الحياة وقد تنسى في حالة تمثل الأمة لمؤسسـاتها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن ذلك كله لا يؤثر على الاستمرار والاتصال إذا أريد وجه الله تعالى بالعمل وأُخلصت النوايا له جل شأنه.

إن مؤسسات التجديد والبعث والإحياء هي أدوات ضرورية لإحداث التغيير والنقلة الحضارية والفكرية وأولى المؤسسات بهذا التجديد و البعث والإحياء ما أطلق عليه المؤسسة الدينية، ومصطلح المؤسسة الدينية هو مصطلح بالنسبة لنا طارئ لم يستخدمه إسلافنا ولكن أستخدم وشاع في أوربا بعد عصر الأنوار حينما قيل أن هناك مؤسسة للشأن الديني تختص بالكنيسة وما يتعلق بها ومؤسسات المجتمع المدني، ثم لما بدأ العسكريون يلعبون أدوراً في حياة الناس صارت هناك المؤسسة العسكرية والمؤسسة الدينية ومؤسسات المجتمع المدني... أخونا الحبيب الشيخ / جمال قطب سيتولى الحديث عن المؤسسة الدينية، سيتناول هذا الجانب، سيلقى عليه من خلال خبرته الطويلة وتجاربه فيه أضواءً كاشفة نرجو الله أن تعين على إعطاء مؤشرات في عمليات بعث وتجديد شباب هذه المؤسسة وجعلها بحيث تخدم هذه الأمة وتخدم انطلاقة الإحياء والتجديد فيها للحاجة الماسة للأمة في وقتها هذا إلى هذه المؤسسة بالذات أكثر من أية مؤسسة أخرى، أترك الكلمة لأخينا وحبيبنا الشيخ / جمال الدين قطب ليتولى إنارة الجوانب المختلفة مما يتعلق بهذه المؤسسة في هذه السلسلة المباركة التي تناول مكتب المعهد في القاهرة فيها قضايا المؤسسة والمؤسسات من جوانب مختلفة فأرجو أن يتفضل مشكورًا بإتحافنا بما لديه من خبرة ثرية وتجارب غنية ويسلط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأضواء على هذه المؤسسة باعتبار ما هو كأن وباعتبار ما ينبغي أن تكون عليـه، فجزاه الله خيراً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المؤسسة الدينية

فضيلة الشيخ / جمال قطب

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، بداية نشكر المعهد العالمي للفكر ومركز الدراسات المعرفية، كما أعيد البدء بشكر استأذنا فضيلة الدكتور / طه على تشريفه لي شخصيًا بتقديم تلك الورقة وبحضوره معنا، فأهلاً ومرحبًا بكم جميعًا وبعد... في تتمة لما تركه لي أ.د. طه فعلاً ليس في الإسلام ما يسمى بالمؤسسة الدينية[1] وإذا شئنا أن نضع لها المسمى الإسلامي في تقديري فهي مؤسسة الدعوة لأن كلمة المؤسسة الدينية كلمة تاريخية في أوربا مشبوهة، إنها تريد أن تقيم رقابة على قلوب الناس تبيع صكوك الغفران، تملك بمفردها التحليل والتحريم، تنصب الحكام أو تعزلهم

---

(١) لم يعرف الإسلام وجود مؤسسة دينية رسمية تشابه المؤسسات الدينية اليهودية والنصرانية التي تهيمن على علاقات الإنسان مع ربه، وتحتكر التحدث باسم الدين أو تقوم بتفسيره. وإنما ترك كل ذلك لعامة الناس. وهناك آية في القرآن الكريم تدعو المسلمين للتفقه في الدين وهي {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (التوبة: ١٢٢) وهي تشير إلى ضرورة قيام نفر من كل فرقة من فرق الأمة ممن لهم قدرة علمية وفكرية ليتفقهوا في الدين، ولكنها لا تشير إلى احتلال تلك الطائفة موقعا مميزًا دينيًا، أو تشكيلها طبقة خاصة مقدسة، كما هو الحال لدى اليهود والنصارى. بتصرف من مقالة بعنوان "**دور المؤسسة الدينية السنية في تكريس الفكر الاستبدادي**" مقالة غير منشورة، أحمد الكاتب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعلن الحرب (الصليبية)، فالمؤسسة كانت تريد أن تستقل وأريد أن أكون واضحًا لو أتيح ما كان متاحًا في أوربا في بلد إسلامي لا ينبغي أن يستقل رجالاً بهذا الأمر ولو كانوا في حجم خليفة رسول الله r "أبو بكر الصديق" رضي الله عنه، فالوحي نزل ليوجد بين أيدي قوم يشاور بعضهم بعضاً لا تستقل فيه فئة بالقرار، هذا في مقتضى التلقي وتنزيل المتلقي على الواقع أما وصف الواقع لابد أن يكون في أيدي آخرين غير هؤلاء الذين يدرسون الوحي، بمعنى كما انتهى الفقه الإسلامي منذ أمد إلى أن القاضي لا يحكم بعلمه لابد أن مؤسسة الدعوة أذا سميت بهذا الاسم - لا تقضي بعلمها أنما تأتي بعلماء يفتونها بما يصلح و بما لا يصلح. فهي مؤسسة دعوة و أذا أردنا أن نمر عليها في هذه الجلسة المباركة فهي لها زوايا متعددة تاريخها وواقعها الذي نعايشه ومستقبلها الذي نرجوه لها هذا كله لا يمكن أن يوفى لا من شخص مثلى ولا في وقت ضيق مثل وقت حضراتكم لذا سوف نأخذ فقط لمحة من الماضي ونحن نصف الحاضر حتى نضع أيدينا على ما نريده من هذه المؤسسة كما نتصور من دراسة وحي الله لنا وبلاغ رسول الله r المبين للوحي ومن التجربة البشرية منذ زمن أبو بكر رضي الله عنه وحتى يومنا هذا.

معني كلمة مؤسسة

كلمة مؤسسة لابد أن تكون ذاتية الحركة لا أحد يغلق عليها منافذها من الخارج هذا ما نعنيه، لابد أن تكون ميزانيتها مستقلة وتعمل على تنميتها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستخدامها الاستخدام الأمثل وتتحكم فيها لا سلطان يحكمها ولا تيار يمنع عنها، ولعلى أوضح بأمر حدث في عصرنا الحديث في أول النصف الثاني من القرن العشرين حينما أفتى رجال الدعوة بالسعودية بعدم جواز تحصيل جمارك أو ضرائب على الدخان الداخل للملكة العربية السعودية. المستوردون تحيروا وتحدثوا مع ملك السعودية كيف من يأتي بثياب وملابس يدفع ضرائب ومن يأتي بمنكر لا يدفع وكان الملك "عبد العزيز آل سعود" رحمة الله عليه - مع أنه حاكم إلا أنه كانت له مسحة فقه- فأصدر قرار بعدم صرف رواتب المشايخ في بداية أول شهر يلي - وهذه حقيقة تمسني أنا شخصيًا- وتأخرت الرواتب لمدة شهر، فسأل المشايخ وزير المالية عن تأخر الرواتب، فرد قائلاً: ليس لدينا لكم رواتب فأنتم أفتيتم أن الدخان حرام ولا تؤخذ عليه جمارك أو ضرائب، فردوا أنه مكروه وليس حرامًا ويجب أن تؤخذ الجمارك والضرائب عليه.

هذه حادثه ثابتة في الأوراق وليست من دهاليز القصور فلابد وأن تكون المؤسسة مستقلة حتى ولو أفتت بالكراهة، بالمنع، بالحظر المؤقت لابد أن تعنى ما تقول فهذا ليس مجرد بيان صحفي، فأول سمات الاستقلال أن تكون حرة في ميزانيتها، وأن تكون حرة في تجنيد كوادرها... فعلى سبيل المثال الأجيال التي في عصرنا أو في القرن العشرين عندما بدأ الانتقال من نظام التعليم التقليدي إلى نظام التعليم الحديث، قالوا لمن يريد أن يتعلم ويدخل أولى ابتدائي، أن يكون حافظاً للقرآن والمتون،وكانت المتون ٦٥ متنًا منهم ألفية بن مالك وبعد ذلك يتدرج الطالب في سلك التعليم إلى أن يصل للجامعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لذلك كنت تجد خطيب الجامع حاصل على ابتدائية على سبيل المثال، أو شيخ بلد وعمدة ولكنه رجل مثقف جدًا وهو لم يكمل الابتدائية فعلمه على الأقل حفظ القرآن وحفظ ٦٥ (متنًا) حفظهم وفهمهم.

أما الآن فقد تكون نتيجة الدفعة ٣٠ % ولكن من أجل السلام الاجتماعي القيادة السياسية لا تنفعها هذه النسبة فتجعلها ٩٠ % فيصعد من رسب في جزء "عم" فيظل في العام التالي ضعيف المستوي وكما نجح ومر في العام السابق يمر هذا العام إلي أن نفاجأ بمدرس أو بخطيب يجهل الدنيا كلها فلا تصبح مؤسسة.... فالمؤسسة تستطيع أن تجند كوادرها تستطيع أن تضع منهجها، أن تعد مندوبيها، مستقلة في إدارتها في ميزانيتها، في وضع مناهجها غير ذلك لا يسمي مؤسسة وليس من التأسيس في شيء..

المؤسسة الدعوية

الواقع أن المؤسسة الدعوية في مصر بلغت غاية في القوة يشهد لها تاريخ غيرنا، عندما تقرأ تاريخ الحركة الصليبية في أوربا يقولون "طرقنا أبواب عشرين بلداً استطعنا أن نجوس فيها الديار ونستولي عليها إلا عندما ذهبنا إلي مصر تمت مقاومتنا وعدنا خائبين" عندما تقرأ تاريخ حروب التتار في المنطقة يذكر أنهم مروا من شرق أسيا وعند مصر وقفوا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بطل العصر الحديث وزعيم مدخل التنوير "نابليون" [1]جاء إلى بر مصر فحطمت أحلامه.. وهذه هي القضية التي تفرق بين عصرين من عصور

---

(١) قبل قيام الحملة الفرنسية على مصر، قدم شارل مجالون القنصل الفرنسي في مصر تقريره إلى حكومته في ٩ فبراير ١٧٩٨م يحرضها على ضرورة احتلال مصر، ويبين أهمية استيلاء بلاده على منتجات مصر وتجارتها، ويعدد لها المزايا التي ينتظر أن تجنيها فرنسا من وراء ذلك. وبعد أيام قليلة من تقديم تقرير مجالون تلقت حكومة فرنسا تقريرًا آخر من - تاليران - وزير الخارجية، ويحتل هذا التقرير مكانة كبيرة في تاريخ الحملة الفرنسية على مصر حيث عرض فيه للعلاقات التي قامت من قديم الزمن بين فرنسا ومصر وبسط الآراء التي تنادي بمزايا الاستيلاء على مصر، وقدم الحجج التي تبين أن الفرصة قد أصبحت سانحة لإرسال حملة على مصر وفتحها، كما تناول وسائل تنفيذ مشروع الغزو من حيث إعداد الرجال وتجهيز السفن اللازمة لحملهم وخطة الغزو العسكرية، ودعا إلى مراعاة تقاليد أهل مصر وعاداتهم وشعائرهم الدينية، وإلى استمالة المصريين وكسب مودتهم بتبجيل علمائهم وشيوخهم واحترام أهل الرأي منهم؛ لأن هؤلاء العلماء أصحاب مكانة كبيرة عند المصريين.

أعد نابليون وحكومة الإدارة الفرنسية حملة على مصر في عام ١٧٩٨م وكانت الحملة مكونة من ٣٦ ألف جندي. وفى يوم ١٩ مايو ١٧٩٨ اقلع أسطول فرنسي كبير مكون من ٤٠٠ سفينة تقودهم سفينة القائد (اوريليان) والتي تعني الشرق، من ميناء طولون، وبلغ الإنجليز أخبار مغادرة نابليون فرنسا وعهدوا إلى نيلسون باقتفاء أثره وتدمير أسطوله، فقصد إلى مالطة ولكنه وجد أن أسطول نابليون غادرها نحو الشرق منذ خمسة أيام، فرجح أنها تقصد مصر واتجه إلى الإسكندرية وبلغها يوم ٢٨ يونيو ١٧٩٨ فلم يعثر هناك للفرنسيين على أثر وحذر المصريين. وقد وصل الأسطول الفرنسي غرب الإسكندرية عند أبو قير في أول يوليو ١٧٩٨، وبادر بإنزال قواته ليلاً على البر ثم سير جيشاً إلى الإسكندرية. أنزلت المراكب الحربية الفرنسية الجيش الفرنسي في ١٧٩٨ في الإسكندرية ، ووجّه نابليون في اليوم ذاته نداءً إلى الشعب المصري، وأصدرت الحملة نداء إلى الشعب بالهدوء والتعاون وأن نابليون قد أعتنق الإسلام وأصبح صديق وحامي الإسلام. استولى نابليون على أغنى إقليم في الإمبراطورية العثمانية، وطبقاً للبروباجندا الحربية أدعى أنه "صديقاً للسلطان العثماني" وأدعى أيضا أنه قدم إلى مصر "للاقتصاص من المماليك" لا غير، باعتبارهم أعداء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السلطان، وأعداء الشعب المصري وهذه رسالة نابليون بونابرت الذي دعاه المؤرخين المسلمين الجنرال علي إلى شعب مصر: "بسم الله الرحمن الرحيم، لا اله الا الله وحده ولا شريك له في ملكه... ايها المشايخ والأئمة...قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك انهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحّث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكواللیرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك فإن الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني..أدام الله ملكه...أدام الله إجلال السلطان العثماني أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية". وظل محمد كريم يقاوم تقدم الجيش الفرنسي في الإسكندرية وظل يتقهقر ثم اعتصم بقلعة قايتباى ومعه مجموعة من المقاتلين، وأخيراً أستسلم وكف عن القتال، ولم يكن بد من التسليم ودخل نابليون المدينة، وأعلن بها الأمان. وفى ٦ سبتمبر ١٧٩٨ اصدر نابليون بونابرت أمرًا بتنفيذ عقوبة الاعدام في السيد محمد كريم "بميدان الرميلة" في القاهرة. أصبح نابليون بونابرت حاكمًا مسلمًا اسمه "بونابردي باشا"، وكان يطلق عليه المسلمين اسم علي نابليون بونابرت، وكان يتجوّل وهو مرتدي الملابس الشرقية والعمامة والجلباب. وكان يتردد إلى المسجد في أيام الجمعة ويسهم بالشعائر الدينية التقليدية بالصلاة، وكوّن نابليون ديواناً استشارياً مؤلفاً من المشايخ والعلماء المسلمين مكونا من١١عالما ويرأسه الشيخ عبد الله الشرقاوي. إلا أن أغرب الوثائق هي وصيته لكليبر التي يقول فيها: إذا أردت أن تحكم مصر طويلاً فعليك باحترام مشاعر الناس الدينية واحترام حرمات منازلهم. ووثيقة أخرى شديدة الإثارة عن حلم نابليون بحفر قناة السويس وعدم إضاعة قطرة واحدة من ماء النيل إذا قيد له أن يحكم مصر طويلاً، وأن يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية هائلة شرق السويس تمتد حتى إيران وأفغانستان، فأنا لست أقل من الإسكندر الأكبر. رغم حزني الشديد لأن الإسكندر غزا مصر في سن السادسة والعشرين بينما أنا في الثامنة والعشرين. وهناك وثيقة أخرى رقم٣٦١٨ بتاريخ٤ نوفمبر١٧٩٨ يوقع فيها بونابرت علي قرار عسكري بأن تدفع فرنسا رواتب شيوخ الديوان، وهم الشيخ إسماعيل البراوي والشيخ يوسف الموصلي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ سليمان الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي. ويبدو أن هؤلاء لم يكونوا قد انضموا إلي علماء الديوان في تكوينه الأول. وهناك أوامر عسكرية في سطور قليلة تكشف عن كيفية إدارة شئون الجيش الفرنسي في مصر. وتكشف الوثائق عن وجود مراسلات بين المعلم يعقوب قائد كتيبة الأقباط وجرجس الجوهري أحد أعيان أقباط مصر، وهي خطيرة لأنها تكشف عن مخططات واسعة المدى للفصل بين أقباط مصر ومسلميها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مؤسسة الدعوة... الصليبية العالمية "تورمت" ماذا وقد سقط المماليك؟ ماذا وقد سقط الجيش؟ ماذا وقد سقط ما يسمى بالدفاع المدني؟ ما الذي جعل مصر تثبت لدرجة رجوع نابليون إلى فرنسا فاراً ويترك القائد "كليبر" فيقتل على يد

(الرسالة رقم٣٨٧٢ بتاريخ٧ ديسمبر١٧٩٨). ثم هناك رسالة تهنئة بتاريخ٢٦ فبراير١٧٩٩ تحت رقم٤٢٦٢ للجنرال مينو علي قيامه بإلقاء خطبة الجمعة كمسلم في مسجد غزة في أثناء الحملة علي الشام، ويقول له: إن أفضل الطرق للحفاظ علي السلم في مصر هو تبني عقيدة الإسلام أو علي الأقل عدم معاداتها واجتذاب ود شيوخ الإسلام ليس فقط في مصر بل في سائر العالم الإسلامي. وتكشف وثائق أخرى عن توصيف دقيق بقلم نابليون نفسه لبعض المعارك الحربية مثل معركة الرحمانية(رقم٤٦٢٦ بتاريخ٢٠ يوليو١٧٩٩)، وأخرى في اليوم التالي، ثم أخرى لأهالي القاهرة للتأكد من حيادهم في حربه ضد مسلمي الشام. ثم عشرات الرسائل والأوامر بإعدام المجرمين وقطاع الطرق في القاهرة، وأيضًا إعدام جنود فرنسيين ثبت إجرامهم في حق الأهالي. علي أن أشد هذه الوثائق إثارة هي الوثائق الأخيرة التي وقعها قبل رحيله عن مصر، ومنها وصيته للجنرال كليبر رقم٤٧٥٨ بتاريخ٢٢ أغسطس١٧٩٩ ثم وثائق أخرى تثبت أنه كان ينوي بعد عودته إلي فرنسا إرسال تعزيزات وجيش جديد لمصر، لكن استسلام مينو في الإسكندرية في يوليو١٨٠١ قضي نهائيا علي حلمه. من أقوال نابليون حول مصر: ١. في مصر لو حكمت لن أضيع قطرة واحدة من النيل في البحر، وسأقيم أكبر مزارع ومصانع أطلق بها إمبراطورية هائلة، ولقمت بتوحيد الإسلام والمسلمين تحت راية الإمبراطورية ويسود العالم السلام الفرنسي. ٢. في مصر قضيت أجمل السنوات، ففي أوروبا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغير التاريخ، أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغير التاريخ. ٣. لو لم أكن حاكمًا علي مصر لما أصبحت إمبراطورًا علي فرنسا. ٤. الرسول محمد ، بني إمبراطورية من لا شيء.. من شعب جاهل بني أمة واسعة.. من الصحاري القفر بني أعظم أمبراطورية في التاريخ. ٥. الإسلام كالمسيحية تفسدها السياسة ويلعب القائمون عليها بالنار إذا تخطوا حدود أماكن العبادة لأنهم يتركون مملكة الله ويدخلون مملكة الشيطان. ٦. حلمي تجسد في الشرق بينما كاد يتحول إلي كابوس في الغرب. ويكبيديا الموسوعة الحرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"سليمان الحلبي"، و القائد "مينو" يعلن إسلامه، انتهى حلم فرنسا في الشرق ببركة ماذا؟ بدأت الصليبية العالمية تدرس ذلك فوجدوا أن المماليك سقطوا، أصحاب الأموال سقطوا، مؤسسات الدولة سقطت ولم يبق إلا ثقة بين رجال مؤسسة الدعوة وبين الشعب (ثورة القاهرة الأولى والثانية)..

تاريخ اختيار شيخ الأزهر

هذه هي طبيعة المؤسسة أن تكون موضع ثقة.. ممارساتها، أدائها، لا يجرب عليها حظ نفسها، لا يجرب عليها الافتاءات.. كيف كان يأتي شيخ الأزهر؟ إلى أن تولى محمد على السلطة لمدة ١٠٠٠ سنة ـ كان الأزهر يُدّرس الأربعة مذاهب، المدرسين يعرفون مشايخهم، أرقى رجل علماً في المذهب هو شيخه، يليه مفتى المذهب فكانوا يقولون مفتى المالكية، مفتى الحنفية، فيجتمع هؤلاء الثمانية إذا اختاروا واحداً يرسل إلى الحاكم يصدر به قرار شيخ الأزهر، إذا لم يختاروا لتقارب بين اثنين منهم فحتما عليهم أن يرسلوا ثلاثة للحاكم ليختار واحداً من بينهم. واستمر الأزهر ألف سنة لا تجد في مصر ـ تطرف ولا إرهاب ولا قتل ولا تربص بأحد.. لما؟ لثقة الشعب أن هؤلاء إذا نطقوا (فهم مستقلون) لا يبغون جيبهم ولا يبحثون عن منصب ولا تجرى ألسنتهم خلف ما يلقى لها من شباك العولمة أو غيرها... ثم بدأت الصليبية ترسم سياساتها كيف يتعامل الغرب معنا وكيف تختار أنواع الحكم هنا ـ تختار من وتدع من؟ بدأ محمد على ـ وهو من أتى على يد المشايخ ـ فنفاهم لأنهم هم من أتوا به وهم من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يستطيعون أن يذهبوا به مرة أخرى إذا رأوا عدم صلاحه، كما فعلوا مع نـابليون وقاوموه ودعوا الشعب لمقاومته حتى هرب ولم تستمر الحملة الفرنسية إلا ثلاث سنوات.

تدخل السياسة في المؤسسة الدينية

من هنا بدأت السياسة تتدخل في شؤون المؤسسة ثم بدأت تبعث قلـيلاً من المال وتحجبه إلى أن صار الوضع كم نرى الآن.. لأول مرة الأزهر مـن ألـف سنة يدرس لطلبة الأزهر كتاب - أيًا كـان رأينـا في هـذا الكتـاب- مـن تـأليف الإمام الحالي (الشيخ / سيد طنطاوي) في فترة حكمه هذا ليس نظام مؤسسـات، فهل جئت من فراغ أين الكتاب الذي تعلمت عليه؟ لـو كتـب عليـه حاشـية أو ألف كتاب ينقده يمكن أن يدرس بعدك ويمر بالمراحل المتعارف عليها في إجازة تدريس الكتب في الأزهر، يدخل مجمع البحوث ويأخـذ فيـه قـرار ويعمـل فيـه منهج.. لكن أنت تتولى الأمر كشيخ أزهر وتريد أن تخرج أجيالاً بفكـر رجـل لا ثاني له فهذا ليس نظام مؤسسات بل إنشاء مذهب بالقوة، وتيار آخر فـإذا كنـت أنت في حكم "س" أو "ص" من المؤسسات فقدت مؤسسة الـدعوة معناهـا... حتى تولى محمد على وأسرته إل ١٥٠ سنه حتى بداية الثورة - بقيت المؤسسـة في تلك الفترة نصف الفـترة قويـة (تعـالج آلام الصـدام مـع الرجـل الأول فقـط وتجتازه إلى أن كثر رواد المدرسة الغربية من أبنائنا وبدأ الفكر الصليبي يتسلل).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما الذي حدث؟

ما الذي يقصم الظهر؟ الحوار في غير طائل، جدل غير المتخصص، دعوى الرأي والرأي الأخر، لننتبه متى يكون الرأي الأخر لابد أن يكون هناك صاحب قرار فخلال نصف الفترة كانت المؤسسة الدينية قوية تؤدي دورها، ولكن كيف تخترق؟ تم ذلك على مرحلتين. كان في مصر ـ نظام قضائي اسمه النظام الشرعي - هذا بخلاف المؤسسة الدينية - المؤسسة القضائية، كل محافظه بها ٣ أو ٤ محاكم ابتدائية ومحكمة كلية ومحكمة عليا تسمى المحكمة العليا الشرعية[1]. نائب رئيس كل محكمة هو مفتى هذه الدائرة، أي مفتى قضايا هذه

---

(١) كانت **المحاكم الشرعية** هي الهيئة القضائية الأساسية في مصر في العصر العثماني، حيث كانت تنظر في جمع أنواع النزاعات المدنية والتجارية والجنائية والأحوال الشخصية. وكانت مصر تتبع نظام قضاة المذاهب الأربعة، ولكن القاضي الحنفي كانت له الرئاسة لأن المذهب الحنفي كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية. وكان قاضي القضاة (قاضي عسكر) يعين من استانبول، ثم يقوم هو بتعيين نواب له في محاكم القاهرة والأقاليم.

مراحل إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحكم في الديار المصرية:

- أول من حاول أن يتلاعب بالشريعة الإسلامية في العصر الحديث في الديار المصرية هو نابليون بونابرت عندما احتل مصر سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٨م حيث حاول تغييرها واستبدالها بالقانون الوضعي ومن أجل ذلك أنشأ في مصر محكمة سماها "محكمة القضايا" وهي هيئة تتكون من أثني عشر تاجراً نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين وأسند منصب الرئاسة فيها إلى قاضي قبطي وجعل من اختصاصها النظر في المسائل التجارية ومسائل المواريث وقد شكلت هذه المحاكم في كل من الإسكندرية ورشيد ودمياط.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- ثم أنشأ خليفة نابليون "منو" لكل طائفة من الطوائف غير الإسلامية من الأقباط والأروام واليهود وغيرهم محكمة خاصة يتولى رئاستها قاضي على نفس الملة وذلك كي تنافس هذه المحاكم المحاكم الشرعية التي كانت ما زالت قائمة وتعمل.
- وفي عهد "محمد علي" تقلص القضاء الشرعي حيث أنشأ ما يسمى "بالمجالس القضائية المحلية" بجانب المحاكم الشرعية وقد أخذت هذه المجالس كثيراً من اختصاصات المحاكم الشرعية، ولكن ظلت المحاكم الشرعية هي التي تحكم بين الناس في الديار المصرية حتى سنة ١٨٥٦م ولكن منذ هذه السنة رأت الحكومة المصرية في عهد سعيد باشا إنشاء محاكم سميت 'مجالس قضائية محلية' وكانت تحكم بمقتضى الخط الهمايوني، ثم تشعب القضاء في مصر- نتيجة المعاهدات الخارجية والامتيازات الأجنبية التي كانت وابلاً على الخلافة والمسلمين وأصبح قناصلة البلاد الأجنبية يحكمون بين رعاياهم والحائزين للحماية.
- وفي عهد الخديوي إسماعيل سنة ١٨٦٣م وجد أن النظام القضائي الذي يخضع له الأجانب في حالة فوضى شديدة وفكر إسماعيل في إنهاء كل هذه الفوضى وإعادة الحكم بالشريعة الإسلامية ولكن بطانة السوء لا تأمر إلا بالشر ولا تدعو إلى خير أبداً خذلته عن ذلك حيث عمل "نوبار" (مسيحي) الذي كان يعمل وزيراً للخارجية إلى إيجاد فكرة المحاكم المختلطة وقد وافقت الدول صاحبة الامتيازات على فكرة نوبار باشا لأنها تهدف في المقام الأول لإقصاء الشريعة وبالفعل قامت المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٠م وقد اشترطت الدول الأجنبية أن تكون مصادر تلك المحاكم المختلطة مستمدة من القوانين الفرنسية!! وقد كلف محام فرنسي يدعي "مونوري" بوضع القوانين التي ستطبق على تلك المحاكم.
- تألفت في أواخر سنة ١٨٨٠م لجنة لوضع لائحة لمحاكم نظامية وقامت هذه اللجنة المشكلة من المسيحيين فقط لتقنين القوانين الوضعية ولكن اشتعال الثورة العرابية حال دون إكمال تلك المهمة الخبيثة، فلما احتل الإنجليز مصر أعادوا عمل تلك اللجنة الشريرة وأكملت مهمتها سنة ١٨٨٣م إلى الوجه القبلي وهكذا أقصيت الشريعة الإسلامية واستبدل بها القانون الوضعي الفرنسي ولم تعد المحاكم الشرعية هي صاحبة الاختصاص العام ولم يبق في اختصاصها إلا الأحوال الشخصية.

ثورة يوليو وإلغاء المحاكم الشرعية:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنطقة كلمه مفتى في مصر منذ ألف سنة وأكثر تعنى أنه مفتى قضائي كوكيل النيابة، لدرجة أن أي مفتى في أي محكمة عندما كان يدخل الجامع بعمامته فُيطلب منه أن يصلي بالناس إمامًا فيرفض لأنه ليس إمام راتب للمسجد، فالمسجد معين له إمام أما لكي لا يحدث لبس على الناس وكان أيضاً لا يخطب الجمعة، لا يصدر بيانًا على الناس، كعمل القضاة، فتفتق ذهن الانجليز مع الخديوي عباس على أن يقللوا من نفوذ شيخ الأزهر فقالوا بدلاً من أن يستمع الناس إلى رأى رجل واحد فلنجعله رأيين - فطرح رأيين على أمة المقصود بذلك تقسيمها لناديين ثم هناك أربعة مذاهب فتنقسم الأمة بعد ذلك بدلاً من رأيين إلى أربعة فرق فلا تنتج.. فنجد أن أوربا خمسة وعشرون دولة تجمعت تحت عملة واحدة وقرار واحد ودستور واحد، والمسلمين في مصر ـ وغيرها يسيروا وراء أربعة مذاهب وأربعين إمامًا.. فبدأوا هذه اللعبة على مصر، وأشير إلى المحكمة

- عندما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م كانت تهدف في المقام الأول لإقامة دولة على الطراز الجمهوري العلماني على النمط الغربي لذلك فكان من الضروري لقبولها على الساحة الدولية أن تقدم القرابين اللازمة لنيل رضا الدولة الصليبية بإعلان التأكيد على علمانية الدولة بنبذها التام للشريعة الإسلامية.
- أصدرت الثورة سنة ١٩٥٢م قانوناً يقضي بإلغاء الوقف الأهلي تمهيداً لإلغاء محاكمة الخاصة ثم أصدرت في ٤ صفر ١٣٧٥هـ / ٢١ – ٩ – ١٩٥٥م قراراً فشل في اتخاذه كل أعداء الإسلام الذين تقلبوا على حكم مصر من لدن نابليون حتى خلفاء محمد علي وآخرهم فاروق حيث أصدر قراراً بإلغاء المحاكم الشرعية الخاصة بالأحوال الشخصية تماماً وضمها للمحاكم العامة وألغيت كل القوانين المتعلقة بترتيبها واختصاصها وألحقت دعاوي الأحوال الشخصية والوقف والولاية إلى القضاء العادي. ويكبيديا الموسوعة الحرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العليا الشرعية كان يرأسها شيخ الأزهر، وآخر من تولى هـذا المرحـوم الشـيخ / حسونة النواوى[1] وقبله الشيخ / عباس المهدي العباسي[2] كل منهم لمدة ربع قرن

---

(١) في الثامن من المحرم سنة (١٣١٣هـ الموافق ١٨٩٥م) أصدر الخديوي عباس حلمي الثاني قـرارًا بتعيـين الشيخ حسونة النواوي شيخًا للجامع الأزهر، وكان الشيخ حسونة النواوي من نوابغ رجال الأزهر، وعمـل بتدريس الفقه في كليتي: الحقوق، ودار العلوم. ووضع مؤلفًـا بعنـوان (سـلم المسترشـدين في أحكـام الفقـه والدين)، وقد رزق هذا الكتاب الذيوع والانتشار، واشتهر شهرة واسعة جعلت القائمين على نظارة المعـارف يقررون تدريسه بالمدارس الأميرية.

إصلاح الأزهر في عهده:

بادر الشيخ حسونة النواوي إلى الدعوة إلى إصلاح الأزهر منذ أن تولى المنصـب الجليـل، وارتـبط اسمه بالقانون الذي صدر بعد سنة واحدة من توليه المشيخة في (٢٠ من المحرم ١٣١٤هـ الموافـق ١٨٩٦م) وكان للشيخ "محمد عبده" يد صادقة وراء إصدار هذا القـانون، الـذي خطـا بـالأزهر خطـوة واسـعة نحـو الإصلاح؛ إذ حدَّد هذا القانون سن قبول الطالب بالأزهر بخمسة عشر عامًا، وأن تكـون لـه درايـة بـالقراءة والكتابة، وأن يكون حافظًا للقرآن الكريم أو على الأقل نصفه، ومنع هذا القانون تدريس كتب الحواشي منعًا باتًا، وقصرها على الطلبة المتقدمين دراسيًا، ونظم القانون الامتحانات، وجعلها على مرحلتين :

- الأولى بعد ثماني سنوات من التحاق الطالب بالأزهر، وتحصيله ثمانية علوم على الأقل من علـوم اللغة والدين، ويختبر أمام لجنة تتكون من ثلاثة من العلماء برياسة شيخ الأزهر، والنـاجحون إمـا أن يكملـوا دراستهم بالأزهر في المرحلة التالية، وإما أن يتم تعيينهم في وظـائف الإمامـة والخطابـة والـوعظ بالمسـاجد.

- وأما المرحلة الثانية فتنتهي بامتحان الشهادة العالمية لمن أمضى اثنتي عشرة سنة من الدراسة، وتلقـى العلـوم المقـررة بـالأزهر، ويصـبح مـن حـق الحاصـلين عليهـا التـدريس بـالأزهر.

وعني القانون بشئون الطلاب، فاهتم بتحسين أحوالهم المعيشية، ووسع لهم في المساكن الصحية، وحـدد لهم بعض المعونات المالية.

(٢) أحد شيوخ الأزهر وهو الشيخ محمد العباسي المهدي كان جده لوالده نصرانيا أسلم علي يد الشيخ الحفني الإمام الثامن من شيوخ الأزهر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الأقل. الشيخ حسونة ظل ستة عشر عاماً في المنصبين وقبله الشيخ المهدي العباسي، وقد كان أعجوبة حيث كان جده مسيحي وأسلم وتولى هو مشيخة الأزهر والإفتاء ثلاثة وعشرون عاماً ، واستقال منهما برغبته.

تاريخ دار الإفتاء

فمعنى مؤسسة أنها تملك قرارها ولا ينازعها أحد الرأي، فقوة وحدة الأمة التي تعبد إلها واحدًا وتتبع كتاباً واحدًا وجاءها نبي خاتم إن تجمع على رأى واحد.. فتم تلميع الشيخ محمد عبده[1] رحمة الله عليه وهو مفتى قضاء (أول من شق هذا المنصب) فقالوا بأنة مفتى المحكمة العليا الشرعية (مفتى الديار المصرية) ويكون غير شيخ الأزهر وقيل للشيخ ستعين مفتى تمهيدًا لتعيينك للمشيخة، وقيل له أنت زعيم التنوير، وهؤلاء الجماعة هم المحافظين وبدأت الجرائد تجد من يتكلم بلغة غير اللغة التي تعودوها من الأزهر فرحب به قوم

(١)"الامام" **محمد عبده**، ولد محمد بن عبده بن حسن خير الله سنة ١٢٦٦ هـ الموافق ١٨٤٩م في قرية محلة نصر بمركز شبراخيت في محافظة البحيره. في سنة ١٨٦٦م التحق بالجامع الأزهر، وفي سنة ١٨٧٧م حصل على الشهادة العالمية، وفي سنة ١٨٧٩م عمل مدرساً للتاريخ في مدرسة دار العلوم وفي سنة ١٨٨٢م اشترك في ثورة أحمد عرابي ضد الإنجليز، وبعد فشل الثورة حكم عليه بالسجن ثم بالنفي إلى بيروت لمدة ثلاث سنوات، وسافر بدعوة من أستاذه جمال الدين الأفغاني إلى باريس سنة ١٨٨٤م، وأسس صحيفة العروة الوثقى، وفي سنة ١٨٨٥م غادر باريس إلى بيروت، وفي ذات العام أسس جمعية سرية بذات الاسم، العروة الوثقى. محمد عبده رائد الإصلاح في العصر الحديث من موقع إسلام أون لاين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه قصة ما يسمى بالاستنارة ومحمد عبده والفكر والتنوير... كل هذا الكلام لأنه قال للأزهر لا، فلما قال لا للأزهر لم يعد هناك من يقف أمام الخديوي ولم يبق من يؤكد مشروعية الجهاد ضد الانجليز أصبح هناك رأيين، من يدعو للجهاد وأخر يدعو للتسامح والبطء والأول وراءه ثلاثة أو أربعة أحزاب والآخر سجل له ثلاثة أو أربعة أحزاب فهذا هو المناخ.

عندما نسمع أن فلانًا بعلمه وبقيمته وبكرامته أصبح مفتي الديار المصرية يمكن أن ينشئ مؤسسة بمفرده. أنا أقول لا، فالإفتاء جزء من كل لابد أن يكون لديك المنهج والأتباع والقرار والمسائل التي تقرها، لكن إفتاء في الهواء فأنت تنتقى فلا يوجد شيء اسمه مؤسسة إفتاء، فإذا لم يدخل الإفتاء تحت عباءة الأزهر فأكون عن غير عمد سرت في الطريق الذي رسمه غير الأمة لأبنائها.

الأزهر به مشاكل، أصححها، لا أستطيع أن أصححها أستقيل لكن أن تقوم دار الإفتاء التي أنشئت لكي تصدر الفتوى من لجنة علماء وتحضر مجموعة علماء من تلامذة أو زملاء المفتي وأفتي بهم وأقوم بتدريب المفتين، نفس هذا الكلام ستجدونه بشكل أبشع في الجزء الثاني، هل أصغر يدرس ما يراه ليس له مجلس أعلى يراجعه، رجل يقدم ويؤخر أيًا كان هذا الرجل، صلاحية دار الإفتاء حتى تاريخه حتى لو صدر لها قرار لها بالاستقلال ليس في وسعها أن تكون مؤسسة لأنه ليس لديها ما تربيه وليس لديها الكوادر التي تصعد منهم وليس عندها من تشاوره هو رجل ويؤتى إليه بحواشي الدار من أكثر من جهة قد تمتد ساعده ويستطيع أن يدبر بند فينتدب عشرة أو اثني عشر وكيل نيابة من خريجي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلية الشريعة أو حوالي عشرين أو ثلاثين من المعيدين بصفة مؤقتة لكن المؤسسة بعملها قول رجل والباقي سكرتارية لا قيمة لهم ولا معول عليهم، وتطغى المؤسسة السياسية في التعمية على الناس.

هو وكيل وزارة عدل، بدرجة وزير لكن يشاور من؟ يشاور من يعجبه ليس له خطة ملزمة ليس من الضروري أن يذهب لكلية الشريعة ويأتي بالدعاة، غير ملزم أن يقرع حجه الحنابلة بحجة الشافعية، من يروق له كشخص، لا معقب عليه من جهة الشرع لكن عليه ٥٠٠ معقب من جهة الإدارة. ودعني أقول لك كلنا رموز هذه المؤسسة في الإفتاء وفى الأزهر مشايخنا وإخواننا لا نُجرح أحد ولكن نصف واقع، حينما تعرض قضية ترى فيها رأى رجل، قضايا الختان تسمع فيها رأى وزير الأوقاف، بعد جمعتين على استحياء تقول أمانة الفتوى، أين مجمع البحوث؟ هذا هو المطلوب إشاعته، هذا الرجل لم ينافق ولكن ذكر مذهبه، لكن الحكومة تريد هذا الرأي فتذيع ذلك في الإعلام.

لا أريد أن أقول عن تجربتي في السكرتارية الخاصة للمشيخة لكن أنا أصف واقع، ترى الرأي مربوط بشخص أين الثلاثة الآخرين، ولماذا عندما تحرجون تجمعوا المؤسسات، هل هناك شيء يسمى المؤسسات الدينية؟ يوجد جيش واحد وثلاثة مؤسسات؟ شرطة واحدة وثلاث رؤوس دينية؟ وعندما يريدون أن يوسعوا المؤسسة الدينية يأخذون رئيس الجامعة فتصبح أربعة. هذه عملية تضخيم وحسب. هذا ما تم في الإفتاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لعلى استطرد دقيقه لكي أقول لكم كيف تم هذا؟ الشيخ محمد عبده كان أستاذًا في الأزهر، له عمود وتم اختياره لمنصب المفتى - انظر إلى التخييل - وسأقول معلومة جديدة على حضراتكم، منصب المفتى (موظف بوزارة العدل أو سابقًا قبل الدكتور نصر فريد واصل والشيخ علي جمعه) وكيل وزارة رئيس مصلحة الإفتاء بوزارة العدل حاليًا على درجة وزير رئيس دار الإفتاء لكن مرؤوس للوزير ماليًا وإداريا وسياسيا شاء أم أبى، الشيخ محمد عبده رحمه الله عليه تولى الأمر وفى ذهنه أنه سيطور ويحدث، وجماعة الأزهر هؤلاء محافظين فكانت وزارة العدل وقتئذ كلها أجانب - المحاكم الشرعية متقوقعة في مكانها - أين يضعوا مكتبه؟ وضعوه في الرواق العباسي باعتباره شيخاً، فقالوا لنجعل هذا المكتب هو مكتب المفتى فظل أربعة أشهر يزاول الإفتاء بحكم أنه مدرس في الأزهر من مكتبه في الرواق العباسي ثم تولى المشيحة الشيخ "الشربيني" رحمه الله عليه، وكان مدرك طبيعة الأزمة ويشعر بها وكان زميل الشيخ محمد عبده لكن في نفس الوقت شيخه ومدرس مثله - عهد إليه بالمشيخة وكان البروتوكول يقضي أن أمين الدار أو سكرتير الدار يصحب الشيخ الجديد ليعرفه بالكوادر الموجودة فطلب أول ما طلب أن يعرف إليه صانع القهوة، فأستغرب القهوجي لأنه يقدم القهوة للشيخ منذ ثلاثين عاماً فعرفه الصانع بنفسه فسأله الشيخ الشربيني من أين تصنع القهوة؟ فقال له من مياه الميضأة، فقال له إن شرط وقف الميضأة يقول: إن الماء لوضوء وطهارة طلاب العلم وليس لأي شيء آخر وأعطاه جنيهاً ليأتي بماء القهوة من الخارج، فبالأمس لم أكن مسئولاً أما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اليوم فأنا كذلك وتعرف على الموجودين حتى وصل إلى الشيخ "محمد عبده" فتم الحوار الآتي: فعرفه السكرتير بالشيخ محمد عبده قائلاً إنه مفتى فسأله: أنت مفتى من؟ فأجاب: مفتى الحقانية. فرد عليه: إذن لما بقاءك هنا فلتذهب إلى الحقانية، هل الأزهر بحاجة إلى من يفتى له؟ نحن نعلمك كي تفتى لغيرنا ولتشرب معي القهوة إلى أن يذهبوا بمكتبك إلى الحقانية، نحن نعلمك لغيرنا وليس لنا.

وخرج مكتب الشيخ محمد عبده كمفتى صنعته الإدارة الانجليزية والقصر من الأزهر فلم يجد له مكاناً في وزارة العدل وظل قرابة خمسة وسبعون عاماً في شقق مؤجرة في ميدان الأوبرا القديم ثم في عمارات السياحة بالعباسية وهذا هو المكان الذي شغله الشيخ سيد طنطاوي قبل إن ينشئ هذا الدار، الميزانيات كانت أضعف قبل الآن، أما ألان فهناك ضريبة مبيعات وزاد الدخل فأنشئوا لها مؤسسات إلى جانب المؤسسة، أليس الأزهر قبة فليكن قبتين ليس حباً في "علي جمعه" أو "نصر فريد واصل" أو خدمه الدين إنما رغبة في شق عقلية هذه الأمة وأن يكون حينما يدعى الأمر لجهات أو لأداء دور نبقى أمام رأيين على الأقل.

نجحت الفكرة وبدأت دار الإفتاء تخرج من القضايا وتتكلم مره في الصلاة ومره في الطهارة ومره في الآذان ومره في رؤية الهلال لكن وظيفتها مقصورة طبقا للقانون حتى اليوم على إشهاد الهلال وإشهاد الفيضان من كل عام لكي يدفع الفلاح المال والإدلاء بالرأي في قضايا الحكم،.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشيخ محمد عبده اكتشف هذه اللعبة، حين كان في أجازة وأثناء تصفحه الجريدة وجد أن شخصاً حكم عليه بالإعدام وأحيلت أوراقه لفضيلة المفتى، وهو في أجازة وليس له نائب- فأتصل بالدار ليسأل عن القضية فوجدها لديهم فسأل هل أرجعتموها للمحكمة؟ فكان الجواب بنعم، فتساءل كيف وأنا في أجازة ولم تعرض علي؟ فكان الجواب: لأنك لم تطلب. فسأل: كيف عادت للمحكمة؟ قالوا: لدينا الختم الخاص بكم، أليس لدينا ختم (أكلاشيه) للشيخ محمد عبده مفتى الديار، الورق يظل لدينا عشرين يومًا ثم يختم ويرسل للمحكمة، حضرتك قرأت تختم، لم تقرأ تختم أيضًا لان رأيك أولاً وأخيرًا استشاري.

هذا الكلام ليس استهزاء بالدين بل بالناس فحتى اليوم إذا رأينا في المحكمة أن أوراقا أحيلت للمفتى نعرف أنه لا تقديم ولا تأخير بسبب إنها لا تحال إلى المفتى إلا بإجماع الأعضاء فلا يصدر حكم الإعدام في مصر- إلا بإجماع الهيئة ويكون تمهيده أن يعرض على المفتى - أي أن هذا شكلاً لحفظ الدماء، فالقانون الوضعي يحكم في كل الجرائم بمفرده ولكن عند حكم الإعدام يضع بينه وبين المحكوم عليه شيخا - نجحت هذه المسألة، ومات الشيخ محمد عبده وتلاه الكثير في المنصب.

كيف أنشئت وزارة الأوقاف

عام ١٩١٣ جاءوا بالشرخ الأخر فالآن حين يدعى إلى مقاومة الانجليز هناك من يدعو للجهاد وهناك من يدعو للمسامحة والتفكير هؤلاء تبع المفتى والآخرون تابعين للشيخ هؤلاء تشددوا، وأولئك فيهم سماحه، هؤلاء حنابلة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والآخرون مالكية، كل هؤلاء موجودون دائمًا ولكن ينبغي للأمة أن تسير خلف واحد فقط، فقالوا لنجعلهم الآن ثلاثة، وكان في مصر ـ حاكم عسكري اسمه (كوتشنر) قدم مذكرة رسمية - وهذه موجودة في الكتب - في ٩ أغسطس ١٩١٣: على الحكومة المصرية أن تزيد حقائب الحكومة حقيبتين، واحدة لوزارة الزراعة - لم تكن موجودة - وأخرى لوزارة الأوقاف لإدارة شئون المساجد وعمل لها حيثيات فسلم الخديوي وكان الوزيرين، وزير الأوقاف في الأصل: ناظر أوقاف يرى غلة الوقف ويصرفها طبقا لشرط الوقف - أي أن ناظر الوقف محاسب ـ ولكنهم جعلوا المساجد تابعة للأوقاف لكي يتسللوا منها لحكم الإمام والخطيب (ماذا تقول ومتى تقول).

وأنشئت وزارة الأوقاف وتولاها سياسيون ونادرًا ما تولاها شيخ أو أزهري قبل الثورة إلا اثنين لا ثالث لهما وهما أخوين المرحوم الشيخ / مصطفى عبد الرازق والشيخ /علي عبد الرزاق، قبل ذلك كانوا كلهم باشاوات منهم محب باشا (له جامع في الزمالك) والشيخ مصطفى عبد الرزاق قد تم تعيينه وزير الأوقاف خمس مرات لكي يرشحوه للمشيخة عوضًا عن عضويته في هيئة كبار العلماء وأخوه الشيخ / على عبد الرزاق عين وزير الأوقاف إعلانًا لأنهم قد قبلوا توبته عن الكتاب الذي كتبه عن "الإسلام وأصول الحكم" لكن حين جاءت الثورة استدركت فمرة يأتون بحسين الشافعي وأخرى أمين هويدي وثالثة جمال رفعت وأحمد خليفة، عبد الحليم محمود وغيرهم حتى يعلم الناس إن المسألة ليست شرعًا بل قضية إدارة وكلنا طيبون وأولاد حلال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصبحت الساحة في مصر تضم جيشًا واحدًا وشرطة واحدة وتموينًا واحدًا، ولكن إذا كان الدين فأنهم ثلاثة رؤوس يستعين صاحب الطلب بمن شاء. أنا أقول كلمة (يعتبرها البعض مجاملة) إن فضيلة الإمام الأكبر لا يطلب منه أبدًا أي شيء (لم يطلب منه أحد الكلام عن البنوك أو أي شيء) إنما هي طريقة التجنيد عندهم أيضًا الاحتياطي إذا جاء فلته كالشيخ / جاد الحق يستعينوا عليه بالمفتى وإذا كان الاثنين فلتات فهناك وزير الأوقاف وإذا لم يكن ذلك فتتغير الوزارة.

إذاً بني النظام السياسي في هذا القرن على ذلك وهذا الكلام ضيق أفق سياسي عند الصفوة فمادامت قد جعلت الرأي لثلاثة فليصبح الثلاثة أربعة وجاءت الجمعيات الخيرية ثم الجماعات ثم التنظيمات ردًا على ما فعلته الحكومة ـ وهذا رأي الرجل العادي ـ فما دمتم قد أنشأتم مؤسسات دينية فلننشئ نحن أيضًا ما نراه مناسبًا. فالأزهر لما كان يقوم بدوره لم يكن هناك جماعات ولا تطرف ولا إرهاب ولكن حينما يكون هناك رؤوس مختلفة - أنتم ثلاثة فليكن أربعة ولما لا فلا حرج وهكذا تكون الدولة هي من أعطت المشروعية لهؤلاء. هل يمكن أن تستقل المساجد في دولة ما فتكون مؤسسة دينية؟ أنا أقول كلا لأن المسجد مجموعة من الناس وخطيب واحد، من الذي يعلمه؟ لابد وأن تكون مؤسسته، من الذي يراجعه؟ لابد وأن تكون مؤسسته. هل يعقل أن خطيب مسجد كلامه قد لا يعجب عضو المجلس المحلى فيطلب العضو من المحافظة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نقله، ليس في زمننا هذا إلا حسنة واحده أن جميع العـاملين بـالأزهر لا يسـتطيع أحد أن يتصرف معهم إلا بإمضاء الشيخ.

أي إمام لا يملك بقائـه في مسـجده ولا يصرـ عـلى الموضـوعات التـي يطرحها على الناس في خطبة الجمعة فـإذا لم يعجـبهم وقـرروا مضـايقته فبقـاءه وزواله بأيديهم، وإذا بنيت مسجدا يؤمموها، لابد وأن يكون تابعًا لهم - حتـى إن الأمر وصل إلى دار الإفتاء وتريد أن تجعل من نفسها مؤسسة لا تريـد أن تـؤدى الدور بل أن تكون بديل كامل للأزهر والذي لن تصل إليه لا في نفـوس النـاس ولا في الواقع، ليس لأن الأزهر منزل ولكن لأنها ليس لها معاهد ولا مناهج ولا بديل تختار منه ولا حتى يسمح لها وإلا كـانوا سـمحوا للأزهـر، أتـدرون مـاذا تفعل وزارة الأوقاف؟ تفعل ما هو أقس. مصر منذ ألف سنه فيها إمـام مسـجد ولذا بدأ العمل على العبث بهذه الوظيفة، الأسـتاذ الـدكتور وزيـر الأوقـاف د. محمود زقزوق الذي يعرف مؤسسـية ودرس في ألمانيـا يقـول هـذه الإحصـائية: عنده ٩٢ ألف مسجد، ٤٥ ألف إمام، إذن هناك ٤٧ ألف مسـجد بـلا أئمـة ولم يعين لهم أئمة حيث إن مستوى خريجي الأزهر ضعيف، من أيـن إذا لنـا بهـؤلاء الأقوياء؟ ليكن أزهر ثالث فتم إنشـاء معاهـد إعـداد الـدعاة (تجـارة وحقـوق، متوسطه وعليا) يكونون تحت إمـرة وزيـر الأوقـاف وإمـرة أمـن الدولـة فهـذا (الطالب) له رغبه في أداء دور مفتقد وأنا لي رغبـه في إلغـاء إمـام المسـجد، الآن عنده عجز ٤٥ ألف بشهادته، نحن الآن في مارس حتى ديسمبر القادم يصبح أل (٤٥) ـ (٤٢) حيث سيحال ثلاثة آلاف إلى المعاش فيحل محلهم خطباء المكافأة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعين ٥٠٠ ويأتي بالمكافأة عدد (٢٥٠٠) وعلى مدار خمسة عشر عاماً سنه يصبح خطباء مصر كلهم خطيب بالمكافأة ينصاع رغم أنفه للمفتش الإداري وأمن الدولة، ولدينا فضيلة شيخ الأزهر يخطب في مكان وفضيلة المفتى يخطب في أخر ورئيس الجامعة في مكان ثالث فتكون المؤسسة الدينية مهيمنة.. لكن لا هي مهيمنة ولا لها دخل ولا يعبر عنها، فهذه أشلاء المؤسسة في الوقت الحالي.

أين المخرج؟

لم نطالب بالعودة إلى الماضي، كلمة مؤسسة تريد ميزانية مستقلة، الدولة ترسل مرتبات الأزهر (٣٨٠ مليون جنية) هل يستطيع الأزهر أن يستغنى عن تلك الميزانية؟ أجل، لو ترك مستقلاً يستغنى عنها. هل الأزهر يحتاج إلى ١٦ ألف معهد؟ ومنكم من يستاء لعدم وجود معهد أزهري في بلدته؟ أنا أقول إن الأزهر لا يحتاج إلى ألفى معهد، هل يخرج عمالاً، إنه يخرج للبلد الواحدة رجلاً واحداً ومساعدة هذه المعاهد بهذا الانتشار توسع بلا مبرر لدينا ٧ ألاف معهد أزهري وليس لدينا ٧ ألاف محفظ قرآن هل هذا يصح؟ دعك من تخفيف المناهج طلبة راسبون ولا يحفظون القرآن لكن إذا جعلت بدلاً من الستة أو ألسبعه آلاف معهد ألفين فقط ستجد القوة التي تفرز أئمة مثال (س، ص) من الناس لكن الناس حين تجد نفسها في مكان تقول أنا فقط سأصلح هذا المكان، هذا لا يصلح أنت كرسي مسروق من مكانه، منبر مسروق من مكانه لا قيمة لك إلا أن تعود إلى المسجد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنا أتخيل وزير الأوقاف بكل مشايخه في تصرفهم يوم الجمعة وتبعيتهم للحكومة، لقد قلت هذا الكلام في مؤسسات رسمية وفى مجلس الشعب هذا يعنى أن دولة تؤمن بالتعددية يكون فيها وزير أوقاف، لو فرضنا جدلاً إذا جاء الحزب الاشتراكي يصبح وزير الأوقاف اشتراكي، تتغير سياسة الخطاب طبقا لرأى الحزب هذا إذن منتهى الخطر، أنا اعتبر خطيب الجمعة كمن أخذ منبره ووقف به في الشارع يبيع به سلع أيًا كان الجامع الذي يخطب فيه لأنه ليس له سقف يحميه، مفتش ومدير ووزير وليس هيئة علمية، ولا مجمع بحوث، وما يضحك أنهم عملوا للأوقاف هيئة علمية اسمها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعينوا فيها عشرين من المشايخ وعندما يقبل الشيخ منصبه في ذلك المجلس ويذهب لحضور الجلسات فيجد في أول جلسة أربعين صحفيا، وثلاثين فنانًا، وعشرة من لاعبي الكرة، وخمسة عشر وكيل وزارة شئون مالية وإدارية في المعاش، وهم يمثلون أعضاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

كلمه مجلس أعلى في الدستور المصري لا تصلح لوزارة، لابد وأن تكون ممثلي وزارات لكي يعموا على الناس فكرة المجلس الأعلى للأزهر، وللأزهر مجلس أعلى لكي يمسك بالأربع مذاهب فهم الآن يعتبرون كل الجوقة التابعة للوزير تمثل ولديهم ميزانية قدرها ثمانية وعشرون مليون جنيه يطبعوا بها أي كتب بلا رقيب وبلا نظام ولا تباع.

نخرج من كل هذا إلا أنه لابد من وحدة المؤسسة، مؤسسة الدعوة لابد وأن يكون لها معاهدها المستقلة يخرج منها أساتذتها فمثلما نعمل انتخابات اتحاد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الطلبة انتخاب طبيعي يدرب به الأولاد على السياسة منذ صغرهم، وينتخب المدرسين وينتخب من أئمة المساجد وعلى مستوى المحافظة يكون إمام المحافظة واللجنة العليا للدعوة منتخبة من مشايخها ليس من شعبها فالمشايخ هم من يعرفون الأكفأ والأجدر صموداً أمام ضغط المؤسسة السياسية من مجموع اللجنة العليا المنتخبة انتخابات مباشرة في الـ ٢٦ محافظة يكون المجلس الأعلى للأزهر وينتخب شيخه ونائبه ووكلاؤه والقائمين عليه من مجموع المتخصصين في تدريس الشريعة والحاصلين على دكتوراه، بدلاً أن يكون في مصر جمعية تدير ٦ ألاف مسجد كالجمعية الشرعية (لأنها لا يعجبها الشيخ ولا المفتى ولا وزير الأوقاف) فهي جمعية خيريه تقيم جوامع لأنهم لا يطيقون الدولة ولا ما يأتي من ناحيتها من وعظ ويستاءون إذا ما أخذ منهم مسجدا. فنريد العودة إلى وحدة المؤسسة، نريد مشيخة لها أوقاف مستقلة، أوقافها القديمة ممكن للناس أن تعوضها اليوم، فهذا الشعب يستطيع رغم إمكانياته المتواضعة أن يدبر مرتبات المؤسسة الدينية وزيادة ويعيش الشيخ لا يقبض إلا من الوقف كما قبض أبو بكر الصديق رضي الله عنه راتبه من بيت المال وليس من احد.

هل في يومنا هذا المؤسسة الدينية تستطيع أن تدرك تخصصاتها؟ هل واحدة من هذه المؤسسات تستطيع أن تقول لوزير التعليم أنه لا يوجد دولة على وجه الكرة الأرضية تعلم أولادها لغة ثانية غير اللغة القومية قبل سن ١٥ سنه إلا مصر، هل أحدهم يقول لرئيس الجمهورية ووزير التربية والتعليم كتاب النحو الذي كان يطبع في وزارة المعارف العمومية لا يطبع إلا بتأشيره من شيخ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأزهر وأنا لدي النسخ المكتوبة فيها هذا الكلام (وافقت مشيخة الأزهر على تدريس هذا الكتاب بوزارة المعارف العمومية) لكن لا أحد فيهم يملك لأن العقد الذي بينه وبين الحكومة أنه تابع لها فأنت تقول في الصلاة، الصوم، الزكاة لكن.. تقول نعم أولاً فيها عندما نريد وإذا قلت مالا نريد فلن نذيعه وإذا أذيع فلن ينفذ وفى أقرب تعديل ستبعد.

لا أريد أن أضيع وقتكم في هذه الممارسات ولكن الله سبحانه وتعالى هو من قال بمؤسسة الدعوة وليس الرأي السياسي أو الهوى، قال تعالى **{**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**}** (التوبة: ١٢٢) هذه أيه في صلب المؤسسة، الخطاب إذن موجه للأمة كلهاّ ممارسة رسول الله صلي الله عليه وسلم تعلم الناس المؤسسة والاستقلال لا يعتلي أحد على أحد و لا يدخل أحد في نطاق أحد..

أضرب مثلين على قوة المؤسسة في السابق، وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي قانون للتعليم الأزهري (وهو ما تم التلاعب به هذه الأيام) جعل التعليم ابتدائي وثانوي وأراد أحد مستشاري الملك أن يعلن سيطرة الملك والإنجليز على الشيخ فقال: فلنجعل هذه الأربع سنوات ثلاثة، والخمسة ستة فرفض، فقدم الشيخ استقالته وبمجرد استقالته اشتعلت الدنيا فأتوا بالشيخ الأحمدي الظواهري ثلاث سنوات مشي فيها القانون علي تعديله وأضطر الملك الذي رفض في البداية أن يأتي بالمراغي مرة ثانية لأنه عرف أنه لن يطيع أحد في الأزهر وظل رحمه الله عشر سنوات وكانت له مواقف عديدة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موقف أخر: المراغي رحمة الله عليه كان طويل البنية والعرف السياسي في مصر أنه بعد صلاة العيد أن يهنئ الملك في القصر الملكي وولي العهد، ولي العهد في هذه الحادثة كان البرنس "محمد علي" صاحب "قصر محمد علي" بجوار القصر العيني "منيل بالاس" وكان له باب كبير وأخر صغير بداخله والشيخ طويل ولا يعرفه الجناينى فصلي العيد وذهب للقصر فطلب من الجناينى أن يفتح له الباب وكان لا يعرفه، فقال له الجناينى أنه مفتوح فقال له: قل لسيدك أن محمد مصطفي المراغي حضر وأبي أن تنحني عمامته وركب سيارته مستقلاً أول قطار متوجهًا إلي بلده، وكان وقتها التليفونات صعبة ظل يومين الملك وولي العهد في قلق إلى أن أخبرهم مدير سوهاج بوجوده في منزله فكيف تحل هذه الأزمة؟ علماً بأن الملك ليس طرفاً فيها ولا ولي العهد والشيخ لا يريد ذلك لكنه عبر عن كرامة المؤسسة التي لا تحتاج إلى تدخل سياسي، فلم يجدوا لها حل إلا أن يذهب الملك ثالث يوم العيد وولي العهد ورئيس الوزراء ويركبوا القطار الملكي ويذهبوا إلي المراغة وينزلوا يزوروا الشيخ في بيته ويكرموا بلده، ووزير التربية والتعليم آنذاك يأخذ عهد على نفسه أن يكتب هذا الكلام في كتب المطالعة في الصف الثالث الابتدائي والثالث الثانوي ويبقي عنوان الدرس موجود حتى اليوم "زيارة كريمة من ملك كريم لبيت كريم" لكي يعرف الناس أن بيت الشيخ كبيت الملك لأننا نريد ملكاً يزود عنا وشيخاً يحسن صلتنا بالله.

الشيخ أبو زهرة لم يكن شيخاً إنما كان شيخاً يشعر باستقلاله، لم يأخذ مشيخة الأزهر أبداً ونقلت بعض وسائل الأعلام العربية هذه اللقطة، كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقاليد مجمع البحوث أن يرسل نائبه "حسين الشافعي" يفتتح المؤتمر السنوي والعلماء بعد يومين يذهبوا لزيارة الرئيس فذهبوا وكان الشيخ شلتوت شيخ الأزهر في هذا الوقت، مجهد، مسن وعنده شلل في رجله فكان هناك من يلقنهم البرتوكول وكيف أنه سيفتح باب ويخرج منه الياور فيقول فخامة رئيس الجمهورية وعندها تقفون وعندها يمشي الرئيس متراً يبدأ أول واحد منكم يتوجه للسلام عليه... وهذا برتوكول يخضع له رجال السياسة وكل ضيف للقصر - كان آخر الجالسين الشيخ محمد أبو زهرة – أستاذ في كلية الحقوق في القاهرة يدرس مادة الشريعة ومعروف بردوده وموقف أمن الدولة من كلامه – وكان عضو مجمع – بمجرد خروج الرئيس أعلن الياور حضوره فقام الجلوس ومن بينهم شيخ الأزهر و حاول الاتكاء علي عصاه للنهوض فبادره الشيخ محمد أبو زهرة ماذا تفعل؟ أنه مثل ابنك فليأت هو إليك، وكان هناك صحفيين لبنانيين ونشروا هذا الكلام وأضطر عبد الناصر أن يذهب ليسلم عليهم وقال للشيخ أبو زهرة: يا رجل أنت أنا أخاف من كلامك في الحقوق.

هذه صورة فإذا كان الرجل قد قال وهو عضو فماذا يقول وهو شيخ أو لو أطمأن إلى أن بقية الأعضاء في أريحيته وفي حريته، لو أتاحت لنا الأقدار أن ندرس فرعاً فرعاً أو عضواً عضواً من أعضاء المؤسسة التي قسمت إلي ثلاثة ونرجو ألا تصير أربعة.. كما يريدون أن يقسموا جامعة الأزهر إلي جامعتين هذه الأيام، لو أتيح لنا ذلك لأخذنا من وقتكم وأعاننا الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مرة أخري أهنيء نفسي بالحوار معكم وبتشريف أستاذنا الدكتور / طـه

و أشكر المعهد ومركز الدراسات المعرفية وسلام الله عليكم و رحمة الله و بركاته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حوار حول الورقة

أ.د. طه جابر:

جزاك الله خيراً وبارك فيك، أخونا الحبيب ذهب بجولة واسعة جداً في المؤسسة وتفكيك المؤسسة واقتراحات إعادة التركيب وأخذ هذا على المستوي المحلي فيما يتعلق بمصر وجزاه الله خيراً حيث ألقى أضواء كاشفة على قضايا شديدة الأهمية خاصة في هذه المرحلة وإذا خرجنا من أرض الكنانة وذهبنا في المحيط الاجتماعي الإسلامي نجد أن معركة أهل السيف وأهل القلم قد بدأت من قديم وأول نزاع يمكن أن يسجل تاريخياً بين أهل السيف وأهل القلم هو النزاع بين عباده بن الصامت رضي الله عنه وهو صحابي من أجل أصحاب رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم، رجل كان نجيباً، طويلاً، و كان رسول الله r كثيراً ما يرسله سفيراً في مفاوضات قد يحتاج إليها وأستمر الشيخان على ذلك وكان لشدته في الكلام واعتداده بما يمثل ومن يمثل كثيراً ما يحرج مستضيفيه فكانوا يتمنون لو أرسلتم لنا رجلاً غير هذا، هذا الرجل رأى معاوية بن أبي سفيان يبيع كأس من الغنائم مزخرفة بفضة وبعض الأحجار والمعادن فقال له يا معاوية علمنا رسول الله r "أن الذهب بالذهب يداً بيد هاءً بهاء سواء بسواء والفضة بالفضة ياً بيد هاءً بهاء سواء بسواء" فليس لك أن تبيعها هكذا ولكن أفصل الفضة عن غيرها وبع الإناء بطريقة لا تخالف ما أمر رسول الله r به، فأزعج ذلك معاوية فقال ما بال أقوام يحدثوننا أحاديثاً قد صحبنا رسول الله r وعايشناه ولم نسمع شيئاً من تلك الأحاديث منه فغضب عبادة وأعتبر هذه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تهمة من معاوية له بالكذب، فقال والله لا أجاورك فيها ليلة سوداء وترك إلى المدينة المنورة فرآه سيدنا عمر رضي الله عنه بين الناس فدعاه وقال ما الذي جاء بك يا عبادة؟ قال: إن معاوية عاملك قد فعل كذا و كذا وحين نهيته قال ما قال فقلت له والله لا أجاورك فيها ليلة سوداء وتركته وأتيت. فكتب سيدنا عمر إلى معاوية احرص على أن يكون معك في البلد الذي أنت فيه رجال أمثال عبادة فوالله لا خير فيكم إذا خلت بلادكم من مثل هذا ولقد أمرته أن يعود وإياك أن تغضبه مرة أخري وأرسله.

الصراع بين أهل السيف والقلم ظاهرة متقدمة في تاريخنا وأهل القلم كانوا يمثلون العلماء و أهل السيف يمثلهم الأمراء وكما تعلمون الأمام مالك ضرب حتى شلت يداه، الأمام أبو حنيفة سجن، الأمام أحمد بن حنبل ضرب وعذب، الأمام الشافعي جيء به مسلسلاً من اليمن إلي بغداد وأوقف بين السيف والمقصلة لولا شفاعة محمد بن الحسن.. وثورة القراء التي سميت بثورة القراء كانت تعبيراً أيضاً عن جزء من ذلك الصراع بين أهل السيف والقلم والتي انتهت بإعدام "سعيد بن جبير" وعدد كبير من القراء بالطريقة التي دونت تاريخياً وأستمر الحال ومن الظواهر التي لابد لنا من الالتفات إليها أنه حتى في عصرنا هذا كل حركات التحرير قادها أهل العلم وحينما ينتهي التحرير وتستقل البلاد يأتي أهالي السيوف ويستولون على كل شيء وتبدأ عملية تهميش وتقزيم لأهل القلم والعلم وحصر لهم في بادئ الأمر في المساجد ثم يبدو أنهم وجدوا أن المساجد واسعة عليهم فبدؤوا يحاصرونهم حتى فيها بالطريقة التي أشار الشيخ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى كثير من جوانبها، أمة لا تعز علماءهـا لا عـز لهـا، أمـة لا تسـتطيع أن تحمـي مؤسساتها العلمية والدينية وتحافظ عليه لا يمكن أن تحافظ على شيء أخر عليها. الآن العالم الإسلامي يموج في تيارات مختلفـة ودائـماً يـأتي الكـلام عـن الشـيعة والسنة.

قوة الشيعة والمذهب الشيعي كلها كامنة في ذلك الاستقلال المادي، أئمة الشيعة، حوزاتهم، مدارسهم اعتمدت على الأخماس وصدقات الأمة فـإذا كـان الأمام الشيعي يخضع لأحد فإنما يخضع للأمة ولذلك لما قيل "الخميني" رحمه الله أنه لو تقول للناس أن يتركوا عـادة الضرـب في احتفـالاتهم فلعـل ذلـك يكـون أفضل لأن المنظر غير لائق أو مقبول دينياً، قال أنا لن أقول هذا ولكن يمكـن أن يقوله غيري وأسكت، فنحن لولا هؤلاء لما قامت ثورتنا ولما انتصرنا عـلى الشـاه نحن انتصرنا بهؤلاء فأنا لن أزعجهم لكن غيري يقول وأنا أسكت، ممكـن لأنـه ارتبط بالناس وهذا أيضاً خطأ أن يستسلم للناس إلي الحد الذي يجعـل الجمهـور يقوده أو يستسلم كما هو الحال بالنسبة للعالم السني منذ دخول الإنجليز العـراق – وهذا جانب أخر من بلداننا – أول شيء عملوه بعـد تعيـين الحـاكم السـياسي السير بيرسي كوكس البريطاني عينوا مسئولاً عن الأوقاف الإسلامية أسمه مستر "كوك"، وذهب العلماء يزرونه وكان فيهم شخصية ظريفة جـداً الشـيخ "نجـم الدين الواعظ" رحمه الله فذهبوا مرة ليسلموا عليه على الطريقة التي أشار شيخنا إليها فقال لهم: أنتم علماء؟ قالوا نعم.. قال: وتقولون إن القرآن فيـه كـل شيء؟ قالوا نعم.. قال: فهل تجدون فيه مستر كوك؟ فرد نجم الـدين الـواعظ ضـاحكاً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال: نعم، عندنا آية في القرآن "وتركوك قائماً" وأنت قائم بالأوقاف فأنت موجود.

المهم أنه الآن عالمنا الإسلامي في ظل هذا التمزق الشديد والفرقة والانهيار الأخلاقي والتهديد الهائل للأمة حتى في رزقها بأبسط الأمور الاستهانة بأشياء كثيرة جداً، فهي أحوج ما تكون إلي "بعث المؤسسات الدينية" لا لتكون هيئة تشرع أو هيئة رجال دين وإنما لتحافظ على معنويات الأمة، تحفظها من الانهيار لتستطيع أن تعوض الأمة عن ما تفتقده من قيم، مثل.. الخ – شيخنا أشار إلي مسألة الاستقلال المالي ولا شك أن الاستقلال المالي شديد الأهمية والأمير شكيب أرسلان رحمه الله له كتاب طريف جداً أسماه (الارتسمات اللطاف في قضايا الأوقاف) يقول هذه الأمة يأتي منها جيل من الأخيار سيبني أوقاف، يأتي جيل أخر بعد ذلك الجيل الأول الذي يؤسس الأوقاف فيبدأ يأكل من الريع ولكن يحافظ علي جسم الوقف، يأتي جيل ثالث يأكل الريع ورأس المال، يبيع الأوقاف ويقول إن هذه الدورة كانت عبر تاريخنا قائمة في حين أن فقائهنا جميعاً نصوا على أن شرط الواقف كنص الشارع يجب أن يحترم. الآن في أمريكا قبل سنتين أو ثلاثة أثيرت قضية أن شخصاً أوقف أرضا ما لكنيسة أو لمدرسة أو شيء ما و هذه الأرض طفر سعرها إلي مئات المرات لأنها دخلت في إطار العمران وكانت لا تساوي شيئًا فأبناؤه حاولوا التحايل والتصرف بالأرض ليصبحوا كلهم أصحاب ملايين وأقيمت الدعوي من قبل بعض

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجيران قالوا نحن نعرف أن هذا الرجل جعل هـذه الأرض وقفـاً لكنيسـة كـذا فحكم للكنيسة بذلك الوقف وأعيد ذلك الوقف رغماً عن أنف أبنائه.

فنحن في حاجة ألي أن نحترم شروط الواقفين، وشروط الواقفين كـنص الشارع، أنا حينما جئت للدراسـة بـالأزهر عـام ١٩٥٤ كنـا نتقـاضى كطلبـة في الأزهر أربعة جنيهات إلا أربعة قروش من جراية العيش، هذه الأربعة جنيهات كانت تكفي للطلبة حتى منهم من الطبقة المتوسطة، كان بعضهم يؤجر غرفة بـــ ٥٠ قرش ويتبقي له ٣.٥ج يأكل و يعـيش منهـا طيلـة الشـهر والأفارقـة كـانوا يرسلون إلى أهاليهم في بلادهم وأنا شخصياً استفدت آنذاك من هذا النظـام مـع أنني كنت من طبقة جيدة مادياً ولكنني كنت أستفيد منها وأفرح بهـا فهـذا شيء بدون مقابل، الآن أين ذهب هذا؟ هذه كانت من أوقاف الأزهر وما تـزال هـذه الأوقاف موجودة ولكن جرى التصرف فيها بالطريقة التي أشار شيخنا إليها.

الاستقلال المالي والعزائم والالتزام يعني لو أدرك العالم أن رزقه على الله تبارك وتعالي وأدرك أنه كلما زاد اتصاله بـالله فلـن يـتخلي الله عنـه... أنـا أذكـر عندما جرت المضايقات في بلدنا في العراق أذكر أنني تركت البلد وليس معي إلا ١٢٠ دينار فقط وأعرف أنه ستتقطع السبل ولن أستطيع أن أخـرج مـن أمـوالي وأموال أهلي شيئاً لأنه كان هناك قضايا وكنت أقـول يـارب انـت تقـول {وَمَـن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَـدْ وَقَـعَ أَجْـرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (النساء: ٤) وأنا خارج بهـذه النيـة، الآن مـر عـلي هـذا الكلام ثمانية وثلاثون عاماً والله لم أحتج فيها لأحد بعد الله والآن أنا بخير ونعمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وربيت أولادي ويسر الله لي الكثير وأعتقد أن من أحسن التوكل على الله تعالي واتقاه لن يتخلي الله عنه ونحن في حاجة إلي أن أبنائنا ومشايخنا وأئمة مساجدنا وعلماءنا يكون عندهم هذا الإحساس وهذا الالتجاء إلي الله مع الاستقلال المالي لبناء المؤسسة ويشعر أنه عبد لله تعالي وفي بيت من بيوته ويلتصق بالأمة بقدر ما يستطيع وبقضاياها وبما يهمها ويحذر الشياطين بأنواعها "الأنس والجن"... جزاك الله خيراً شيخ جمال و بارك فيك وجزاكم الله خيراً...

خالد عبد المنعم:

أتقدم بالشكر لفضيلة الدكتور / طه وفضيلة الشيخ جمال، التبس علي فهمي مسألة الرأي الواحد للمؤسسة، أنا لست مع شطط العلمانيين ولا تشدد المؤسسة الدينية، فالمؤسسة الدينية يعتد برأيها عند الناس، وعندما يبدع كاتب أو غيره، قد تري المؤسسة الدينية أن هذا يخالف الدين أو الشريعة فتصدر من القرارات ما يقيد ويمنع حرية الناس فهل هذا ما تقصده فضيلة الشيخ... الشيء الثاني خريج الأزهر أرجو حتى يرجع له كيانه أن يتسلح بالدراسة الشرعية إلى جانب دراسات اجتماعية و إنسانية لأن هذا مطلوب في وقتنا الحالي.

مداخلة:

أتوجه بخالص الشكر للعالمين الجليلين: الشيخ جمال قطب الذي أتحفنا بالفعل بهذه الورقة، الحقيقة كما قال الدكتور / طه أن قضية الصراع قضية قديمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصراع أيام رسول الله r كان بين السماء والأرض، بين الرسالة والملقي إليهم أعباء هذه الرسالة ثم مات رسول الله r وأصبح الصراع بين القمة والقاعدة أو بين القلم والسيف (كما عبر الدكتور طه) وهكذا كل من يريد أن يستحوذ على هذه القاعدة بأي صورة من الصور؟ يضيع في مقابل السيف كما أشار إلى الفقهاء الأربعة لكن الفقهاء الأربعة كانوا يستمدون سلطتهم من صدقهم في تبليغ هذا الشرع ومن رغبة الناس في سماع الحق منهم ولذلك كان الله ينصرهم بنصرة الناس لهم، لكن في الحقيقة قضية المؤسسة: هل الدعوة إلي المؤسسة الدينية أو مؤسسة الدعوة هل هي نابعة في هذا العصر ـ كما عرضتم أنها مستمدة من الغرب؟ هل هي مشربة بروح العلمانية، ولكن في الحقيقة المؤسسة الدينية هي تخضع أيضاً للحاكم أو الملك أو السلطان فهي ليست مستقلة بالمرة وحضرتك تقول أن المؤسسة لابد وأن تكون مستقلة بالكلية حتى تستطيع أن تتصرف وتخرج أجيالاً تحمل هم هذه المؤسسة، ولكن ليس على سبيل الفصل التام أن يكون أهل الدين متخصصين في الدين فقط فلابد أن يجمعوا بين علم الدنيا وعلم الآخرة والدنيا تأخذهم للآخرة "ولا تنسى نصيبك من الدنيا" فالصحابة كان منهم تجار وكانوا وعاظ أيضاً وكانوا مجاهدين لكن أن نفصل هكذا فأظن أن هذا يتناقض مع الاستقلالية لأنهم سيطلبون المال بأي صورة من الصور فإذا لم يكن لديهم أشغال أخرى فلن يستطيعوا أن يستقلوا، ألا يمكن أن تتعايش.... حضرتك أشرت إلى وزارة الأوقاف وأشرت إلي الأزهر وجماعة الأزهر وإلي دار الإفتاء وإلي بقية الأطياف الأخرى التي ترفض هذه المؤسسات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتخرج لنا مؤسسات أخرى، ألا يمكن أن تتعايش هذه المؤسسات؟... هل المشكلة في عدم وجود هيئة واحدة يجتمع حولها المسلمون أم أن المشكلة في غياب قاعدة الشورى؟ أنا أظن أن قضية الشورى هي الغائبة ليست المشكلة أن يكون هناك وزارة أوقاف أو غيرها بل غياب قاعدة الشورى وهذا من قديم... أيضاً فيما يتعلق بالشيخ محمد عبده أظن أنه في ثورته على الأزهر كان محقاً فلماذا إلى الآن يحرص الأزهر علي تدريس الحواشي والمتون ويحفظ الطالب خمسة وستون حاشية، لذلك الرجل ثار على الأزهر وكان محافظاً على الأصول الإسلامية، لكن ليس معني هذا أنه كان يحابي الخديوي. لأنه أصلاً عزل من دار الإفتاء قبل أن يموت وشكراً.

صحفي:

أشكر المركز والشيخ جمال قطب، و لدي ٣ أسئلة:-

١. قيل إن المؤسسة الدينية فوق النقد فحكمها يجب أن يكون كحكم القضاء لا نقض فيه فهل توافقون على هذا الكلام؟
٢. هناك موقع على ألنت يتحدث عن إستقلال الأزهر فما رأيكم؟
٣. نقابة الأشراف كمؤسسة دينية ما رأيكم فيها؟ و شكراً....

مداخلة:

بعد شكر المركز وفضيلة الشيخين لي سؤالان:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١. أشار فضيلة الشيخ إلى أن اختيار شيخ الأزهر كان يتم بالشورى بين العلماء ثم يرسل للملك أو الحاكم فيصدر المرسوم بتعيينه أي أنه ليس له دخل في الاختيار، أود أن أسأل في أي تاريخ أصبح تعيين الشيخ بأمر مباشر من الحاكم؟

٢. عن تطوير الأزهر الذي تم في الستينيات "في عهد عبد الناصر" ما رأيكم فيه ورأيه في إدخال العلوم الحديثة التي تعلمها طلبة الأزهر هل أتى هذا بثمار جيدة على الأزهر أم أنه قلل من المردود على التعليم الشرعي في الأزهر، وشكراً.....

د. عبد الناصر العساسي:

جزا الله الشيخ خير الجزاء عنا، هل المعارف الإسلامية وتطورها بالشكل الذي تطورت به فعندنا مثلاً "علوم المقاصد وعلوم المسائل وكلاهما كلامي ونحن نتهم بأننا أهل كلام" حتى أن المستشرقين قالوا إن معجزتهم (أي القرآن الكريم) كلام، الأزهر في تطويره للمعارف هل سار في ظل السياق القرآني أم حول علوم الوسائل إلى علوم مقاصد وبالتالي تم تضخيم ما لا يجب تضخيمه وبالتالي كان على حساب العلوم الأساسية.. فإذا كان هذا هو التوجه السائد في مؤسسة الأزهر بأعتبارها المؤسسة المسئولة عن إعداد الدعاة فهل هذه الشكلية يمكن أن تقوم بدور إحداث نهضة بالأمة وإذا كان كذلك فلم لم تفعل ذلك هل العيب في الأزهر؟ أم في الموروث المعرفي؟ فأنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحفظ ٢٠ متنًا فلابد أن يحفظ تلاميذي ذلك العشرين متن، ألا يمكن إلقاء اللوم على الداخل و ليس على الآخر وشكراً....

مهندس / خالد أحمد:

نكرر الشكر للأساتذة الأفاضل تحدثتم فضيلتكم عن المؤسسة وضربتم المثل بدار الإفتاء (ما يسمي بالتلاميذ) والحقيقة الآن المعاهد الأزهرية الآن تعتبر المفرخة، الحقيقة ابتدأ الهدم بسلامة النية الموجودة بين أفراد المجتمع فالكل يسعى في المحافظات (ككفر الشيخ على سبيل المثال) جميع المعاهد فيها لم يقم الأزهر ولا الأوقاف ببناء طوبة واحدة فيها، لاحتياج الناس لهذا التعليم الديني. هذا إذن إحساس شخصي داخل المجتمعات الصغيرة والحقيقة أنا لاحظت أن أبنائي كلهم خريجي المعاهد الأزهرية وحاصلة على الثانوية الأزهرية فمن خلال تجربتي هذه كنت قريباً من المشيحة، الشيخ جاد الحق رحمة الله ثم الشيخ طنطاوي وكنت قريب من صناع القرار فوجدت أن هناك مشكلة كبيرة قامت بها الإدارة العامة في الدولة دون أن تقصد أو تقصد وهي منع تعيين خريجي الأزهر بقرار عام ضمن منع تعيين الخريجين بصورة عامة في الدولة فحدث خلال فترة المنع (حوالي ١٠ سنوات) أن خرج وتوفى كثير من المتخصصين خلال فترة المنع في تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية وأصبحت هناك محافظات كاملة لا يوجد فيها شخص متخصص واحد لتدريس العلوم الشرعية فكان الموقف من الأزهر أنه بدأ يأخذ من بعض خريجي الأزهر بغض النظر عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تخصصه أن يدرس المادة الشرعية، فبدأ مستوى المادة يقل وكانت الكتب التي تدرس كتب قيمة فلم يكن الخريج يستطيع تدريسها للطلبة فكان بعضهم يقوم بالتدريس بصورة خاطئة حتى من يقوم بمراجعته من المنطقة التعليمية لا يجد في الأمر غرابة لأنه هو ذاته غير متخصص ثم في مجلس الآباء تحدثت إلي فضيلة الإمام أنه لا يوجد تعليم في الأزهر وبالتالي سيظل الأمر على ما هو عليه حتى أن هناك معهد وحيد في الجمهورية تفضل بعض المتبرعين ببنائه في مدينة العاشر من رمضان ثم وقف من ماله الخاص وقف للمدرسين الذين سيأتي بهم وهم من خريجي المعاشات من الأزهر ووفر لهم إقامة بجوار المعهد لكي يقوموا بالتدريس بصورة مناسبة لوجه الله تعالي فكان أن حرم من التنفيذ بموجب القوانين التي تحكم المسألة الإدارية.

فإذا كنا نتكلم عن إصلاح المؤسسة فيجب أن يشمل الإصلاح مسألة إخراج المعلمين من الجامعة الأزهرية إلي غيره مثلما تفضلتم بأنه سابقاً كان الطالب يحفظ القرآن كاملاً و ٦٥ متنًا فنحن نرى الآن خريج الأزهر لا يتقن اللغة العربية ولا العلوم الشرعية ويجب أولاً وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. وشكراً.....

د. عبد الرحمن النقيب:

هاجسي ليس في تعدد المؤسسة الدينية لأن التعدد لا ينفي أنهم أصلاً مشايخ فكل المؤسسات الدينية التي ذكرها الشيخ هي مشيخية وهي قد درست

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علوم شرعية وكأنني أشعر أن المشكلة هي مشكلة النوعية الأزهرية وأيضاً هناك قيادة طبيعية في الدين فالشخص الديني المتمكن كأن فيه قيادة طبيعية (يجذب كالمغناطيس) فأنا لم أخذ مكانتي في قريتي لكوني دكتور بل لكوني خطيب مسجد فالدين يخلق جاذبية وقيادة شعبية لا تقاوم فالتركيز فعلاً وربما يكون هذا معني من معاني الاجتهاد والإجماع أيضاً والتمكن في العلم والقدرة على الإقناع والانتشار والبيان.. كل هذه الملكات إذا ملكها الأزهري كانت له القيادة وينظر له الناس باحترام. الإشكال الأساسي في تصوري أن إعداد الخطيب أو الأزهري الآن يحتاج إلي وقفة، أيضاً النوعية الأزهرية (أكرر) تحتاج إلي وقفة، أما التعدد فهو ليس مخيفًا إلي هذا الحد فنسلط عليه هذه الأضواء بقدر النوعية، ولو وجدت النوعية الجيدة لما كان هناك أي صراع أو احتمال لهذا الصراع بين وزير الأوقاف وهو أزهري والمفتي وشيخ الأزهر وكلاهما كذلك أزهري و ما بين رئيس الجامعة كذلك فهي قضية من يمتلك القدرة على القيادة الدينية ؟... في تصوري والله أعلم وشكراً.

الشيخ جمال قطب:

شاكر لكل من تفضل بالمناقشة لأنه إثراء للموضوع لن أجيب على الأسئلة لضيق الوقت بل سأعتبرهم تكملة للموضوع، قضية التعدد أنا أقول أنها خطيرة بسبب ما تصادف في الخمسين سنة الماضية أن الثلاثة (وزير الأوقاف، شيخ الأزهر، المفتي) أن الثلاثة أزهريين وينتمون لأجيال متقاربة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مثلما نراه الآن، إذا حسب وزير الأوقاف منذ قيام الثورة حتى يومنا هذا نجد ٧، ٨ أزهريين و٢٣ غير أزهري، مهندس ري وضابط مخابرات مرة واثنتين وأكثر، كما أن أخطر من هذا وهو قائم الآن أن صلاحيات فضيلة الأستاذ الدكتور / المفتي أياً كان شاغل المنصب هو وكيل وزارة لوزير العدل أي يتحرك في ميزانية معينة وفي مساحة معينة لا يرسمها لنفسه فإذا أراد الإعلام فعلاً أن يضخم شيء أو يقلل شيء لا يملك هذه واحدة.. يبقى شيخ الأزهر وهو المؤسسة الأم التي أنخلع منها كل ذلك حتى مشيخة الشيخ / عبد الحليم محمود وهذا كلام سيفاجئكم.. كان شيخ الأزهر مدير عام قديم أو وكيل وزارة لا تسري قرارات المجلس الأعلى للأزهر إلا بإعتماد وزير الأوقاف (ضابط مخابرات) وعندما أراد أن يأتوا بوزراء أزهريين أول شخص أدي هذا الدور عن عدم تصور لطبيعة الموقف المرحوم الشيخ عبد العزيز عيسي عينوه (وزير شئون الأزهر) وليس وزير أوقاف وشئون أزهر أي أنهم أتو به ليمضي ـ لشيخ الأزهر قراراته، لقن حدود صلاحيات الوزير أنه يرأس الشيخ. من أين يرأس الشيخ؟ من الميزانية الموضوعة له (بدلاً من عشرين كتاب يعتمد ٦ و بدلآ من ١٥ بعثة ٣ يريد أن يصدر بياناً لتأييد الإشتراكية يأخذ مليون جنيه، بيان لشجب حالة سياسية يأخذ.. كذا، تأييد الاشتراكية ينشر ـ في الصفحة الأولي، شيء أخر ينشر ـ على استحياء) هذا أمر، ومازال القانون يسمح بذلك إلا أن يشغل المنصب رجل يستطيع أن يتصرف كعبد الحليم محمود أو كجاد الحق لكن يستطيع أن يتصرف في موقف لكنه لا يستطيع أن يغير قانون المؤسسة كله ولا ميزانيتها كلها ولا أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يستبدل نظامها فهذه قضية حتى الآن تفرض هذا الواقع الأليم، في الوقت الذي طغى فيه ما يسمي الإرهاب والتطرف عند مقتل السادات رئيس الوزراء آنـذاك فؤاد محي الدين نظم لجنة عليـا للـدعم (لجنـة عليـا تنسـق العمـل بـين الأزهـر والأوقاف) هذا حدث سنة ١٩٨٢ أيـام مقتـل السـادات اللجنـة العليـا قائمـة برئاسة رئيس الوزراء و١١ وزير إلي الآن، منذ سنة ١٩٨٢ حتـى الآن أي سـتة وعشرون عاماً لم تجتمع سوى ٦ جلسات... من ثمانية أشهر المفتي وشيخ الأزهر ووزير الأوقاف والمفتي الأسبق رئيس الجامعة الحـالي في جامعـة الأزهـر سـألوا الصحفيين لماذا ينفض الناس عنا؟ ونشر هذا الكلام في الصحف القومية.. أنظر مشكلة الحجاب مع فرنسا كمثل على تباين الأقوال بالليل وكلام الليل يمحـوه النهار.

ملاحظة أن قاعدة الشورى غائبة، نعم قاعدة الشورى غائبة لكن كلمـة الشورى من دون مؤسسية تكون كلمة في الهواء، فإذا قلت أن المجتمع هو مجتمع الشورى فقط فأكون قد ظلمت الإسلام والشورى معاً، إذا كـان كلنـا الآن مـع فضل كل منكم لا تستطيع أن نتشاور في أمر واحد بينما أهل التربيـة والاقتصـاد والأصول بم أفيدك في الأصول في وجود د/ طـه، فالشـورى نشـأت عـلى أمـم متخصصة، المشاور كل في مجاله فلابد من التأسيس أولاً، لابـد مـن التخصـص {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّـنْهُمْ طَآئِفَـةٌ لِّيَتَفَقَّهُـواْ فِي الـدِّينِ وَلِيُنـذِرُواْ قَـوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} (التوبة: ١٢٢) هؤلاء هم من يشاورا لكن العبث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقول بنسب لا ينفع فلابد من التأسيس أولاً وتوحيد الإطار وتقارب الثقافة و الفكر.

السؤال الأول القائل برأي واحد للمؤسسة هل نريد وحدانية؟ كلا؟ هل تصلح بلدة تدعو إلي الجهاد الأصغر التافه مثل مقاطعة النرويج لو أنها دعوى حق، الشيخ لا يقول "نحن من نطلب منه" ليس لديه مساجد يقول له، فالشيخ فأسمه الأمام الأكبر وهذا معناه أن تحته أئمة ما دام الأكبر، لكنه لا يملك منبر يخطب فيه، فكنا نقول إمام بلا مأمومين لأن كلامه لا يسري فلا الشيخ يقول ولا الوزير ثم يأتي وزير الأوقاف يقول مقاطعة؟ فمن يقود هذه الأمة؟ فساعة الجهاد والقرار الأممي لابد من رأي واحد ولو علي جانب من الحق وليس الحق كله لكن هذا تجهيز للأمة لعدم الأقدام على أمر وليس لنا قدرة المبادرة علي فعل أي خير هذا ما أقصده برأي واحد ليس فرض الرأي والمؤسسة الدينية لا رقابة لها لا على قلوب الناس ولا على ضمائرهم إنما تملك توجيه الخطاب فقط.

خريج الأزهر – عندما قلت الـ ٦٥ متنًا ليس عن سرور بهم فلقد قاسيت بسببهم كثيراً ولا أحب أن يدرسهم أحد... لكن كنت أقول عن مستوى التعليم الذي كان مفروضاً لأنه أمر يثقل فأنا إذا كنت خطيباً في إمبابة أو بولاق فهل مطلوب أن أكون متخصصًا في المتون (لكن كان المقصود من هذا التعليم هو قدر اختطاف الولد من الثقافة العامة وحشو عقله بالحق حتى لا يحشى بالباطل وإثبات قدرته عن البعد عن الناس لكي يعرف أن يتلقى من الشيخ أو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المفتي وينشر، (تصنيع) وأنا معكم أنه لا مانع من إعادة النظر في مناهج الأزهر، فلا نرفع جهد مئات السنين وأحضر جهد فرد، وجهد فرد غير متخصص، فالأزهر ذو الألف عام والذي يضم كلية للشريعة عمرها ثمانين عاماً يؤلف الفقه والمنطق شيخ خريج كلية أصول الدين قسم تفسير، ويؤلف في كل المناحي، هل عدمت المؤسسة حتى يقوم بكل الأدوار؟ لقد أصبحت أمة مختزلة في رجل ليس موضع حب الجميع، مشكلة نفسية لن يتبع الناس هؤلاء ولن يصلوا خلفهم فالناس الآن لا تقول سأصلي وراء فلان بل أذهب لإسقاط الفرض فأنا أذهب ولا أجد شيئاً فلابد أن يكون للناس تصور وهذا ما يجعل الجماعات تنمو يقرأ شخص كتابا يعجبه فيتهيأ له أنه تلقى كافة الكتب ويبدأ بابن تميمة أو آخر، لأنه لا يري شيئاً و لا يشاور)..

هل المؤسسة الدينية فوق النقد؟ فوق نقد الصحفي نعم، لكن من حق أي متخصص أن ينتقدها ولتقارعها حجة بحجة، فلا وجود لشيء يسمي الرأي الواحد لكن المؤسسة تبدو أمر بأمر.

لجنة علماء الأزهر كانت جمعية خيرية كانت أيام الأنجليز بدلاً من النقابة كي تطبع الكتب التي لا يجدون من يطبعها فقط جمعية كانت تؤدي دوراً في نشر الثقافة تحل محل النقابة لأن الدولة لا تريد أن تؤسس نقابة للعلماء وفي النهاية عندما قالوا للشيخ أنت مخطئ فيما تفعل فقال لنحلها فحلت الجمعية وسجن البعض حتى يبقي الفرد العلم يقول ما يقول وهذا ما نريده نحن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نقابة الأشراف للأسف مع تقديرنا لكل البشر ليست مؤسسة و لا تقترب من الدين في شيء ليس في ديننا ما يسمي بالأشراف، فإذا أقر دين ما بأن هناك أشراف غير الشرفاء فتلك كارثة، فعندما يقول الرسول **r** " أنا أبن امرأة من مكة..... " فنظام نقابة الأشراف والمجلس الأعلى بقايا التشيع الذي كان في مصر فليس في الدين نقيب أشراف بل رجل شريف فالأشراف ليسوا فوق الناس بل منهم ومعهم بالأمانة والعلم.

التطوير الخاص اختراق قاعدة شيخ الأزهر أول مرة حدث كان مع فاروق يغفر الله لنا وله، حبب له أن يعيين الشيخ مصطفي عبد الرازق والشيخ مصطفي من بيت غني جداً وعالم معه العالمية من الأزهر وكان صغير السن ومشايخه موجودون ويجيد الفرنسية بطلاقة وبيته كان أمام قصر عابدين وأخوه المرحوم علي عبد الرازق، كان له أزمة سياسية وكان خريج قضاء شرعي وغرر به طه حسين وآخرين وأصدر كتاباً أسمه أخر الدراسات التي توصل لها د. محمد عمارة أن الكتاب ليس من صياغة د. علي عبد الرازق ومقاله مترجمه لمارجيليوس ولفقت له، فلا يوجد شيء أسمه خلافة لكن هل يوجد شيء أسمه باباوية؟ لماذا تلغي الخلافة؟ لحساب من؟ لكي تبقي الباباوية وحدها دعها باباوية مقابل الباباوية، لابد أن يكون هناك وعي عند الناس، البابوية الكاثوليكية وهي ضد الكرسي الأرثوذكسي في مصر لها سفير في مصر له يافطة بالشارع المجاور أسمه (كرسي القاصد الرسولي) فإذا كان هو القاصد الرسولي فمن بعده ؟ إله، الذي سب نبينا "عليه الصلاة و السلام" فإذا كان هنا هيئة مبتذلة تسمي البابوية فدع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لنا الخلافة يا سيدي و أطلق عليها ما تشاء فلما علي عبد الرازق يقول هذا الكلام لم يكن رجلاً مستنيراً بل عميل ضغط عليه أو قبل ذلك، على أن الأيـام مزدهـرة له فأخوه شيخ الأزهر وهو عين وزير أوقاف ولو أستمر الأمر الملكي لأصبحت الأوقاف والأزهر من ذلك هؤلاء مجهزون لـذلك. فالشـيخ مصـطفي رحمـة الله عليه كان رجل فلسفة ترك الدكتوراه في فرنسا ليعيين شيخ أزهر في مصر ـ وكـان باشا فمن أدبه كان أن صدر قراراً بتعيينه شيخ أزهر نكاية في الأزهريين لأنه كان موظفاً إدارياً في المجلس الاعلي للأزهر، المجلس الأعلى كان قمـة الهـرم ينـاقش القضايا وهو كاتب (خريج حديث مثلي سنة ١٩٧٦ كنت أكتب مـا يقولـون).. هو شيخ لكنه تلميذ فأثناء نقاشهم عبر عن رأيه فزجر وذكر بأنه محـض موظـف فأنتهي وخرج يبكي وقدم استقالته فنصحه الملك بألا يستقيل وبعد ثلاثة أشـهر أعلنه وزير أوقاف ثم في تعديل وزاري وزير أوقاف خمس مرات في أربعـة عشر ـ شهراً تمهيداً لكي يحل من معه الباشاوية وتولى الوزارة محـل عضـوية هيئـة كبـار العلماء هذه هي المرة التي اخترقت فيها أيام الملك.

تولت الثورة بعد ذلك وكان الشيخ عبد المجيد سليم رحمة الله عليه وأوكلوا له قانون الإصلاح الزراعي (يريدون أن يأخذوا الأراضي) فقال لهم أنا لا أفتي، المجلس الأعلى ينعقد هيئة كبار العلماء (وهي هيئة علمية رفيعة المستوي ليس لها مثيل في العالم، اليوم الذي أحكي عنه كان أعضاؤها ٣٧ ولو كـان هنـاك عضـو رقم ٣٨ كان سيمتحنه إل ٣٧عالمًا يعد بحثاً ويظل أمامهم من الشروق للغروب ٣ أيام جميع الأعضـاء يناقشـوه في البحـث وإذا لم يأخـذ أغلبيـة لا يحصـل عـلي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عضوية الهيئة، يمكن أن يأخذها وهو مدرس ابتدائي لكن عند المشاورة والاجتهاد يؤتي به فهو الأصولي و الفقيه والميقاتي وهكذا، فيريدون أن يأتوا بأحد من الخارج فكان مع مصطفي عبد الرازق الشيخ جمع هيئة كبار العلماء وكان سكرتير عبد المجيد سليم فقال له لا يوجد مذهب لا عندنا و لا عند الشيعة يجيز أخذ الأصل، فإذا أردت أن تحصل حصل ضرائب تصاعدية، ولكن الثورة لا وقت لديها تريد الانتهاء من القمم الموجودة فأتصل صلاح سالم في اليوم التالي بالشيخ طالباً منه ألا يأتي، كانت الجامعة الأزهرية فيها ١٣٥ شيخ وأعضاء هيئة كبار العلماء لم يوافق أحد منهم أن يكون شيخاً للأزهر وكاد جمال عبد الناصر أن يجعل أحد الضباط شيخاً للأزهر فقال السياسيون للشيخ خضر حسين إذا لم تقبل سيعين ضابطاً فقبل، وسأله الصحفي عن مشاعره فقال: لقد ألقيت المشيخة في حجري وظل فيها فترة فألغوا القرار الشرعي فاستقال فانفتح الباب وبدأ التعيين وأغلقت هيئة كبار العلماء وبعد خمس سنوات أنشاؤا مجمع البحوث، هذا يحتاج جلسة أخري.

تطوير ٦١ اضر فلقد كان ٦٥ متنًا كثيراً ألغيت المتون التي كان من الممكن أن تنفع وجاء بدلا منها بالرياضة والجغرافيا والطبيعة هل تتصوروا حضراتكم أن ابنكم في الثانوية الأزهرية يمتحن لمدة ٣٩ يوم.. هل هذا منطق؟ كل هذا لكي يقول خطبة يوم الجمعة فليأتوا به للشيخ طه ثلاثة أشهر فقط ويجعل منه خطيباً مفوهاً يخطب للأمة كلها، أختم كلامي بكارثة أقولها لحضارتكم.. هذا التطوير كان مقصوداً فأصبح هناك طب وهندسة (كليات القمة) فأصبحت أنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وغيري مجتهد لكي يدخل أولادنا كليات الطب والهندسة من يحصل على ٩٠ % يذهب إليها والأعمى والأعرج الحاصل على ٥٠ % يذهب للشريعة واللغة فأصبح خيرة الطلبة بالإضافة إلي أن البعض زج بأبنائه إلي هذه الكليات لسبب أخر لأن الصراع في الجامعة الأزهرية بين نصف مليون لكن الصراع في الجامعة الأزهرية بين ١٠٠ أو ١٥٠ ألف فأبني الذي يتمتع بذكاء أضمن له مكان في مثل هذه الكليات فأنا لا ألحق بالكلية لوجه الله ولا للدعوة.

اليوم الجامعة الأزهرية فيها خمس كليات نظرية (الدعوة، أصول الدين، اللغة العربية، الشريعة، الدراسات) من يجد فيهم طالب يصلح كخادم زاوية فليشر إليه ثم نجد الوزير يقول أنهم ضعفاء.

فوربوس عندما نشرت أن هناك دعاة لديهم ملايين الجنيهات فأنا أري أنه لا حرج فهل هناك مانع أن يكون هناك مطرب يبيع شرائطه بخمسة ملايين وشيخ بيعت له شرائط بمائة ألف فتصبح كارثة، ما يضايق هؤلاء أنه باع مليون شريط لشيخ أنه مازال هناك مليون بيت يسمع و متدين هذا هو الأمر، ما المانع إذن أن يكون لدى هؤلاء أموال هل يسرقون؟

قضايا كثيرة جداً والله المستعان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مؤسسات التعليم في
عصور الازدهار الإسلامي

أ.د. عبد الرحمن النقيب
أستاذ التربية – جامعة المنصورة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مؤسسات التعليم في
عصور الازدهار الإسلامي

د. عبد الرحمن النقيب(*)

(١) المقدمة

لما كانت التربية الإسلامية قد غطت مرحلة تاريخية طويلة تمتد منذ ظهور الإسلام حتى الآن، كما غطت مساحة جغرافية شاسعة تمتد عبر قارات العالم؛ فإن الحديث عن مؤسسات تلك التربية على امتداد الزمان والمكان يعد حديثًا صعبًا، يحتاج إلى مجلدات وليس إلى صفحات، وكذلك الأمر بخصوص طرق التدريس المستخدمة في تلك المؤسسات. وما لحقها من قوة وضعف عبر العصور والبيئات الاجتماعية والثقافية المختلفة. من أجل ذلك، فإن الحديث الحالي يتميز بالعمومية؛ إذ يقتصر على عرض الملامح العامة للموضوع دون إبراز الملامح الخاصة باختلاف الزمان والمكان والمفكرين التربويين. هذا من

---

* أستاذ أصول التربية - جامعة المنصورة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن هذا الحديث يركز على طرق تدريس العلوم الشرعية في المؤسسات التعليمية دون غيرها من العلوم. وأخيرًا، فإن هذا الحديث يبين كيف يمكن أن نستفيد من التجربة الإسلامية في النهوض بتدريس العلوم الشرعية في العصر الحديث.

(٢) النظام التعليمي الإسلامي

لعل أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه الدارس للنظام التعليم الإسلامي أن يفصل دراسة هذا النظام عن الروح الإسلامية العامة التي حكمت المجتمع الإسلامي عبر مراحل تاريخه الطويل، وما طرأ على تلك الروح الإسلامية من نمو وقوة، وما اعتراها بعد ذلك من فتور وضمور. فقد كان الإسلام نقطة تحول جذري في حياة العرب: سياسيًا واقتصاديًا، واجتماعيًا، وثقافيًا، وتربويًا. ولن نستطيع أن نفهم ذلك الإقبال الشديد على العلم والتعليم في حياة العرب بعد الإسلام إلا إذا درسنا المبادئ الإسلامية التي جاء بها القرآن، وأكدها الرسول صلى الله عليه وسلم، وطبقها الخلفاء الراشدون والسلف الصالح من بعده؛ لنشر العلم والتعليم في المجتمع الإسلامي.

لقد كان خلف هذا الاندفاع القوي إلى ميادين العلم المختلفة دين يحترم العلم والعلماء، ولا يرضى لأتباعه الجهل والتخلف العقلي. والدارس لكتب التراث التربوي الإسلامي يجد أبوابًا مخصصة للعلم، تبحث في فضائله وتحث عليه، وتبين ضرورة طلبه، ونشره بين الناس.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما عن فضيلة العلم، فإن الله تعالى يقول: [شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ] (آل عمران: ١٨).

فانظر كيف بدأ الله بنفسه سبحانه وتعالى، وثنى بملائكته، وثلث بأهل العلم يقول تعالى: [قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] (الزمر: الآية ٩).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العلماء ورثة الأنبياء"[١] ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

ولا تكتفي تعاليم الإسلام بتأكيد أهمية العلم والتعليم، ولكنها تحث الناس على طلب المعرفة، يقول تعالى: [فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ] (التوبة: الآية ١٢٢).

ويقول صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة"[٢].

ويقول صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٣].

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تحث المسلمين على طلب العلم والتزود به وترفع من قدر العلماء.

---

(١) الترمذي: سنن الترمذي: كتاب العلم- رقم الحديث ٢٦٠٦.

(٢) أبي داود: سنن أبي داود، كتاب العلم- رقم الحديث ٣٤٥٧.

(٣) ابن ماجة: سنن ابن ماجة، ج١، ص ٨١ –المقدمة- فضل العلماء والحث على طلب العلم- رقم الحديث ٢٢٠.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحتى يندفع المسلمون إلى التعلم فلابد لهم من علماء يعلمونهم العلم؛ ومن هنا دعا الإسلامي إلى ضرورة نشر العلم وعدم كتمانه، وضرورة أن يبذل كل عالم ما لديه من علم للآخرين. يقول تعالى: [وَإِذَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ] (آل عمران: الآية ١٨٧).

فهذا حث على التعليم وعدم كتم العلم، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة؛ فهو يقضي بها ويعلمها"(١).

ولاشك في أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تحث على العلم قد استقرت في الحس الإسلامي، وتربى عليها المجتمع منذ صدر الإسلام. فالتعليم والتعلم لا يمكن أن يكونا مجرد حرفة أو مهنة؛ بل هو عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه. وكما أن العالم في الإسلام مطالب بأن يسعى إلى الاستزادة من العلوم والمعارف، فإنه مطالب في الوقت نفسه بأن ينصرف إلى تعليم الآخرين(٢).

وبهذه الروح الإسلامية اندفع الطلاب والمعلمون لطلب العلم ونشره، وأوقفت الأوقاف لرعاية الحركة العلمية، وتعددت تلك الأوقاف بتعدد المعاهد العلمية، وكثرة الطلاب والمعلمين الملتحقين بها.

ولقد ترتبت على كون أن النظام التعليمي في نشأته كان نظامًا شعبيًا تلقائي النشأة، أن تعددت الأوقاف وازدادت مواردها بازدهار الحياة الثقافية

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الزكاة –رقم الحديث ١٣٢٠.

(٢) عبد الرحمن النقيب: بحوث في التربية الإسلامية –الكتاب الثاني، ص٧٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاقتصادية للعالم الإسلامي، حتى شملت تلك الأوقاف والمحبوسات الدكاكين والبيوت والأرض والمستشفيات. وبذلك استطاعت تلك الموارد الوفيرة أن تقدم الخدمات المتعددة للعلماء والطلاب، مثل الطعام والشراب، والإقامة، والرعاية الطبية وغير ذلك[1].

كذلك فقد ترتب على كون أن النظام التعليمي الإسلامي في نشأته كان نظامًا شعبيًا تلقائيًا، أن مؤسسات هذا النظام لم تأخذ شكلاً واحدًا جامدًا؛ بل تعددت أشكاله بتعدد الأهداف الشعبية المرجوة من وراء كل مؤسسة تعليمية. فهناك الكتاب لتحفيظ القرآن ومعرفة أساسيات الدين الإسلامي[2]، ومن هذه المؤسسات المسجد الجامع لدراسات أكثر تعددًا وتعمقًا[3]، والمدرسة أو الكلية وهي دراسة أكثر تخصصًا وتحديدًا، وتتطلب تفرغًا كاملاً، وإقامة داخلية في المدرسة[4]، والبيمارستانات لتلقي العلوم الطبية، والمراصد لتلقي علوم الفلك[5]، إلى غير ذلك من المؤسسات التربوية العديدة[6]، التي أفرزتها الحاجات الجماهيرية ورعتها الحكومات الإسلامية عن طريق الدعم المالي والاعتراف المعنوي بنفوذ أساتذتها وطلابها. ولن تجد مدينة إسلامية أو قرية من القرى إلا ووجدنا فيها

---

(١) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (١٢٥٠ - ١٥١٧م)، ص ص ٢٣٢ - ٢٧٥.

(٢) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص ص ٤٤ - ٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص ص ١٠١ - ١١١.

4 Tihawi: Origins Character of Almadresah, pp. 225- 238.

5 Sayyed Hossein Nasr: Iskamic Science, pp. 19- 24.

(٦) سعيد إسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية، ص ص ٤٥٧ - ٦٤٠.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لونًا من ألوان هذا التعليم يتناسب وحاجات أفرادها، ويوفره أهل جماعة القرية كما يقول الفقهاء.

(٣) التعليم في الكتاتيب

عرف العرب الكُتَّابَ قبل الإسلام؛ إذ أنشا الكتاتيب في الحيرة والشام وشبه جزيرة العرب. وعندما جاء الإسلام طورت لتلبي حاجات المجتمع الإسلامي. وهكذا ظهر نوع جديد من الكتاتيب التي لا تقتصر على تعليم القراءة والكتابة؛ بل تهتم بتحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه[1]. ولعل تلك المؤسسة بشكلها الإسلامي الجديد قد ظهرت منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم، وازدادت انتشارًا من بعده لتلبي حاجات المسلمين لتعليم أبنائهم تعليمًا إسلاميًا يحتل القرآن فيه مركز الصدارة. ويرى ابن حزم أن القرآن قد دُرِّسَ قراءة وكتابة للصبيان وللرجال وللنساء زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم- ثم استمرت هذه الحركة التربوية في عصر الخلفاء الراشدين. يقول ابن حزم: "ثم مات أبو بكر وولي عمر، ففتحت بلاد فارس طولاً وعرضًا، وفتحت الشام كلها، والجزيرة ومصر كلها، ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد، ونسخت فيه المصاحف، قرأ الأئمة القرآن، وتعلمه الصبيان في المكاتب شرقًا وغربًا"[2].

---

(١) ملكة أبيض: التربية والثقافة في الشام والجزيرة، ص ٢٤٢.

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ج١، ص٦٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا يؤكد أن حركة التعليم كانت قد تدعمت في المجتمع الإسلامي الأول، وأن مكاتب الصبيان لتعليم القرآن كانت قد أنشئت بالفعل في عهد عمر بن الخطاب إن لم يكن قبل ذلك، وليس في العصر الأموي؛ كما تذهب إليه أكثر الدراسات المعاصرة؛ جريًا وراء أسطورة أن عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين لم يكن عهد استقرار وعلم وتعليم بقدر ما كان عهد غزوات وفتوح. ولقد غاب عن هؤلاء الدارسين أن الفتوحات والغزوات لم تكن هدفًا في حد ذاتها تعطل من أجله شؤون العلم والتعليم؛ وإنما كانت وسيلة لإزالة العوائق التي تحول بين المسلمين وتأدية فرض من فروض دينهم، ألا وهو نشر الدين الإسلامي على أوسع نطاق ممكن. ولم يكن هذا الغزو حائلاً بين المسلمين وبين العلم والتعليم، بل كان أداة من أدوات نشر الدعوة، وما يتصل بها من علم وتعليم[1].

يقف الدارسون للتربية الإسلامية طويلاً أمام المكان الذي يوجد به الكتاب، ويميل أكثرهم إلى أن الكتاب قد بدأ في المسجد، ويرون أن استقلال الكتاب عن المساجد كان بسبب عبث الصبيان في المسجد، ويأمرون المعلمين أن يتخذوا لهم أماكن منفصلة عن المساجد لتعليم الصبيان. ويذكر أحمد شلبي أنه وردت توصيات كثيرة تظهر أن الكتاب كان خارج المسجد. ومن ذلك ما قاله الإمام مالك عندما سئل عن ذلك: لا أرى ذلك يجوز؛ لأن الأطفال لا

---

(١) عبد الرحمن الحجي: نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، ص ص ٢٥ - ٥٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتحفظون عن النجاسة[1]. وقد ورد في كتب السنة ما يؤيد ذلك؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم - أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين.

ورغم ما قاله الفقهاء؛ فإن هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤكد أن الكتاب ظل أحيانًا كثيرة في المسجد، والذي يقرأ ابن حبير وابن حوقل، ورحلة ابن بطوطة يجد ذكر الكثير من الحلقات التي التف فيها الأطفال في المسجد حول معلم القرآن[2].

ويبدو أن عدد الكتاتيب قد ازداد زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح في كل قرية كتاب؛ بل ربما وجد في القرية الواحدة أكثر من كتاب. وقد ذكر ابن حوقل أنه عد قرابة (٣٠٠) معلم كتاب في مدينة واحدة هي مدينة بلرم في صقلية[3]، ولا شك أن تلك الزيادة تعكس الطلب الجماهيري على التعليم من ناحية، وما أتيح لهذا الطلب الجماهيري من وسائل الإشباع من ناحية أخرى. فقد أوجب الإسلام على الآباء أن يعلموا أولادهم إذا كانوا قادرين على ذلك[4]، كما أن الأوقاف التي كان يحسبها المحسنون من محبي العلم والمعرفة –إضافة إلى ما كان يسود المجتمع الإسلامي من شعور بالتكافل الاجتماعي بين أفراده –

---

(١) أحمد شلبي: التربية الإسلامية: نظمها، فلسفتها، تاريخها، ص٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص٥٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٤.

(٤) أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص ٦٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أتاح لكثير من الطلاب مواصلة التعليم في الكتاتيب وغيرها من المؤسسات التعليمية.

لقد ظلت الكتاتيب مطارح التعليم الشعبي لعامة أبناء المسلمين، وظلت تلك الكتاتيب الإسلامية تؤدي دورها عبر عصور الإسلام المختلفة حتى نازعتها هذا الدور المدرسة الإبتدائية الحديثة؛ واستطاعت أن تحل محلها في كثير من بلدان العالم الإسلامي، في قصة طويلة تحتاج إلى دراسات خاصة مستقلة. وما بقي منها مازال يؤدي دوره في حفظ القرآن وثقافة الإسلام حتى الآن، وإن كان يحتاج إلى عناية ورعاية وتطوير.

(٤) التعليم في المسجد

تؤكد لنا الشواهد التاريخية الصادقة حرص رسول الله –صلى الله عليه وسلم- على نشر العلم بين أتباعه، وأنه اتخذ من المسجد النبوي مكانًا للعلم والتعليم. ولم تمض سوى مدة وجيزة حتى ظهرت قيادات تربوية من الرجال والنساء، مثل: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وسعد بن عبادة، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وأسيد بن حضير، وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهم أجمعين[1].

---

(١) عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية، ج١، ص ص ٤٢ - ٤٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم ظهر أهل الصفة في مسجد الرسول –صلى الله عليه وسلم- ففرغوا أنفسهم لطلب العلم والجهاد. ولقد بدأ عدد أهل الصفة قليلاً، ثم ظلوا يتزايدون فيما بعد؛ إذ إن بعض الروايات تجعلهم عشرين في حين أن روايات أخرى تصل بهم إلى أربعمائة من القراء المجاهدين، ولقد عكفت هذه الأعداد الكبيرة من أهل الصفة على التعليم والجهاد؛ إذ كانوا يخرجون في كل سرية من سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم. ولعل أهل الصفة هم النواة الأولى لفكرة المدرسة التي ظهرت فيما بعد، وكان يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لطلب العلم والتعليم نظير أجور أو أرزاق ينالونها من الأوقاف، مع فارق أساس هو أن أهل الصفة قد جمعوا بين العلم والجهاد؛ بينما اقتصر معلموا المدارس في الغالب على طلب العلم. كذلك فإن أرزاق أهل الصفة لم تكن منتظمة بعكس أرزاق معلمي المدارس؛ فقد كانت منتظمة عن طريق الأوقاف ثابتة الدخل والمنصرف[1].

وفي هذا الجو التعليمي –التعلمي ظهرت كفاءات علمية متعددة، كعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن العباس رضي الله عنهم. وكان الأخير يسمى البحر لسعة علمه، وكان يعلم علوم الدين، واللغة، والشعر، وحرصًا على إفادة طلابه الكثيرين، وتلبية طلباتهم كان يخصص يومًا للقرآن والتفسير وثانيًا لمغازي رسول الله -صلى الله عليه وسلم، وثالثًا لأيام العرب، ورابعًا للأنساب، وخامسًا للشعر والنحو. وكان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- يلفت نظر

(١) المصدر السابق، ص ص ٤٧٢- ٤٨٠.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمال الدولة وقادتها إلى تلك الكفاءات العلمية المتعددة عندما قال لهم في مؤتمر الجابية: "من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله سبحانه وتعالى جعلني خازنًا قاسمًا"[1].

ولقد أقبل طلاب العلم على تلك الحلقات الدراسية التي كانت تعقد بالمساجد المنتشرة في أرجاء الدولة الإسلامية؛ حتى أن الحلقة الواحدة كانت تضم المئات، بل الألوف. وتروي المصادر أن أبا الدرداء كان من أوائل من عقد هذه الحلقات في بلاد الشام، وأن عدد طلابه قد بلغوا ألفًا وستمائة ونيفًا، وأنه كان يقسمهم إلى مجموعات، ويضع على كل مجموعة عريفًا يحفظهم القرآن.

ويجب أن نلفت النظر هنا إلى أنه منذ أن بنى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- مسجده في المدينة مكانًا للعبادة، والتعليم، وإدارة شؤون المسلمين، أصبح تقليدًا إسلاميًا. ولهذا اهتم الحكام المسلمون بإنشاء المساجد رمزًا لقيام دولة الإسلام، وسيادته على الأقطار الداخلة فيه. وتمثل المساجد الجامعة الكبيرة في العواصم الإسلامية رموزًا حضارية. وكانت تلك المساجد عبر العصور أماكن علم، وعبادة، وقيادة، وتوجيه. ويذكر المؤرخون أمثلة لذلك: جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذي أنشئ سنة ٢١هـ، وجامع أحمد بن طولون

---

(١) المصدر السابق: ص ص ٤٠ - ٤٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي أنشيء عام ٢٥٩هـ، والجامع الأزهر الذي أنشئ عام ٣٦١هـ[1]. لقد كانت هذه المساجد الجامعة مركزًا للنشاط الديني والاجتماعي، ومكانًا للاحتفالات الدينية في الأعياد والمناسبات الإسلامية، ومقرًا لرجال القضاء والحسبة يباشرون منه تنفيذ أحكامهم، ومؤسسات للتعليم بشتى أنواعه: النقلية والعقلية. وبجوار هذه المساجد الجامعة في العواصم انتشرت المساجد في مدن العالم الإسلامي وقراه، لكي تقوم بدورها الديني والتربوي في حياة المسلمين. وتمتعت تلك المساجد عبر العصور بحرية فكرية وعلمية واسعة، ولم تتقيد تلك الحريات إلا في عصور التخلف والضعف. ومازالت المساجد الكثيرة المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي بحاجة إلى حركة إسلامية تربوية تعيد لها دورها التربوي المؤثر.

(٥)التعليم في المدارس

كان ظهور المدارس تطورًا طبيعيًا لتنوع العلوم، وشدة إقبال الناس على حلقات العلم؛ ولهذا حفلت كثير من المساجد بحلقات دراسية عدة، لا بحلقة واحدة، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس، وأصوات الطلاب يسألون، ويناقشون، وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة؛ فتحدث في المسجد شيئًا قليلاً من الضجيج

(١) المقريزي: الخطط المقريزية، ج٤، ص ص ٧٩- ٨٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدى على وجهها الأكمل. ثم إن العلوم تطورت بتطور الزمن، وظهرت علوم تستدعي دراستها الحوار والنقاش؛ وهذا يتنافى مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وسكينة. وهناك عامل ثالث ساعد على ظهور المدارس هو أن جماعة اشتغلوا بالتعليم معظم وقتهم، وحاولوا أن يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس؛ ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى مناسب من العيش، فلم يكن بد حينئذ من إنشاء المدارس لتضمن لهم جرايات تقوم بحاجاتهم[1]. أما العامل الرابع الذي أدى إلى ظهور المدارس فهو روح الخير العام الذي كان يسود المجتمع الإسلامي؛ فالمسلم يتلمس أفضل أبواب الإنفاق في سبيل الله. ولا شك أن الإنفاق على نشر العلم والتعليم كان من أهم أبواب هذا الإنفاق. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[2].

وفهم المسلمون أن الوقف على التعليم هو أفضل أنواع الصدقات الجارية، فظهرت الأوقاف التعليمية وازدادت إيراداتها، واندفع الخلفاء والأمراء والأثرياء والعلماء إلى إنشاء أنواع متعددة من المدارس يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لدراسة علوم معينة يحددها الواقف[3] ولقد امتاز التعليم في المدارس

---

(١) أحمد شلبي: التربية الإسلامية: نظمها، فلسفتها، تاريخها، مرجع سابق، ص ص ١١٣ - ١١٤.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، كتاب الوصية - رقم الحديث ٣٠٨٤.

(٣) عن أهمية الأوقاف في الحياة الثقافية والتعليم راجع كتاب محمد أمين علي: تاريخ الأوقاف في مصر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأنه تعليم نظامي طوال الوقت[1]. يقول أحد الباحثين: "إن عـددًا مـن الطـلاب كان يسكن هذه المدارس التي يمكن تشـبيهها بالكليـات الداخليـة في جـامعتي أوكسفورد وكمبرج"[2].

ولقد كانت هذه المدارس آية من آيات الفن الإسلامي، أنفقـت في بنائهـا الأموال الطائلة، وحبست عليها الأوقاف العظيمة، وجعلت الرواتـب السـخية لمعلميها وطلابها والموظفين بها. فمدرسة السلطان حسن (٧٥٧هـ) عـلى سـبيل المثال تعد من أعظم الآثار الإسلامية في مصر، وتلخص لنـا واجهتهـا الرئيسـية جميع خصائص الفن الإسلامي؛ ففيها الخـط الكـوفي، والخـط النسـخي، وفيهـا الزخارف التي نقلها المسلمون من الأمم، والزخارف التـي أبـدعوها وصـارت من أخص مميزات فنهم[3]. ومن الملاحظ أن المسجد كان يمثـل جـزءًا مهـمًا مـن المبنى المدرسي، وأن افتتاح المدرسة كان يؤرخ له بتاريخ أول صلاة أقيمت فيها.

ويروي لنا التاريخ أن علماء ما وراء النهر أصـابهم الهـم والحـزن عنـدما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد، وقالوا أنه كان يشـتغل بـه أربـاب الهمـم العاليـة الذين يقصدون العلم لشرفه، ولما صار عليه أجر تدانى إليه أرباب الكسل[4]. إلا أن هذا الخـوف سرعـان مـا تبـدد، إذ ارتفـع أكثـر علـماء المـدارس إلى مسـتوى

---

1 Makdisi: Muslim Inistitution of Learning, pp. 1- 56.
Tibawi: Origin and Character of Al- Madrasah, pp. 25- 238

(٢) عبد الله عبد الدايم: التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، ص١٥٥.

(٣)محمد مصطفى زيادة وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية،ص ص ٥٨٨ - ٥٩٠.

(٤) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، ص ٥٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المسؤولية العلمية، ومارسوا واجبهم العلمي، وكانت لهم مكانة عظيمة، فسعى إليهم الملوك والأمراء[1].

وبذلك انتشرت المدارس انتشارًا كبيرًا، حتى أن المقريزي يذكر لنا ثلاثًا وستين مدرسة كانت في القاهرة في عصره، ويصف الرحالة ابن جبير ثلاثين مدرسة كانت في بغداد، وكانت جميعها تفوق القصور جمالاً وروعة، وقد أفرد النعيمي الدمشقي مؤلفًا خاصًا يصف فيه مدارس دمشق وحدها[2].

ويهمنا أن نلفت النظر إلى كثرة تلك المدارس، وخاصة مدارس القرآن والحديث، والفقه. وكانت تلك المدارس تضم مكتبات يرجع إليها طلاب العلم. ومن الأمثلة على ذلك أن المدرسة المستنصرية ببغداد ضمت دار كتب عامرة بأنواع المؤلفات التي بلغ عددها عند الافتتاح ثمانين ألف كتاب، عدا ما حمل إليها بعد ذلك. وكانت هذه الدار تساعد طلاب المستنصرية على النسخ والمطالعة والتأليف[3].

(٦)أماكن أخرى للتعليم

---

(١) ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص ص ٥٧ - ٦٠.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس.

(٣) ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، ج١، ص ص ٥٥ - ٦٠.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإضافة إلى المؤسسات التعليمية السابقة فقد ازدهر العلم والتعليم في أماكن أخرى، منها: المكتبات المتخصصة، ودكاكين الوراقين، والربط والزوايا.

المكتبات المتخصصة: يعجب الدارس للعناية التي وجهها المسلمون لإقامة المكتبات، فقد كان عددها يزداد باستمرار كمًا وكيفًا. ويصف أحد الباحثين هذه الظاهرة فيقول: "نجد في البلاد الإسلامية جميع أنواع المكتبات: المكتبات العامة المفتوحة للجمهور على اختلاف أنواعه، وأجناسه، وثقافاته، والمكتبات الخاصة التي يمتلكها أفراد معنيون لخدمة أغراضهم الشخصية، والمكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع والربط والخانقاه، ومكتبات الدولة التي ينشئها الخليفة أو الأمير أو حاكم الولاية، والمكتبات المتخصصة للدراسات العليا، والمكتبات التابعة للمدارس والجامعات على اختلاف أنواعها، والمكتبات الموجودة في المشافي والبيمارستانات"[1].

لقد حرص الملوك والأمراء والسلاطين على تزويد تلك المكتبات بالجديد من المؤلفات، وأرسلوا البعوث بحثًا عن الكتب الجديدة؛ لشرائها واستجلابها إلى تلك المكتبات. وكانت المكتبات تقدم لروادها الخدمات والتسهيلات المطلوبة؛ وهذا ما وفر للطلاب والمعلمين ظروفًا مساعدة على البحث والدراسة؛ ولهذا نشطت حركة التأليف والترجمة في البلاد الإسلامية في شتى مجالات العلم.

---

(١) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص ص ٨٢- ١٤٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دكاكين الوراقين: من الوسائط التربوية التي أدت دورًا مهمًا في نشر العلم والتعليم دكاكين الوراقين التي قدمت خدماتها لطلاب العلم بنسخ الكتب، وإرشاد الطلاب إلى بعض المراجع التي يحتاجون إليها في دراساتهم. ويكفي أن نذكر هنا أن ابن النديم صاحب كتاب الفهرست كان وراقًا، وأن كثيرًا من الطلاب قد وجدوا الإرشاد العلمي داخل تلك الدكاكين، إنها لم تكن مؤسسات لبيع الكتب وحسب؛ بل كانت مكانًا للقراءة، وطلب الإرشاد العلمي[1].

الربط والزوايا والخوانق: المرابطة هي الإقامة بالثغر المعرض للعدو للذود عنه، والربط مكان المرابطة وجمعها ربط. ولما كانت الربط لإقامة الجند في الثغور فقد ضمت كثيرًا من العلماء والفقهاء. وعندما قل اشتغال المسلمين بالجهاد تحولت تلك الربط إلى تعلم العلوم الشرعية وتعليمها، ثم أصبحت فيما بعد ملتقى للزهاد والمتصوفة والمنقطعين لعبادة الله. أما الخوانق فهي جمع خانقاه وهو الاسم الفارسي لكلمة رباط العربية، ولكنها كانت أكثر التصاقًا بالتصوف منها بالجهاد. أما الزاوية فقد أطلقت على المسجد الصغير أو المصلى، ثم أخذت الطابع الصوفي، وفي أحيان قليلة الطابع الجهادي الصوفي[2]. وقد انحرفت بعض تلك المؤسسات عن دورها التربوي الإسلامي وخاصة في عصور الضعف.

(٧)أهم طرق تعلم العلوم الشرعية

(١) سعيد إسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية، ص ص ٤٧٥ - ٤٩٢.

(٢) سعيد إسماعيل علي: معهد التربية الإسلامية، ص ص ٤٩٣ - ٥١٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعددت طرق التعليم والتعلم عند المسلمين بتعدد العلوم والمعارف. ومن هذه الطرق: التعلم الذاتي، والملازمة، والإملاء، والمناقشة أو المناظرة، والرحلة، والقدوة.

التعلم الذاتي: لقد أظهر العلماء المسلمون إدراكًا كبيرًا لأهمية طريقة التعلم الذاتي، فأبدوا حرصًا فائقًا على الإطلاع. ورغم عدم توافر الطباعة فقد أقبلوا على استنساخ الكتب واقتنائها بخطوطهم، أو خطوط النسخة والكتبة. ويعجب الدارس كيف استطاع العلماء في ظل هذه الظروف أن يجمعوا العدد الكبير من الكتب في مكتباتهم الخاصة، وأن يقضوا الساعات الطوال في القراءة الذاتية قراءة ناقدة واعية.

لقد كان الطالب ينتقل على يد معلم، إلى القراءة الدقيقة المتأنية؛ فيعلق على ما يقرأ، ويحقق، ويقارن، ويستخرج النتائج لنفسه. والواقع أن قراءة تراجم العلماء تظهر الدور الكبير الذي أدته طريقة التعلم الذاتي في حياة هؤلاء العلماء، والأهمية البالغة التي منحها المعلمون والطلاب لهذه الطريقة.

الملازمة: يستخدم علماء التراجم كثيرًا مصطلح الملازمة للدلالة على مصاحبة الطالب للمعلم لأوقات طويلة، سواء أكان ذلك في دروسه النظرية أم ممارسته العملية.

والطالب الملازم غير الطالب القارئ. وكلاهما موجود عند كتاب التراجم، فنجد كثيرًا أن فلانًا قرأ على فلان أو اشتغل على يد فلان. وبجوار ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نقرأ مثلاً: أن سديد الدين محمود بن عمر قرأ الطب على فخر الدين المارديني، ولازمه مدة طويلة، ولم يكن يفارقه في سفره ولا حضره، وأن رشيد الدين أبو سعيد اشتغل بعلم الطب على رشيد الدين علي بن خليفة، ولم يكن في تلامذته مثله، فإنه لازمة حق الملازمة، وكان لا يفارقه في سفره وحضره، وأقام عنده بدمشق وهو دائم الاشتغال عليه. وطبيعي أن هذه الملازمة الطويلة لكبار العلماء قد أتاحت للطلاب مزيدًا من الاحتكاك العلمي بالمعلمين، وبخاصة أن الطلاب لم يكونوا يلازمون غالبًا إلا العلماء الأعلام، كما يدل على ذلك أسماء الأطباء الذين ذكر ابن أبي أصيبعة أن لهم تلاميذ ملازمين[1].

الإملاء: في ظل غياب الطباعة واعتماد العلم والتعليم على النسخ، اشتدت الحاجة إلى أن يملي المعلم على طلابه بعض الأمالي، وكانت الأمالي تشتمل على ذكر آراء السابقين في المسألة، ومناقشة المعلم لتلك الآراء، ثم طرح آرائه أو تجاربه العلمية في الموضوع. وكان الطالب يكتب في أول الدرس: أملاه شيخنا فلان، ثم يدعو له بالخير. وعلى سبيل المثال فإن إحدى أمالي أبي الفرج بن الطيب الطبيب تضمنت هذه العبارة: هذه الكراسة بخط سيدنا الأجل أبي النصر محمد ابن علي بن بزرج تلميذ أبي الفرج، أملاه الشيخ أبو الفرج، أطال الله بقاءه[2].

وكان الطالب يكتب المسألة موضوع المحاضرة، ويفتخر أنه كان من تلاميذ ذلك العالم، وأنه حضر أماليه العلمية، وكتبها بنفسه. ولكن الاعتماد على

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ص ٥٦٩ - ٤٠٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإملاء كطريقة للتعليم اختفت بالتدريج، وحلت محلها طريقة القراءة من الكتب وشرحه، وذلك بعد رواج صناعة الورق، وانتشار الكتب[1].

المناقشة والمناظرة: كان الفكر التربوي الإسلامي يشجع المناقشة، والمناظرة، والمطارحة، في التعليم؛ إذ لابد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة، لأن المطارحة والمناظرة أعظم فائدة من مجرد التكرار[2]، وكانت تلك المناظرات تتم في جو علمي يتسم بالبحث عن الحقيقة، ولا يتدخل فيه الغرور، فإن المناظرة مشاورة، والمشاورة لاستخراج الصواب، وذلك إنما يحصل بالتأمل والإنصاف[3]. ولاشك في أن هذه المناقشات والمناظرات كانت أداة طيبة لتبادل الآراء والأفكار العلمية بين المعلمين والطلاب.

الرحلة: في عالم إسلامي واحد لا يعرف الحدود بين أقاليمه ودوله، وفي ظل ظروف حياتية وفرتها الأوقاف الإسلامية، استطاع الطالب أن ينتقل من مكان إلى مكان؛ باحثًا عن العالم المشهور الذي يتتلمذ عليه، فيلازمه حتى يتخرج ويتقن الصنعة. ولقد تميز الفكر التربوي الإسلامي بالحث على الرحلة في طلب العلم؛ لما في الغربة من تفرغ نتيجة للبعد عن الأهل والوطن، ولأنها تهيئ المناخ للاحتكاك بروافد ثقافية جديدة مختلفة. ثم إن تحمل مشاق الرحلة يقوي إرادة الطالب فيدرك لذة العلم[4]. يقول الزرنوجي: "ولابد لطالب العلم من

---

[1] Tretton: Materials of Muslim Education, P 32.

(٢) ظهر الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، ص ٨٠.

(٣) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ج١، ص ٣١.

[4] Tibawi: Arabic and Islamic Themes, p. 182.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع، فلهذا اختاروا الغربة، ولابد من تحمل النصب والمشقة في سفر التعلم، كما قال موسى صلوات الله على نبينا وعليه في سفر التعلم، ولم ينقل عنه ذلك في غيره من الأسفار: "لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا"، وليعلم أن سفر العلم لا يخلو من التعب؛ لأن طلب العلم أمر عظيم، هو أفضل من الغزاة عند أكثر العلماء. والأجر على قدر التعب والنصب، فمن صبر على ذلك التعب وجد فيه لذة العلم تفوق لذات الدنيا. ولذلك كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالي وانحلت له المشكلات يقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات"[1].

ولاشك أن تلك الرحلات العلمية قد ساعدت على نشر العلم وذيوع المعرفة وتبادل الأفكار والآراء.

القدوة: ذلك أن المعلم لا ينقل إلى طلابه المادة العلمية فقط؛ بل ينقل إليهم ما يؤمن به من قيم وأفكار، وما يتحلى به من آداب وفضائل. وهو إن كان يقوم بنقل المادة العلمية بشعور منه وجهد، فإن الطلاب يأخذون عنه آدابه وفضائله دون شعور منه أو جهد، وذلك عن طريق الاقتداء. ولذلك تحفل أدبيات التربية الإسلامية بالحديث عن العالم وآدابه وأخلاقه[2]، وكان علماء المسلمين مثلاً عليا لطلابهم: علمًا وتقوى، وورعًا. وعلماء المسلمين في ذلك يسبقون بكثير علماء

---

(١) برهان الإسلام الزرونجي: كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم، ص ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) عبد الرحمن النقيب النقيب: بحوث في التربية الإسلامية، ص ص ٧٥- ٨٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التربية المحدثين؛ لأنهم أكدوا دور القدوة في التربية والتعليم عمومًا، وفي تكوين الاتجاهات والقيم لدى الطلاب خصوصًا[1].

(٨)الخاتمة

رأينا كيف تعددت مطارح تعليم العلوم الشرعية، والعقلية فشملت الكتاب والمدرسة والمسجد ودكاكين الوراقين، والربط والزوايا والخوانق. وكأني بطالب العلوم الشرعية والعقلية يجد فرصته في العلم والتعلم، وقد مكنت الأوقاف الإسلامية تلك المؤسسات من أن تمارس عملها بحرية، ودون تدخل. كما تعددت أيضًا طرق اكتساب العلوم الشرعية، ومن تلك الطرق: التعلم الذاتي، والملازمة، والرحلة في طلب العلم. وهكذا ظهرت أجيال متتالية من الطلاب والعلماء حملوا أمانة العلم وأمانة نشره والدعوة إليه.

وقد كان وراء تلك المؤسسات جميعًا روح إسلامية عامة تدفع وتحرك وتمول. ولذلك فإن الدرس الأول المستفاد من ذلك هو أننا نستطيع أن نفعل الكثير في خدمة العلوم إذا استطعنا أن نجعل الشعب يشارك من جديد في تمويل

---

(١) أحمد زكي صالح: الأسس النفسية للتعليم الثانوي، ص ص ٤٠١ - ٤٠٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التعليم ونشره. إن عودة صور عصرية من الأوقاف الإسلامية تستطيع أن تفعل الكثير في مجال إيجاد مؤسسات تربوية، ترعى العلوم الشرعية والعقلية، وتيسرها للجمهور، وتجعلها في متناول يده. كذلك فإن الحس الشعبي إذا تحرك إسلاميًا فإنه يستطيع أن يوفر الكثير من الخدمات الطلابية في مجال الإسكان، والغذاء، والرعاية الصحية، والنفسية. كما يستطيع توفير مكتبات عامة في كل مسجد ومدرسة.

كذلك ينبغي أن نلفت النظر إلى أهمية طرق التدريس الإسلامية التي كادت تختفي، مثل: التعلم الذاتي، والملازمة، والمناقشة والمناظرة، والمراسلة، والرحلة، والقدوة، وجميعها طرق أساسية لإنجاح العملية التعليمية. وأخيرًا فإن أهم ما ينبغي أن نلفت النظر إليه هو ربط التعليم عمومًا، وتعليم العلوم الشرعية على وجه الخصوص بالله تعالى. فهذا الربط هو الذي يجعل التعليم أكثر من أداة للحصول على درجة علمية تؤهل صاحبها لمركز معين، يدر عليه كسبًا ماديًا معينًا، وهو الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى تنمية الشخصية الإسلامية القادرة على القيام بواجباتها خير قيام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٩)قائمة المصادر

١. **القرآن الكريم.**

٢. **ابن أبي أصيبعة، أحمد**

عيون الأبناء في طبقات الأطباء.- القاهرة: المطبعة الوهابية، ١٢٩٩هـ.

٣. **ابن حزم، علي بن أحمد**

الفصل في الملل والأهواء والنحل.- القاهرة: طبعة عبد الرحمن خليفة، ١٣٤٧هـ.

٤. **أحمد زكي صالح**

الأسس النفسية للتعليم الثانوي.- القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٥٩م.

٥. **أحمد شلبي**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التربيـة الإسـلامية: نظمهـا، فلسـفتها، تاريخهـا. - القـاهرة: النهضـة المصرـية، ١٩٧٣م.

٦. **أحمد فؤاد الأهواني**

التربية في الإسلام. - القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م.

٧. **برهان الإسلام الزرنوجي**

كتاب تعليم المتعلم طريق التعلـيم. - تحقيـق مـروان قبـاني. - بـيروت: المكتـب الإسلامي، ١٩٨١م.

٨. **حاجي خليفة**

كشـف الظنـون عـن أسـامي الكتـب والفنـون. - اسـتانبول: وكالـة المعـارف، ١٩٤٣م.

٩. **سعيد إسماعيل علي**

معاهد التربية الإسلامية. - القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٦م.

١٠. **طاش كبرى زاده**

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. - القـاهرة: دار الكتـب الحديثة، ١٩٦٨م.

١١. **ظهير الدين البيهقي**

تاريخ حكماء الإسلام. - دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٤٦م.

١٢. **عبد الحي الكتاني**

نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية. - د.م: د.ن، ١٩٨٠؟.

١٣. **عبد الرحمن الحجي**

نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي. - بيروت: دار القلم، دمشق، ١٩٧٩م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٤. **عبد الرحمن النقيب**

بحوث في التربية الإسلامية.- الكتاب الأول.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٣م.

١٥. **عبد الرحمن النقيب**

بحوث في التربية الإسلامية.- الكتاب الثاني.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٤م.

١٦. **عبد الله عبد الدايم**

التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨.

١٧. **محمد ماهر حمادة**

المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصارئرها.- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م.

١٨. **محمد محمد أمين**

الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر: ٢٥٠- ١٥١٧م.- القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٨٠م.

١٩. **محمد مصطفى زيادة وآخرون**

تاريخ الحضارة المصرية: العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م.

٢٠. **المقريزي، أحمد بن علي**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطط المقريزية.- القاهرة: مطبعة النيل، ١٣٢٦هـ.

٢١. ملكة أبيض

التربية والثقافة العربية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر.- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.

٢٢. موسوعة الحديث الشريف- الإصدار الأول- شركة صخر- ١٩٩٦م.

٢٣. ناجر معروف

تاريخ علماء المستنصرية.- بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٥م.

24. Makdisi, G:"Muslim Institution of Learning in the Eleventh Century: Baghdad" in The Bulletin of the School of Oriantal and African Studies- London: University of London, Vol. XXIV, 1961.
25. Nasr, S.H.:Islamic Science: An Illustrated Study.- London: World of Islam Festival Publishing Co. Ltd., 976.
26. Tibawi, A.L:Arabic and Islamic Themes.- London: Luzac Company, 1974.
27. Tibawi, A.L:"Origins and Character of Al- Madrasah", in The Bulletin of the School of Oriental and African Studies.- London: Univeristy of London, Vol. XXIV, 1961.
28. Tritton, A.S.: Materials on Muslim Education in the Middle Ages.- London: Luzac Company, 1957

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com